حياة محمد ﷺ



حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه
الخليفة الثاني للامام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام



حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

Life of Muhammad

(May peace and blessings of Allah be upon him)

(Arabic Translation)

An excellent and affectionate life sketch of the Holy Prophet Muhammad, *may peace and blessings of Allah be upon him*, a better biography has yet to be written. This wonderful life sketch is followed by the Holy Prophet's personality and character in various phases of his life. Full of beautiful teachings of Islam practically shown by the Holy Founder of Islam - a guideline for every one's life.



حياة محمد ﷺ

بقلم:

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: حياة محمد ﷺ

الطبعة الأولى: ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م

Ḥayāto Muḥammad

Life of Muḥammad, *may peace and blessings of Allah be upon him.*

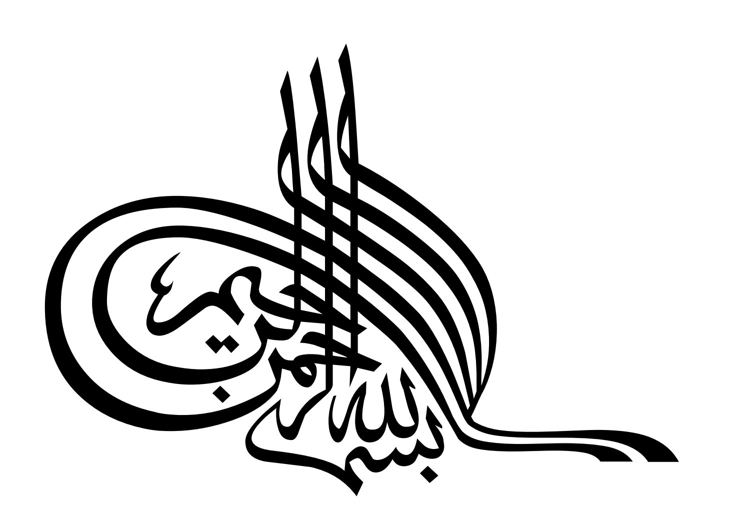
By: Ḥaḍrat Mirzā Bashīr -ud- Dīn Maḥmūd Aḥmad,
(may Allah be pleased with him) **Khalīfatul Masīḥ II**.

Translated into Arabic from English
By: Fathy Abdel Salam

Published by:
Al- Shirkatul Islamiyyah
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in UK at:
Raqeem Press
Islamabad

ISBN: 1 85372 854 3


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المواضيع

كلمة الناشر

لقد ألف حضرة مرزا بشير الدين محمود ﷺ، الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام باللغة الأردية كتابًا عظيمًا بعنوان: "ديباجة تفسير القرآن الكريم" وضمَّنه نبذة من السيرة الطاهرة لسيده وسيدنا رسول الله ﷺ. ولقد تُرجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية وطبع هذا الجزء منه بصورة منفصلة تحت عنوان: "حياة محمد ﷺ"، بتغيير بسيط اقتصر على ترتيب الفصول فحسب. وقد ارتأى حضرة أمير المؤمنين - نصره الله تعالى - الخليفة الخامس للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام أن نصدر هذا الجزء من الديباجة باللغة العربية في كتاب منفصل أيضا لما يشتمل عليه من طرح للسيرة النبوية الشريفة بصورة لم يسبق لها مثيل. لقد نظم المؤلف أحداثًا في تسلسل تاريخي وسياق متناسق يظهر كمال المصطفى ﷺ وعظمة شخصيته الفذة. وعلّق في كثير من الأحيان على هذه الأحداث وبيَّن علاقتها بتعاليم القرآن الكريم وبالخلق العظيم للرسول ﷺ الذي كان الصورة المتجسدة للقرآن الكريم. كما أزال اللبس عن بعض الأحداث التاريخية التي فُهمت خطأ، أو أُخرجت من سياقها، والتي كانت المادة التي استخدمها المغرضون من أعداء الإسلام للهجوم عليه وعلى النبي الكريم ﷺ.

ونحن حين نقدم هذا الكتاب للقارئ العربي نود أن ننوِّه إلى بعض الأمور المتعلقة بالترجمة، منها:

* لقد تُرجم ونُشر هذا الكتاب إلى عدة لغات عالمية بما فيها الإنجليزية، ومنها نقله المترجم إلى اللغة العربية، لذا فإن ترتيب فصول الترجمة العربية قد جاء مطابقًا للترتيب في الترجمة الإنجليزية.
من أسلوب المؤلف أنه حين يشير إلى الأحداث التاريخية فإنه في بعض الأحيان يقتبس من النصوص اقتباسًا معنويًا وليس لفظيًا بالضرورة.

* ثمة هوامش وضعها حضرة المؤلف بنفسه، وهناك هوامش أخرى قد أضافها المترجم توضيحا للمقصود، وقد مُيِّزت عن الهوامش الأصلية *بالخط المائل*.

* ترقيم الآيات القرآنية جاء باعتبار أن البسملة هي الآية الأولى من كل سورة تبدأ بها.

لقد كان شرف ترجمة هذا الكتاب القيم من نصيب الأستاذ م. فتحي عبد السلام المحترم. وقد ساهم الأستاتذة الأفاضل التالي ذكر أسمائهم بشكل خاص في إخراج هذا الكتاب. فعسى أن يتذكرهم القارئ في دعائه أن يتقبّل سبحانه وتعالى منهم هذا العمل ويجعله في ميزان حسناهم، ويبقيه لهم من العلم الذي يُنتفع به: مصطفى ثابت، فلاح الدين عودة، د. محمد حاتم حلمي الشافعي، تميم أبو دقة، محمد طاهر نديم، وعبد المجيد عامر. جزاهم الله تعالى جميعا أحسن الجزاء، آمين.

وأخيرًا، نبتهل إلى الله ﷻ أن يجعل هذا السِّفْر المبارك سببًا لهداية كثير من عباده رحمةً منه وفضلاً، آمين.

الناشر

مقدّمة المترجم

هذه ترجمة من الإنجليزية لكتاب الإمام المسلم العظيم مرزا بشير الدين محمود أحمد: حياة محمد ﷺ؛ محمد الذي انتظره تاريخ التطور الإنساني ليُتوّجه الله ويختمه بالطفرة الروحية الاختيارية التي يسعى إليها الإنسان بقدميه، وتحدث له بوعي، ويولد وهو يحس مخاضه، محمد الذي يصلي عليه الله ويسلم، ولذلك نصلي نحن عليه ونسلم.

محمد ﷺ الذي كان إذا تحدث عن الله جَلَّ جَلالُهُ، بدا للناظرين وكأن وجوده كله يذوب في حب عميق له تعالى، وينبض كيانه كله بنشوة إخلاص فريد لله عَزَّ وَجَلَّ. اقرأوا في كتب التاريخ كيف كان ينسل ليلاً فتتبعه زوجه عائشة لتراه في البقيع يدعو لهم طاعة لأمر جاءه به جبريل، أو تجده ساجدًا مستغرقًا في تسبيحة عذبة لله، وكم ليلة ظنت أنه ربما غادر المكان إلى زوجة أخرى، فتلتمسه فتجده قريبًا في حالة ذوبان في حمد وتمجيد لله، فتقول كل مرة: أنا في واد من الفكر وأنت في واد آخر.

لقد تحكم حبه لله تعالى وإخلاصه له في جميع مجالات حياته، ولقد تلونت كل مناحي حياته بصبغة هذا الحب وذلكم الإخلاص. ولقد كان يصرف الجزء الأكبر من وقته في الليل والنهار يصلي لله، ويسبح بحمده، رغم كل الأعباء الثّقال التي كان

يحملها على عاتقه، والمسئوليات الجسام التي كانت تُطوّق عنقه. وكان يهجر فراشه، ويستأذن زوجه الطاهرة قائلاً: "دعيني يا ابنة أبي بكر أتعبد لربي"، ويكرّس كيانه لعبادة الله تعالى، ويتفكر في بكاء غالب، حتى يحين وقت الخروج إلى صلاة الصبح. وأحيانًا، كان يقف طويلاً في الصلاة من آخر الليل حتى تتورّم قدماه، وكل من شاهده على هذا الحال تأثر به كثيًرا. إنهم يهاجمونه الآن كما لم يُهاجَم إنسان بالتهم الكاذبة، وهو أطهر من خلق الله وأصدقهم، وأعظمهم استقامة وشفافية ونظافة وبساطة وتواضعًا ورقة وثباتًا ونزاهة، وانتظامًا على الحمد والتسبيح بمجد الله، وتعقلاً وعطفًا ووفاء، واحترامًا للفقير، وإحسانًا للعشرة، وإكرامًا للنساء والجار والطفل واليتيم والأرملة، وعتقًا للرقيق، وبرًا بالرّحم، وتربية روحية للصحب، وتعاونًا على المعروف، ونقاء للسان، وغوثًا للملهوف، وحفظًا للجميل، وصبًرا على المحن، وضبطًا للذات، وسهولة اللقاء، وصعوبة في قبول الشفاعة عند تطبيق القانون، ونفورًا من التحسس والتجسس والتطفل على ما لا يعنيه وفضح العيوب والقسوة، والهجوم على الأمور بلا تحقيق، وهكذا شهد تاريخه المدون.

إنه محمد ﷺ.. نبي الله الخاتم، هذا النبي الذي بارك كل من قبله من النبوة والصديقية والرسل، ودافع عن عصمة النبوة ونفى عنها كل تهمة، ولقد وجد في هذا الكتاب محاميًا قديرًا أثبت براءته وأعلن حقه أن يصدّق، وكان ذلك عقب الحرب العالمية الأولى مباشرة. هذا المحامي الذي أمضى عمره يجمع الناس إلى الحق

ويشحذ الحق من الله.

هذا المحامي ليس عربيًا بل هو هندي المولد، آذاه ما يسمع من سباب النبي والتحامل عليه تحت علم الدراسة والبحث، فقرر أن يخوض بحر الروايات، ويعيد قراءة القرآن ويتفرغ لفهمه، ففتح أسفار التواريخ، وتلقف الملفات، وخاض محيط التفسير المتلاطم ليخرج بجوهرة مكتوب عليها: أن الله ليس كما يفهمون، والرسول ليس كما يتهمون، فما كان الله لينـــزل شيئًا لا يليق، وما كان رسله دون المستوى اللائق.

تشتكي حياة الأنبياء عامة من نقص التسجيل أو الغموض.. ولكن كاتبنا يجد حياة قد فاضت عنها الروايات والتفاصيل. ويقول "من الصحيح أن هذه الغزارة في الحقائق والروايات المدونة قد أعطت النقاد الماكرين فرصتهم المنتظرة، ولكن من الصحيح أيضًا أنه حين تتم دراسة الانتقادات بعناية، ويتم الرد عليها بحسم، فإن ما تثيره فينا حياة النبي ﷺ من الإيمان والحب الغامر والتقوى، لا يماثلها فيه حياة أخرى... عندما تتم تصفية الحسابات الخاطئة للانتقادات والمفاهيم الزائفة، بردّها إلى القيم الصحيحة الثابتة، فإن حياة مثل هذه لمن المحتم أن تحبب نفسها إلينا وبصورة كاملة وإلى الأبد". ويشرح المؤلف كيف تؤثر فينا قدوة المصلي الذائب في صلاته كي تجعلنا نعيد اكتشاف الصلاة، فنحيا ما نقرؤه خلالها ونقترب.

ويرى المؤلف أن رقي محمد ﷺ وعلو مستواه الروحي كان نتيجة للالتصاق التام بالوحي الذي تلقاه، والذي قال له (كن

كذا) فصار تلك الكينونة، ومر بتلك الولادة، وكان كما أُمِر أن يكون (انظر فصل:حياة الرسول كتاب مفتوح).

لقد رصد المؤلف حياة العرب قبل الإسلام رصدًا مركزًا، يتبين منه على الفور حقيقة الأثر الذي تركه هذا الرجل العظيم على قومه، والمستوى الذي رفعهم إليه.

في فصل: حالة جزيرة العرب عند مولد رسول الله، تلخيص للحالة الخلقية والعقلية والاقتصادية للعرب، وكذلك العلاقات بين الإنسان والإنسان التي كانت متخلفة في جوانب عميقة، متقدمة في جوانب أخرى محدودة.. لقد كانوا في ضلال مبين.

ويلقي الضوء على زواجه الذي يكشف عن بؤرة مضيئة وسط الظلام، هي بيته الطاهر، أعدت لمهمة عتيدة كي تزيد من مساحة النور تلك لتتسع حتى تبلغ أعماق المكان وأعماق الإنسان وكل الألوان، عندما تلقّى تاج النبوة فتوّجت بذلك أمانته وصدقه، وعزوفه عن الوثنية، وميله الجارف لإغاثة الملهوف، وصلة الرحم، وعتقه للعبيد، وحسن عشرته، حتى ليؤثر زيد بن حارثة أن يكون عبدًا ملازمًا له، على أن يكون حُرًّا وسط بيت أبيه. ما الذي رأته السيدة خديجة حتى وهبته النفس والمال؟ ما الذي رآه زيد حتى فضله على الأب والأم.. ما الذي رآه أهل مكة حتى أجمعوا إجماعًا لم يحدث في تاريخ العرب على إطلاق صفة الصادق والأمين عليه؟ لقد رأوا فيه ما رآه الله وأخبره به: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وتوّج ذلك بالوحي. لقد أنزل القرآن جائزة على رجلٍ عطوفٍ، يُكسِب المعدم، ويقرى الضيف، ويحمل المتعب الكليل، ويعين عند

المحنة، فقد كانت كلمات الله تتنـــزل دائمًا على هكذا رجال، وهذا هو أصل الإسلام الذي ظلموه، والنبي الذي هضموه حقه، ولم يسألوا: ما الذي رآه أبو بكر فيه حتى اكتفى بادعائه النبوة كدليل على صدقه، لأن مثله لا يكذب؟

هذه هي الرؤية الأولى والانطباع الأول للزوج العاقلة، والصديق المتّزن، والخادم الملازم، والجيران والمحيطين الذين لم تتولد فيهم مشاعر الخصام بعد.. إنه الصادق والرؤوف معًا. ولكم أيها القراء الحق أن تسألوا عما رأى النساء والعبيد الأوّلون، والعقلاء السابقون، في دعوة الله وكلامه.. لقد رأوا كرامة وحرية ورحمة وفهمًا.

وفي صفحة رائعة يكتبها مسلم غير عربي عام ١٩٢٠م، يوضح فيها كُنه الرحمة الجديدة بعنوان "رسالة الإسلام"، نجد ضوءا كاشفًا لرؤية إسلامية عذبة مستنيرة، تؤسس للإنسان ثم لشبابنا طريقًا للنهضة الحقة، بعيدًا عن السطحية.

وما بين الاضطهاد الذي يشيب له الولدان، والمُنْصَبّ انصبابًا على الضعفاء المسلمين الجدد، وحلاوة الإيمان الغلاّبة، وبين الهجرة إلى واحدة من البلاد المسيحية العظيمة وهي الحبشة؛ حيث لم يكن يُظلم الناس بسبب المعتقد، وما بين المقاطعة التامة من أهل مكة للنبي ﷺ وكل من يقف بجانبه بأي صورة، يرصد المؤلف محنة النبي وبحثه عن مخرج، حين أصبح يومًا لا يجد أحدًا منهم يكلمه، ولا يرد عليه أي رد من شدة الكيد، وإزاء ذلك يفكر في الذهاب للطائف – قريبًا من مكة – ليدعوهم.

ويرصد المؤلف حادثة مهمة، حين عرض ملائكة الله أن يدمّروا مضطهديه، وهو عائد مطرود من الطائف، جريح نازف، وهنالك قرر رفض العرض وانتظار السنن وديناميكيتها وتفاعلات الأحداث، حتى يهدى الله من أصلابهم من يوحد الله.

إنها حياة غنية قوية، تقاوم الموت وتطلب الحياة.. وتلتمس فرص التنوع الكوني لتثمر.

في المدينة كان هناك تربة صالحة للغرس، كما كان في الحبشة تربة صالحة للّجوء، كما كان في بلاد بعيدة تربة صالحة تنتظر دعوة التوحيد، وكان في الإنسان فرصة للاستئناس.

طرَق النبي الاحتمالات العديدة، وفاز منها احتمال يثرب التي أسلم بعض أهلها.. استمعوا من النبي وسمعوا من أعداء النبي.. كان كلام النبي حجة ناضجة للفهم، وكان أعداؤه يلقون بمطاعن ناضجة للتشويش، تم طبخها على مدى ١١ عامًا. واختار عرب المدينة النبي على عدوّه، وقرروا أن يمنعوه كما يمنعون أنفسهم وأعراضهم. وهاجر النبي ﷺ إليهم يقول: أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام. فيا ليت قومنا يفقهون!

وفي عنوان دال في فصل: الأخطار تحوم في المدينة؛ يبرئ المحامي الهندي موكله من تهمة إشعال شرارة أحداث الحرب مع أهل مكة بأدلة منصفة، تتبع تفاصيل الأحداث دون تجاهل، فقد كان النبي ﷺ يضع خططًا للإخاء، ويؤسس نظامًا للقضاء، كي يشتكي المظلوم ولا يتحول إلى جلاد، ويكتب عهودًا بين طوائف المدينة

للسلام والتعاون البنّاء والحرية الدينية، ويؤسس حقوق الناس، ويقيم الليل ويملي الكتاب، ويصلح بين المتخاصمين، ويحث على إماطة الأذى عن الطريق، ويدعو بالحكمة لدينه، بينما كان أهل مكة يخططون لإبادته، ويجوسون خلال القبائل المحيطة بالمدينة لتأليبهم ضد النبي وصحبه، ويراسلون منافقي المدينة بالرغب والرهب ليطردوا النبي ومن معه أو يقاتلوهم، "وإلا غزوهم فقتلوا الرجال وسبوا النساء"، وهكذا كانت رسالتهم، وبدأت كراهية القبائل العربية تنمو ومسعر الحرب يشتعل.

لم يكن النبي ﷺ؛ المسؤول الأمين، بمستسلم للغفلة.. فقام بالأقل الواجب رغم حقه في حرب وقائية، وهذا الأقل الواجب هو الاستطلاع لمعرفة ما يحدث. لقد كانت سرايا الاستطلاع تسمى غزوات من باب التجوّز، وكانت القوافل المسلحة القريبة الممر حينئذ خطرة على المدينة، حتى خرج يومًا في عدد محدود يستطلع قافلة مسلحة، فنتج عنها معركة بدر.

ويهمل كثير من الكتاب والنقاد ما يكمن في معركة بدر من تخطيط إلهي واضح، قاده الله تعالى لإظهار آية محددة، وهي أنه هو الذي أرسل هذا الرسول، وهو الذي أخرجه في عدد قليل هكذا، لا يدرى من سيلاقي، جيشًا أم عيرًا؟ وأراد له الاصطدام بهم هكذا، دون كفاءة عددية أو تسليحية.. ليكون هناك معجزة واضحة للإيمان، يعرف بها أهل مكة أن الله ﷻ هو الذي يقاتل وليس محمدًا في هذا اليوم. ويرد الكاتب بصدق وتدقيق على ما أثير من لغط حول مصير بني قريظة، في ما بعد عاصفة الصحراء لما

اجتمع العرب واليهود في مؤامرة لإبادة خضراء المسلمين الوليدة.

ويقص المؤلف من روايات السيرة دلالات على أشكال من حب شخص النبي ﷺ، والإخلاص النادر، ومشاهد تثبت أن شيئًا جديدًا في الدنيا يتكون راقيًا، ومولودًا جديدًا يرى النور، سواء في معركة بدر التي انتصر فيها الإسلام ونال فرصته للحياة، أو في أُحد التي انتقم فيها أهل مكة لقتلاهم، ولكنهم لم يقتلوا النبي ولا الإسلام. ورغم فرار الكثير من المسلمين في فوضى المعركة فإنه كان فرارًا لم يضر، وعادوا يصطفون دفاعًا عن مدينتهم، وإصرارًا على الحياة بعد الفرار، وتوبة والتئامًا سريعًا. ويكشف الكاتب وجه الإسلام الناصع في فصل ينم عن فهم استراتيجي عال، وفقه نافذ للقرآن، عندما يسأل بعد واقعة الخندق ومعجزة النجاة منها: هل أراد رسول الله استمرار الحرب؟ ويجيب بما يرضاه الله ويقول: حقًا هذا هو ديني الذي أوحيت. ثم يتبع خط حياة حبيبه محمد ﷺ حتى يواريه الثرى وهو يهتف بأمته: الصلاة وما ملكت أيمانكم، ثم يطلب طلبه الأخير: ألا يجعلوه أكثر من إنسان رسول. فلا تملك عقلك من الإعجاب، ولا دمعك من الانسياب، ولا قلبك من نبذ الارتياب، أنه حقًا نبي رب الأرباب.

فتحي عبد السلام

أسماء المراجع واختصاراتها

يستعمل بعض المفسرين حرفًا أو مجموعة من الحروف اختصارا لاسم المرجع المستعمل، غير أن هذا لا يفيد القارئ كثيرا لأنه يضطر إلى الرجوع مرات كثيرة إلى قائمة الاختصارات للتأكد من معنى الحرف المستعمل للدلالة على المرجع. وفي نفس الوقت يبدو أنه من غير المناسب كتابة اسم المرجع بأكمله في كل مرة يُذكر فيها. لذلك اتّبعنا طريقا وسطا، وذكرنا اسما مختصرا للمرجع، فمثلا بدلا من كتابة اسم المرجع على النحو التالي: "مسند الإمام أحمد بن حنبل"، اكتفينا بكتابة "المسند" أو "مسند أحمد"، وبدلا من "السيرة النبوية للشيخ أبو محمد عبد المالك بن هشام" اكتفينا بكتابة "ابن هشام". وهذه الأسماء المختصرة تدل القارئ بسهولة على المرجع المقصود. أما المراجع التي تستعمل بكثرة فلم نذكر لها اختصارا، وبالنسبة لأسفار الكتاب المقدس، ذكرنا الصيغة التي يستعملها عادة أهل الكتاب، وهي ذكر اسم السِّفْر متبوعا برقم الإصحاح ثم رقم الفقرة أو الفقرات المستشهد بها. وفيما يلي قائمة أسماء المراجع والاختصارات المستعملة، وقد راعينا كتابة اسم المرجع ومؤلفه كاملين.

الاسم المختصر	اسم المرجع والمؤلف كاملان
البخاري	صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري

مسلم	صحيح مسلم، الحافظ أبو الحسين مسلم بن حجاج
الترمذي	جامع الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي
أبو داود	سُنن أبي داود، الحافظ سليمان بن أشعث أبو داود
ابن ماجه	سُنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله بن ماجه القزويني
المسند، أو مسند ابن حنبل	مسند أحمد بن حنبل، الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل
النسائي	سُنن النسائي، الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي
الموطأ	موطأ الإمام مالك
كنْز العمّال	كنْز العمال في سنن الأقوال والأفعال الشيخ علاء الدين عليّ المتقي
فتح الباري	فتح الباري، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن على العسقلاني
الطحاوي	شرح معاني الأطهار، أبو جعفر الطحاوي

الطبري، أو ابن جرير	تفسير القرآن، وتاريخ الرسل والملوك، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري
موير	حياة محمد، السير وليام موير، ١٩٢٤م
ابن هشام	السيرة النبوية، الشيخ أبو محمد عبد المالك بن هشام
الطبقات	الطبقات الكبرى، محمد بن سعد المعروف بابن سعد
الخميس	تاريخ الخميس، الشيخ حسين بن محمد الديار البكري
الزرقاني	شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، إمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني
أُسُد الغابة	أُسُد الغابة في معرفة الصحابة، الحافظ أبو الحسن علي بن محمد
الإصابة	الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر العسقلاني
زاد المعاد	زاد المعاد في هدي خير العباد، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

السيرة الحلبية	السيرة الحلبية، عليّ بن برهان الدين الحلبي
شرح السُنة	شرح السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي
الروض الأنف	الروض الأُنُف، الإمام السُهيلي

أسفار الكتاب المقدس

التثنية	سفر التثنية
أشعياء	سفر أشعياء
متّى	إنجيل متّى

نبذة عن حياة الرسول العظيم ﷺ

حالة جزيرة العرب عند مولد رسول الله

وُلد الرسول ﷺ في مكة في شهر آب/أغسطس سنة ٥٧٠ ميلادية. وسُمي محمدًا، ومعناه الشخص الذي هو محمود الصفات. ولكي نفهم حياته وأخلاقه، فلا بد من معرفة الظروف التي كانت سائدة في بلاد العرب وقت مولده.

عندما ولد الرسول ﷺ، كانت كل الجزيرة العربية مع بعض الاستثناءات هنا وهناك تدين بتعدد الآلهة. ويرفع العرب نسبهم إلى إبراهيم عليه السلام، ويعلمون أنه كان نبيًّا يُعلّم التوحيد، وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة، وكانوا مشركين يمارسون عبادة الأصنام. وفي معرض تبرير هذه الممارسات قالوا إن بعض الناس من البشر يتميّزون بخصائص مدهشة في صلتهم بالله تعالى، ولذلك يستطيعون أن يشفعوا لدى الله تعالى نيابة عن الآخرين، وتلقى شفاعتهم هذه قبولاً لديه. ثم إن الله متعال مجيد، ومن الصعب على الإنسان العادي أن يصل إليه، وإنما يستطيع ذلك الإنسان الكامل وحده. ولذلك، فالإنسان العادي يحتاج إلى وسيط من أولئك الأبرار ليتوسط لــه لكي يقبله الله فينال مرضاته وعونه. وبهذه الأفكار استطاعوا أن يجمعوا بين إيمانهم واحترامهم لإبراهيم عليه السلام، وهو الذي كان موحِّدًا، وبين عقائد تعدد الآلهة لديهم. فإبراهيم عليه السلام كما

يقولون، كان رجلاً ربانيًا من الأبرار، وكانت لــه إمكانية الوصول إلى الله تعالى بدون شفاعة وبغير وساطة. وأما أهل مكة العاديّون، ليس لديهم القدرة للوصول إلى الله بغير وساطة من أشخاص آخرين صالحين وربانيين. ولطلب هذه الشفاعة، صنع أهل مكة أصنامًا لكثير من أسلافهم الصالحين، وهؤلاء هم الذين عبدوهم، وقدّموا إليهم القرابين في سبيل إرضاء الله من خلالهم.

كان هذا مسلكًا بدائيًا وغير منطقي، وكان يشوبه الكثير من العيوب والثغرات، ولكن ذلك لم يقلق أهل مكة في شيء، فلم يكن لديهم نبي مُوَحّد لزمان طويل. وإذا ضرب مرض تعدد الآلهة بجذوره في مجتمع، فإنها تمتد فيهم بغير حدود، إذ يبدأ عدد الآلهة في ازدياد، ثم يستمر في التزايد. وقد رُوي أنه عندما وُلد الرسول ﷺ، كانت الكعبة وحدها، وهي المسجد الحرام والبيت العتيق الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل لعبادة الله تعالى، تحتوي ثلاثمائة وستين صنمًا. ويبدو أنهم قد جعلوا صنمًا لكل يوم من أيام السنة. وفي الأماكن الأخرى، وفي المراكز الكبرى غير مكة، كانت هناك أصنام أخرى. ولذلك، يمكننا القول إن كل أنحاء الجزيرة العربية كانت غارقة في العقائد الوثنية.

كان العرب مخلصين للثقافة الشفاهية، وكانوا يهتمون اهتمامًا شديدا بلغتهم المنطوقة، حريصين على رفع شأنها. غير أن طموحاتهم الفكرية كانت محدودة، ولم يكن لهم علم ولا دراية بالتاريخ ولا الجغرافيا ولا الرياضيات وغيرها. ولما كانوا من سكان الصحراء، كانوا يضطرون إلى التعرّف على طريقهم في تلك الصحارى دون

الاعتماد على علامات أرضية مستقرّة، ولذلك نما لديهم اهتمام شديد بالفلك. وفي كل الجزيرة العربية لم تكن هناك مدرسة واحدة، وقد قيل إن حفنة قليلة فقط من أهل مكة كانوا يعرفون القراءة والكتابة.

ومن الناحية الأخلاقية، كان العرب شعبًا متناقضًا. فقد كانوا يعانون من بعض العيوب الأخلاقية الفظيعة، ولكنهم في نفس الوقت كانوا يتّصفون ببعض الصفات الرائعة. فقد اعتادوا الإفراط في شرب الخمر إلى حد الثمالة، ومن الفضائل عندهم، وليس من الرّذائل، أن يسكر الإنسان ويتصرف بجموح تحت تأثير الخمر. وكان الرجل الشهم الكريم في اعتبارهم، هو من يستضيف أصدقاءه وجيرانه إلى حفل للسُكْر، وعلى الشخص الغني أن يقيم حفلا لشرب الخمر خمس مرات على الأقل كل يوم. أما القمار، فكان رياضتهم القومية، ولكنهم حوّلوه إلى فن دقيق. لم يقامروا ليكونوا أغنياء، بل كان على الفائزين أن يستضيفوا أصدقاءهم. وفي زمن الحروب، كانت تُجمع الأموال من خلال المقامرات. وحتى اليوم، نرى مؤسسات اليانصيب تجمع المال لأجل الحرب، وقد انتعشت هذه المؤسسات في عصرنا على يد شعوب أوربا وأمريكا؛ ولكن عليهم أن يتذكروا أنهم في هذا إنما يقلدون العرب قبل الإسلام فقط. وعندما تقع الحرب، كانت القبائل تجتمع وتقيم حفلات المقامرة، وأيًّا كان الفائز فعليه أن يتحمل القسط الأكبر من تكاليف القتال.

لم يكن العرب يعرفون شيئًا عن وسائل الترفيه للحياة المتحضرة، وإنما كانوا يجدون تعويضًا في الخمر والميسر. وكانت التجارة هي

مهنتهم الأساسية، فكانوا يرسلون قوافلهم إلى جهات بعيدة للتجارة؛ فتاجروا مع الحبشة والشام وفلسطين، وكانت لهم علاقات تجارية حتى مع الهند. وكان الأغنياء منهم يُعجَبون بالسيوف الهندية إعجابًا كبيرًا، وأما ملابسهم فكانت تأتي أساسًا من اليمن والشام.

كانت المدن هي مراكز التبادل التجاري. أما بقية بلاد العرب، عدا اليمن والأجزاء الشمالية، فكانت بادية، ليس بها استقرار دائم، ولا أماكن ثابتة للسُكنى. وقد اقتسمت القبائل المختلفة هذا الوطن فيما بينها، بحيث يستطيع أعضاء القبيلة أن يتجَوّلوا ما شاء لهم التجوال في المنطقة التي تخصهم من البادية. وعندما يشحّ الماء في مكان ما، كانوا يرتحلون إلى مكان آخر غيره ليستقروا فيه. رأس مالهم الغنم والماعز والإبل، ومن الصوف والوبر صنعوا الملابس، ومن جلود الأنعام صنعوا الخيام، وما زاد عن حاجتهم باعوه في الأسواق. كانوا يعرفون الذهب والفضة، ولكن مقتنياتهم منها كانت نادرة. والفقراء والعامة من الناس صنعوا الحلي من الوَدع والمواد ذات الرائحة العطرة، كما ثقبوا بذور البطيخ وجففوها بعد تنظيفها، ونظموها معًا ليجعلوها عقودًا وقلائد.

كانت الجريمة والانحرافات الأخلاقية من أنواع مختلفة متفشيةً. السرقة كانت نادرة ولكن السطو والغزو كان شائعا. فالهجوم على الآخرين وسلبهم كان يعتبر حقا مكتسبًا. ولكنهم في نفس الوقت احترموا كلمتهم أكثر من أي شعب آخر، وحين يلجأ إنسان إلى زعيم قوي أو قبيلة طالبًا الحماية، فإن ذلك القائد أو تلكم القبيلة كانت مُلزَمة بحمايته بموجب تقاليد الشرف، وإلا فقدت القبيلة سمعتها

في جميع بلاد العرب. وقد تمتع الشعراء بمكانة خاصة بين العرب، فكانوا يلقون الشرف والمجد والإعزاز كالزعماء الوطنيين. وكان يُنتظر من الزعماء أن يكونوا بلغاء في الحديث، أو أن يملكوا القدرة على نظم الشعر. وكان كرم الضيافة تقليدًا ذا شأن لديهم حتى صار فضيلة عظيمة، وعندما يصل المسافر الغريب إلى رئيس القبيلة، كان يُعامل معاملة الضيف الشريف؛ فتُعد لــه أفضل الذبائح، وتُقدم لــه كل آيات الاحترام. لم يكونوا يهتمون بشخصية الزائر، إذ يكفي أن زائرًا قد وصل إليهم؛ فالزيارة تعني شرفًا للقبيلة ورفعة في المكانة، ومن ثم ينبغي على القبيلة أن تحتفي بالزائر وتكرمه، فإكرامه يعتبر إكرامًا لأنفسهم.

ولم يكن للمرأة في هذا المجتمع العربي مكانة عالية، ولا حقوق مرعية. وكان يُعد وأد البنات عملاً شريفًا لدى بعض العرب. غير أنه من الخطأ الظن أن عادة كهذه كانت واسعة الانتشار في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، لأن تقليدًا كهذا لا يمكن أن يتسع نطاق ممارسته في أي بلد، وإلا أدّى هذا إلى انقراض أهل ذلك البلد. والحقيقة أنه في الجزيرة العربية، كما هو الحال في الهند، وفي كل بلد آخر يمارس قتل الأطفال، كان هذا الفعل محصورًا في أسر قليلة. وكانت هذه الأسر تبالغ في تصوّرها عن تدني وضعها الاجتماعي، أو أنها كانت تعاني من بعض الظروف الصعبة، أو ربما كانوا لا يستطيعون العثور على أزواج يناسبون بناتهم. وتحت تأثير هذه الأفكار دفعوا أطفالهم للموت. إن قبح هذا التقليد يكمن في قسوته وبدائيته، وليس في نتيجته المؤثرةعلى

تعداد السكان. وقد استُخدمت طرق كثيرة في قتل البنات الوليدات؛ منها خنقهن ودفنهن أحياءً.

كان المجتمع العربي يعتبر أن الأم هي التي ولدت الإنسان، أَمّا زوج الأب فلم تعتبر أُمًّا، ولم يكن هناك مانع يمنع المرء من أن يتزوج مثل هذه الأم عندما يموت أبوه. أما تعدّد الزوجات فكان شائعًا على نطاق واسع، ولم يكن هناك حدّ لعدد الزوجات المسموح بهن للرجل. وكان يمكن للرجل أن يجمع بين الأخوات في نفس الوقت.

وأسوأ أنواع المعاملة كانت تتوقع من الطرفين المتحاربين بعضهما على بعض. وعندما تشتد البغضاء لم يترددوا في تمزيق أجسام الجرحى، بل واستخراج أجزاء منها وأكلها، شأن أكلة لحوم البشر، بالإضافة إلى تشويه جثث الأعداء، وكان من أشكال القسوة لديهم شيوع قطع الأنوف والآذان واقتلاع الأعين.

كان الرق منتشرًا، وكان أفراد القبائل الضعيفة يُؤخذون عبيدًا. ولم يكن للعبد وضع اجتماعي يحفظ كرامته كإنسان، إذ كان السيد يفعل مع عبده ما يشاء، ولم يكن هناك من إجراء يمكن اتخاذه ضد السيد الذي يسيء معاملة عبيده، بل إن السيد يمكنه قتل عبده دون أن يتعرّض للمساءلة. وإذا قام سيد بقتل عبد مملوك لسيد آخر فإنه حتى في هذه الحالة لا يتعرّض لعقوبة القتل، وكل ما كان عليه هو أن يعوّض السيد مالك العبد المقتول بشكل مادّي مناسب. أمّا الإماء فكن يستخدمن في إشباع الشهوات الجنسية، وكان الأطفال المولودون من هذه العلاقة يعتبرون عبيدًا، وكذلك الأم الأمَة كانت تظل أمَة.

وأما باعتبار العلاقات الاجتماعية وتقدم المجتمع الإنساني، فقد كان العرب شعبًا متخلفًا. إذ لم يكن للتعاطف ومراعاة مشاعر الآخرين وجود، وكان للنساء أسوأ اعتبار ممكن. ورغم ذلك، فقد كان العرب لا يزالون يحتفظون ببعض الفضائل؛ فالشجاعة الفردية على سبيل المثال، بلغت أحيانًا مستويات بالغة السمو والرفعة.

ولقد ولد رسول الإسلام ﷺ بين هؤلاء الناس. مات أبوه عبد الله قبل أن يولد، فتولى جده عبد المطلب رعايته هو وأمه. وتولت إرضاعه امرأة كانت تعيش في مكان بالقرب من مدينة الطائف، وكانت هذه عادة عربية في ذلك الوقت؛ أن يسلموا الأطفال للمرضعات في البادية حيث الخلاء، وحيث يكون من واجبهن تربية الطفل وتعليمه الكلام الفصيح. وهناك يكتسب الطفل جسمًا سليمًا صحيحًا في بداية حياته.

وعندما بلغ الرسول ﷺ السادسة من عمره، صحبته أمه في رحلة إلى المدينة، وماتت أثناء عودتهما حيث دفنت في الطريق، وقامت الخادمة باصطحاب الطفل إلى مكة، وأسلمته إلى جده. ولما بلغ الرسول ﷺ الثامنة توفي جده كذلك، حيث تولى عمه أبو طالب كفالته من بعده حسب وصية الجد.

ولقد أتيحت للنبي ﷺ فرصتان أو ثلاث للسفر خارج الجزيرة العربية، الأولى عندما كان في الثانية عشرة، إذ صحب عمّه أبا طالب إلى الشام، ويبدو أن الرحلة وصلت به فقط إلى المدن الواقعة جنوب شرقي الشام، لأن المصادر التاريخية لهذه الرحلة لم تذكر أماكن مثل "بيت المقدس". وقد ظل في مكة منذ ذلك الوقت إلى مشارف

الرجولة.

ومنذ طفولته المبكرة كان يخلد إلى التأمل العميق والتفكير الطويل. ولم يكن ينحاز إلى جانب أحد في المنافسات والصراعات التي تحدث بين الآخرين، إلا أن يتدخل لفضها. ويُرْوَى أن قبائل مكة وما حولها، بعد أن ملّوا الصراعات الدموية التي لا تنتهي، قرّروا أن يعقدوا حِلفًا يهدف إلى مساعدة ضحايا العدوان والمعاملة الظالمة، وعندما سمع به الرسول ﷺ انضم إليه. وقد تعهد أطراف هذا الحلف بأنهم سوف يساعدون أولئك الذين تعرضوا لظلم، وسوف يردّون إليهم حقوقهم، طالما بقيت قطرة من ماء في البحار، وإن لم يفعلوا ذلك فإنهم سوف يُعوّضون المظلوم من مالهم الخاص. (راجع الروض الأُنُف للإمام السُهيلي).

ولا يبدو أن أحدًا من الأعضاء الآخرين في هذا الحلف قد طُلب منه أن يفي بما التزم به في هذا الميثاق الجليل، ولكن جاءت الفرصة بعد أن أعلن الرسول ﷺ عن رسالته ونبوّته. كان أبو جهل هو عدوّه اللدود، كما كان أيضا أحد الرؤساء الكبار في مكة، وكان يدعو إلى مقاطعة الرسول ﷺ واضطهاده. وفي ذلك الوقت جاء رجل من البدو إلى مكة، وكان لـــه ديْن مالي على أبي جهل، ولكن أبا جهل رفض أن يؤدي للرجل ما عليه من حق، فاشتكى الرجل لبعض أهل مكة. وانتهز بعض الشباب الفرصة لخلق الأذى للرسول ﷺ ووضعه في موقف صعب، فنصحوا الرجل أن يذهب إلى محمد ليشكو لـــه، ظانّين أنه سيرفض مساعدته خوفًا من المعارضة الشاملة التي قوبلت بها دعوته بوجه عام، وخوفًا من معارضة أبي جهل بوجه خاص. فإذا

رفض الرسول ﷺ مساعدة الرجل، فسوف يُقال إنه نقض عهده الذي قطعه على نفسه في حلف الفضول، وإذا لم يرفض وذهب بالفعل إلى أبي جهل لمطالبته بسداد ديْن الرجل، فمن المحتّم أن يطرده أبو جهل باحتقار وازدراء. وقد ذهب الرجل إلى الرسول ﷺ فعلاً وشكا له أبا جهل، فلم يتردد الرسول ﷺ لحظة واحدة، بل نهض في التوّ وذهب مع الرجل إلى أبي جهل ودق عليه الباب، فخرج أبو جهل ورأى دائنه يقف بجانب الرسول ﷺ. وذكر الرسول ﷺ موضوع القرض وأمره بسداده. وكأن أبا جهل قد أُخذ على غرّة، فإذا به يقوم بسداد القرض على الفور دون أن يحاول التذرّع بأية حجة لعدم السداد. وعندما سمع رؤساء مكة الآخرون بذلك، راحوا يوبّخون أبا جهل ويؤنّبونه على ضعفه البالغ وتناقضه الذي أوقع نفسه فيه، إذ أنه يحضّ الجميع على مقاطعة محمد ﷺ، بينما يقوم هو بطاعة أمره ويسدّد القرض الذي عليه. فقال أبو جهل دفاعًا عن نفسه: إن أي شخص آخر كان سيفعل نفس ما فعله هو، وأخبرهم أنه لما رأى محمدا واقفًا على بابه، رأى جملين متوحشين يتأهبان لمهاجمته ويقفان عن يمين محمد وعن شماله.

ونحن لا يمكننا أن نقول شيئًا عن كُنه هذه التجربة. هل كان تجليًا لكشف إعجازي قصد الله به إلقاء الرعب في قلب أبي جهل، أو أنه كان خوفًا أصابه به جلال محضر الرسول ﷺ فأثار لديه هذه الهلوسة؟ فها هو رجل تكرهه البلدة كلها وتضطهده، ومع ذلك تدفعه الشجاعة أن يذهب هكذا وحده إلى زعيم هذه البلدة، ويأمره بسداد

دِيْنه. ولعل هذا المشهد غير المتوقع هو الذي أخاف أبا جهل وأذهله للحظات، فنسي قسَمه الذي أخذه على نفسه أن يفعل كل ما هو ضد أمر محمد ﷺ، وجعله الآن يفعل ما أمره به (انظر ابن هشام).

زواج رسول الله من السيدة خديجة

عندما بلغ الرسول ﷺ الخامسة والعشرين من عمره، كانت سمعته قد شاعت في المدينة كلها بالأمانة والصدق والعطف على الناس وكمال أخلاقه. كان الناس يشيرون إليه بأصابع التعجب قائلين: ها هو الرجل الذي يمكن أن نأمنه وأن نثق به. وبلغت هذه السمعة آذان أرملة غنية، فتقدمت إلى عمه أبي طالب ليأذن لـــه بقيادة قافلة تجارية لها إلى الشام. وذكر أبو طالب ذلك للرسول ﷺ فوافق، ولقيَت هذه الرحلة نجاحًا كبيرًا، وحقّقت ربحًا فاق جميع التوقعات. وشعرت السيدة خديجة أن هذا النجاح لم ينشأ عن ظروف السوق في الشام، بل رأت أيضًا أنه جاء بسبب حُسن تصرّف وأمانة وكفاءة قائد القافلة. وسألت مملوكها "ميْسرة" عن ذلك، فأيّد لها ميْسرة وجهة نظرها، وأخبرها أن أسلوب محمد العطوف والأمين في إدارة العمل شيء لم ير لـــه مثيلاً من أيّ شخص آخر. وكان لحديث ميْسرة تأثير شديد عليها. كانت السيدة خديجة في الأربعين من عمرها، وقد ترمّلت مرتين حتى الآن. فأرسلت امرأة من صديقاتها إلى محمد ﷺ لاستطلاع ما إذا كان من الممكن إقناعه بالزواج منها. فقامت هذه المرأة بزيارة الرسول ﷺ وسألته عن سبب عزوفه عن الزواج، فأجابها

بأنه لا يملك مالاً يكفيه ليتزوج. فسألته المرأة عما إذا كان يقبل الزواج لو أنه وجد امرأة غنية شريفة. فسأل محمد ﷺ عمّن تكون تلك المرأة، فقالت إنها خديجة. وهنا اعتذر الرسول ﷺ قائلاً إنها أعلى من أن تقبل الزواج منه. فقالت المرأة إنها سوف تتكفل بتذليل كل الصعوبات، وحينئذ أبدى الرسول ﷺ موافقته على الزواج. فأرسلت خديجة بالأمر إلى عمه، وتم عقد الزواج بينهما.

وهكذا فُتح باب عجيب إلى الازدهار ليدخل منه رجل فقير كان يتيمًا في طفولته، ولقد صار الآن غنيًا، ولكن الأسلوب الذي اتخذه إزاء هذا الغِنى صار مثلاً يُحتذى لكل الإنسانية. فبعد الزواج، شعرت السيدة خديجة أنه ليس مما يعزز سعادتها أن يظل هو فقيرًا بينما هي غنية. لذلك عرضت نقل ملكية الثروة التي تملكها إليه، وكذلك مماليكها من العبيد. ولما تأكّد الرسول ﷺ أنها جادة في قرارها، أعلن أنه حالما تصير إليه ملكية أحد من عبيد خديجة فإنه سوف يطلق سراحه حُرًّا، ولقد فعل. بل هناك ما هو أكثر، لقد وزّع الجزء الأكبر من الثروة التي آلت إليه بين الفقراء. وكان من بين العبيد الذين حرّرهم واحد اسمه زيد، كانت تبدو عليه ملامح الذكاء الحاد واليقظة أكثر من الآخرين. لقد كان ينتمي إلى أسرة محترمة، اختُطف منها طفلاً وبيع كعبد مرارًا حتى بلغ مكة. وقد أدرك هذا الشاب لفوْره، بعد أن نال حريته أخيرًا، أن من الأفضل لـــه أن يُضحّي بهذه الحرية في سبيل أن ينال العبودية عند محمد ﷺ. وعندما أعتق الرسول ﷺ عبيده، رفض زيد الحرية، وسأله مُلِحًّا أن يستبقيه ليظل إلى جواره.

ولقد استجاب الرسول ﷺ لرغبة زيد، ومع مرور الوقت ازداد تعلقه بالرسول ﷺ. في ذلك الوقت كان والد زيد وعمه قد اقتفيا أثر الابن المخطوف، وسمعوا أنه في مكة. وهناك تتبعا أثره حتى بيت الرسول ﷺ، فأتوا إليه وطلبوا منه أن يعتق زيدًا، وعرضوا عليه أن يدفعوا لـــه الفدية التي يطلبها. فقال الرسول ﷺ إن زيدًا حر، ويمكنه أن يذهب معهم متى شاء. واستدعى زيدًا وقدّمه لأبيه وعمه، وبعد لقاء الأحضان والعناق والبكاء ثم تجفيف الدموع، أخبره أبوه أن سيده الكريم قد وهبه حريته، وأن عليه أن يستعد للعودة معه، فقد تألمت أمه كثيرًا بسبب فراقه. فأجاب زيد: من ذا الذي لا يحب والديه يا أبتاه؟ إن قلبي مليء بحبك أنت وأمي، ولكنني أحب هذا الرجل حبًّا لا أتصور معه الحياة في أي مكان بدونه. لقد لقيتك وإني سعيد بهذا اللقاء، ولكني لا أطيق مفارقة محمد. وقد بذل الوالد والعم جهدهما لإقناع زيد بالذهاب معهما، ولكن زيدًا رفض. وإزاء ذلك قال الرسول ﷺ إن زيدًا كان رجلاً حُرًّا قبل هذه اللحظة، ولكنه منذ ذلك اليوم فإنه يُعتبر ابنه، يرث كل منهما الآخر. وأمام هذه الرابطة العاطفية الجياشة بين زيد والرسول ﷺ، غادر والد زيد وعمه المكان عائدين، وبقي زيد مع الرجل الذي سيُبعث نبيًّا ﷺ.

رسول الله يستقبل أول بشائر الوحي

عندما اجتاز الرسول ﷺ الثلاثين من عمره، أخذ حُب الله ﷻ وحُب التعبّد لـــه يشتد ويزداد مع الوقت. ولما كانت نفسه تأنف

الفساد الشائع في مكة، وتنفر من الآثام وسوء أعمال الناس، اختار بقعة تبعد ميلين أو ثلاثة، يخلو فيها مع نفسه للفكر والتأمل. وكان ذلك في كهف على قمة جبل، وكانت السيدة خديجة تُعدّ لــه ما يكفيه من زاد للأيام العديدة، فيأخذه ويصعد إلى الغار في جبل حِراء، حيث كان يعبد الله نهارًا وليلاً.

وعندما بلغ الأربعين من عمره الشريف، رأى في ذلك الكهف العتيد ظهورًا لشخص يأمره أن يقرأ، فأجاب الرسول ﷺ أنه لا يعرف كيف يقرأ، فأصر هذا الشخص أن يقرأ، ثم جعله يقرأ الآيات التالية:

﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:٢-٦)

هذه الآيات هي أول ما أُوحي إلى الرسول ﷺ، وقد صارت جزءًا من القرآن المجيد، شأنها شأن الآيات الأخرى التي أوحيت إليه فيما بعد. وكانت تحمل معاني عظيمة وعديدة. لقد أهابت بالرسول ﷺ أن ينهض وأن يكون على أهبة الاستعداد لأن يُعلن على العالم اسم الله الأحد، الخالق الأوحد، الذي خلق الرسول وكل كائن آخر، الذي فطر الإنسان وغرس في طبيعته محبة الله تعالى، كما جعل في فطرته أيضًا حب أبناء جنسه. لقد أُمر الرسول أن يبلغ رسالة هذا الإله الأحد، وتلقّى وعدًا بالعون والحماية من الله تعالى عند تبليغ هذه الرسالة. وتنبأت الآيات بمجيء عصر يتعلم فيه العالم كله جميع أنواع المعارف بمساعدة القلم، وسوف يطّلع الإنسان على علوم لم يسمع بها

أحد من قبل.

وتُشكّل هذه الآيات خلاصة شاملة للقرآن المجيد. وكل ما تَعلمه الرسول ﷺ من الوحي اللاحق فهو كامن كالجنين في هذه الآيات. لقد تم فيها وضع أساس عظيم للتقدم والرقي الروحي لم يكن معروفًا حتى ذلك اليوم. إن شرح ومعاني هذه الآيات سوف يأتي ذكرها في مكانه من هذا التفسير. ونحن نشير إليها هنا لأنّ تنْزيلها على الرسول ﷺ شكّل حدثًا عظيمًا طرأ على حياته، فحينما نزلت عليه الآيات امتلأ قلبه بالخوف من هذه المسؤولية التي ألقاها الله على عاتقه. إن أيّ شخص آخر في مكانه كان سيشعر بالفخر، ويملؤه الإحساس بأنه صار عظيمًا. ولكن الرسول ﷺ كان أمره مختلفًا، إذ كان يفعل أشياء عظيمة دون أن يفتخر بإنجازه. وبعد هذه التجربة العظمى التي مر بها في الغار، بلغ الرسول ﷺ منْزله عائدًا وهو شاحب الوجه، يرتجف بقوة. ولما سألته السيدة خديجة عمّا أَلَمّ به، قصّ عليها كل ما حدث، ثم أفصح لها عن مخاوفه لأنه كان يعتبر نفسه ضعيفًا، وتساءل كيف يحمل هذه المسئولية التي حمله الله إياها، وأنه لذلك كان يخشى على نفسه. فأجابت السيدة خديجة لتوها:

"كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" (البخاري، كتاب بدء الوحي).

وصحبته إلى ابن عمها ورَقة بن نوفل، وكان نصرانيًا. فلما سمع الخبر صاح قائلاً: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى" (البخاري،

كتاب بدء الوحي). ومن الواضح أن ورَقة كان يشير بكلمته هذه إلى نبوءة سفر التثنية (١٨:١٨).

المؤمنون الأوائل

عندما بلغت الأنباء زيدًا بن حارثة، مملوك الرسول ﷺ الذي حرّره وتبناه، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره، أعلن زيد إيمانه به، كما آمن به أيضًا ابن عمه عليّ ابن أبي طالب، الذي كان في الحادية عشرة من عمره. أما أبو بكر.. صديق طفولته، فقد كان خارج مكة، ولما عاد سمع بما كان من أمر الرسول ﷺ، وقيل لــه إن صديقه قد أصابه الجنون، فراح يدّعي أن الملائكة تأتيه برسائل من عند الله.

كان أبو بكر يثق بالرسول ﷺ كل الثقة، ولم يشكّ لحظة واحدة في صدقه، فقد عرفه عاقلاً صادقًا. فذهب يدقّ بابه، ولما أُذن لــه بالدخول على صديقه سأله عما حدث. وبدأ الرسول ﷺ في شرح مطوّل، لخشيته أن يسيء أبو بكر الفهم، فأوقفه أبو بكر قائلاً إن كل ما يريده أن يعرف ما إذا كان حقًّا قد نزل إليه مَلَك من عند الله يحمل لــه رسالة. وأراد الرسول ﷺ أن يشرح الأمر ثانية، لكن أبا بكر قال إنه لا يريد أن يسمع شرحًا، لكنه يبتغي فقط إجابة على سؤاله عن الرسالة التي يحملها من الله. فأجاب الرسول ﷺ: "نعم". عند ذلك أعلن أبو بكر لفوره أنه يؤمن به. ثم قال بعد أن شهد بصدق الرسول ﷺ إن مناقشة الأمر كانت ستقلل من قيمة إيمانه، فقد كانت معرفته بالرسول ﷺ طويلة وحميمة، فما كان ليشك في صدقه،

ولذلك لم يكن في حاجة إلى أيّ دليل آخر يقنعه بصدق هذا الصديق الصدوق.

هذه المجموعة الصغيرة من المؤمنين الأُوَل هي التي بدأ بها تاريخ الإسلام: امرأة بلغت من العمر مبلغًا، وصبي في الحادية عشرة من عمره، وعبد محرر يعيش غريبًا عن وطنه، وصديق شاب، بالإضافة إلى الرسول ﷺ. هذا هو الفريق الذي عقد العزم في هدوء أن يبدّد الظلام وينشر النور الإلهي في العالم كله. ولما سمع بذلك أهل مكة وقادتهم ضحكوا، وقالوا إن هؤلاء قد أصابهم الجنون. لم يكن هناك ما يدعو للخوف أو القلق، ولكن مع مرور الوقت، بدأ فجر الحقيقة يُشرق. وبدأ الوحي يتنَزّل على الرسول ﷺ، كما سبق أن قال إشعياء النبيّ منذ زمان طويل:

"فكان لهم قول الرب أمرا على أمر، أمرا على أمر، فرضا على فرض، فرضا على فرض، هنا قليلا هناك قليلا، لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء وينكسروا ويُصادوا فيؤخذوا." (إشعياء ٢٨: ١٣)

اضطهاد المؤمنين

بدأ الله تعالى يكلم محمدًا ﷺ "بلسان آخر"، كما تنبأ إشعياء النبيّ، وبدأ شباب البلدة يعجبون. وأخذ أولئك الذين يعنيهم البحث عن الحقيقة يولون الانتباه لما يجري وما يُقال. ومن الاحتقار والسخرية بدأ الإعجاب والتأييد يتزايدان، وبدأ العبيد المطحونون، والنساء اللاتي لا حقوق لهن، والناشئون من الفتية والشباب يلتفون حول الرسول ﷺ،

فقد كان في رسالته وتعاليمه أمل للحزانى والمكلومين. واستبشرت النساء أن الوقت قد حان لاستعادة حقوقهن، وراود العبيد الأمل أن زمن الحرية قد أتى، ورأى الشباب أن طرق التقدم والازدهار سوف تنفتح لهم. وعندما أخذ الاحتقار يتحوّل إلى تأييد، وتنقلب اللامبالاة إلى اهتمام، بدأ قادة مكة وأعيانها يغشاهم الخوف، فاجتمعوا وتشاوروا، وقرروا أن السخرية ليست هي الطريق الأمثل لمواجهة هذا التهديد الجديد، وأن الأمر يتطلب حلاً أكثر حزمًا وجدّية، فلا بد من قمع هذا النفوذ الجديد بالقوة. وتقرر أن الطريق الذي ينبغي انتهاجه هو الكثير من الاضطهاد وبعض المقاطعة. وعلى الفور بدأوا في اتخاذ خطوات عملية لتنفيذ ما اتفقوا عليه، وهكذا دخلت مكة في صراع خطير ضد الإسلام. ولم يعد أحد بعد ذلك ينظر إلى الرسول ﷺ وأتباعه القليلين كحفنة من المجانين، بل صار يُنظر إليهم على أنهم أصحاب نفوذ جديد يتنامى ويتصاعد، وإذا تُرك ينمو دون إخماد فسوف يتحوّل إلى خطر كاسح، يهدّد دين مكة وهيبتها وعاداتها وتقاليدها.

لقد هدد مبدأ الإسلام لله خواءهم الفكري كله، فتراءى لهم أنه سيهدم بناء المجتمع المكّي ويعيد خلق سماء جديدة وأرض جديدة، مما يعني اختفاء سماء الجزيرة العربية القديمة وأرضها البالية، وخلق نظام جديد. ولم يعد أهل مكة يسخرون من الإسلام، فلقد كان هذا هو التحدّي الذي يعني الموت أو الحياة بالنسبة لهم. كان الإسلام يتحدّى، وقد قبل أهل مكة التحدّي كما قبل كل أعداء الأنبياء تحدّي أنبيائهم. وقد قرروا أنهم لن يقابلوا الحجة بالحجة، بل يسلوا السيوف ويقمعوا

الدين الجديد بالقوة الغاشمة. إنهم لن يضارعوا المثل العليا التي يقدمها الرسول ﷺ وأتباعه بمُثُلٍ أعلى منها، ولن يجيبوا على كلمات الموَدة والسلام بمثلها أو بأحسن منها، بل بإساءة معاملة الأبرياء وظلمهم، وبإيذاء أولئك الذين يخاطبونهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويدعونهم بالتي هي أحسن. وهكذا، بدأ الصراع مرة أخرى في هذا العالم بين الإيمان والكفر، وأعلنت قوى الشيطان الحرب على الملائكة.

كان المؤمنون لا يزالون حفنة، ولا قوة لهم على مقاومة هذه الحملة الشرسة من العنف والإرهاب. ولقد بدأت حملة وحشية عليهم، كانت النساء تُسفك دماؤهن بلا حياء، ويُذبح الرجال بلا رحمة. أما العبيد الذين أعلنوا إسلامهم، فقد سُحِلوا على الرمال الحارقة والصخور الملتهبة، وغطت جلودهم طبقة ميّتة من البشرة حتى صارت مثل جلود الحيوان. وبعد انقضاء وقت طويل، عندما انتشر الإسلام في البقاع القريبة والبعيدة، كان واحد من المؤمنين الأوائل، وهو خبّاب بن الأرَتّ، يكشف عن أجزاء من جسده فيرى أصدقاؤه جلده متصلّبًا كجلد الحيوان، فلما يسألونه عن السبب كان يجيب ضاحكًا: "لا شيء، إنها ذكرى لتلك الأيام الأولى عندما كان العبيد المؤمنون يُسحلون في طرقات مكة على الرمال والحجارة الحارّة." (المسند جزء ٥ صفحة ١١٠).

لقد جاء العبيد الذي آمنوا بالإسلام من كل المجتمعات. فكان بلال حبشيًا، وكان صُهيْب روميًا. وكانوا ينتمون من قبل لعدة أديان، فكان صُهيْب نصرانيًا، وبلال وعمّار كانا وثنيين. وكان بلال يوضع على الرمال الحارقة، وتُوضع على بدنه أحجار ثقيلة، ويرقص الصبيان على

صدره، ثم يأتي سيده أميّة بن خلف ليعذبه بالسوْط، ويأمره أن يتبرأ من الله ورسوله محمد، ويشيد بحمد آلهة مكة: اللات والعُزّى. غير أن بلال لا يزيد عن قوله: "أَحدٌ، أَحد". ولما يفيض بأميّة الغضب، يسلمه إلى صبيان الشوارع طالبًا منهم أن يضعوا حبلاً حول عنقه ويجرّوه على أديم طرقات البلدة، وعلى الصخور الساخنة المدبّبة. ويتدفّق الدم من جسد بلال، ولكنه يظل يتمتم: "أَحدٌ، أَحد". وفيما بعد، عندما استقر المسلمون في المدينة المنوّرة، واستطاعوا العيش وعبادة الله في أمان نسبي، عيّن الرسول ﷺ بلالاً مؤذّنًا يدعو المؤمنين للصلاة، ولأنه إفريقي يصعب عليه النطق بحرف الشين في "أشهد"، فقد كان بعض مؤمني المدينة يضحكون على نطقه المعيب، ولكن الرسول ﷺ أنّبهم وأخبرهم عن مكانة بلال عند الله تعالى لقوة إيمانه التي أظهرها لأهل مكة وهو تحت نير تعذيبهم. ولقد قام أبو بكر بدفع ثمن عتق بلال، وحرّره مع الكثير من العبيد الآخرين فحقق لهم النجاة، ومنهم صُهيْب التاجر الناجح، الذي استمر أهل مكة يؤذونه ويسخرون منه حتى بعد عتقه. وعندما هاجر الرسول ﷺ من مكة ليستقر في مدينته المنوّرة، أراد صهيب أن يصحبه، فمنعه أهل مكة قائلين إنه لا يمكنه مغادرة مكة وقد حصل على ثروته منها، فسألهم: لو تخلى لهم عنها جميعًا هل يدعونه يمضي؟ فقبِل أهل مكة هذا العرض. وعلى هذا، بلغ صهيْب المدينة خالي الوفاض، ورأى الرسول ﷺ الذي استمع إلى قصته، فهنّأه وقال: "رَبح البيعُ أبا يحيى".

إن أغلبية هؤلاء العبيد الذين اعتنقوا الإسلام ظلوا ثابتين على إيمانهم ظاهرًا وباطنًا، ولكن القلة منهم كانت ضعيفة. ولما اشتدّت الفتنة

والتعذيب، رأى الرسول ﷺ عمّارًا يئنّ من الألم ويمسح دمعه. ولما اقترب منه الرسول ﷺ أخبره عمّار بأنه قد ضُرب ضربًا مبرحًا، وأُكره على أن يرجع عن الإسلام، فسأله الرسول ﷺ كيف يجد قلبه، فقال إنه مطمئن بالإيمان، فطمأنه الرسول ﷺ أن الله تعالى سوف يغفر له ضعفه.

وأما ياسر، والد عمّار، وأمّه سميّة، فقد قتلهما الكافرون تعذيبًا. وفي إحدى المناسبات، حدث أن مرّ عليهم رسول الله وهم يُعذّبون، فقال لهم وقلبه يعتصره الحزن والألم من أجلهم: ''صبرًا آل ياسر إن موعدكم الجنة''. وقد تحققت الكلمات النبويّة لفورها، فقد سقط ياسر شهيدًا بسبب شدّة التعذيب، وقام أبو جهل بقتل زوجته سمية بحربة.

وكذلك زنيرة، وهي أمَة مؤمنة، فقدت عينيها بسبب التعذيب الذي نالته على أيدي المشركين.

وأبو فُكَيْهة؛ كان مملوكًا لصفوان بن أميّة، فكان يضعه على الرمال الحارقة، ويضع على صدره الصخور الساخنة الثقيلة، وتحت وطأة الألم الشديد كان لسانه يتدلى خارج فمه.

وعاني العبيد الآخرون أشكالاً وأنواعًا أخرى من سوء المعاملة، والتعذيب الشديد.

هذه الوحشية، وهذه القسوة الفظيعة، كانت فوق كل تحمّل، لكن المؤمنين الأوّلين تحمّلوها لأن قلوبهم اكتسبت قوة وثباتًا من اليقين الذي كان الله يتولاهم به كل يوم. كان القرآن ينْزل على الرسول ﷺ، ولكن الصوت الإلهي الذي يأتي باليقين كان يتنَزّل على كل المؤمنين. وبدون

ذلك، لم يكن المسلمون بقادرين أبدًا على تحمّل ذلك التعذيب الوحشي الذي تعرضوا له. فقد هجرهم الزملاء، وتخلى عنهم الأصدقاء، وقاطعهم الأقارب، و لم يبق معهم إلا الله ﷻ، و لم يعد يهمهم أن يكون معهم أحدٌ سواه. ومن أجله ﷻ بدا كل تعذيب وتنكيل كأنه تكريم وتبجيل، وصار الأذى والتحقير كأنه ثناء وتوقير، وأصبحت الحجارة الحارقة كأنها نسمة الندى أو لمس الحرير.

أما المؤمنون من المواطنين الأحرار، فلم يكن نصيبهم من الوحشية أقلّ من العبيد؛ فقد تولى أولياء أمورهم من أهليهم وزعماؤهم تعذيبهم بأساليب شتى. كان عثمان بن عفان غنيًا في الأربعين من عمره، وعندما أجمعت قريش أمرها على اضطهاد كل من يُسْلِم، قام عمه الحَكَم بشدّ وثاقه وضربه. والزبير بن العوام؛ ذلك الغلام الشجاع الذي صار فيما بعد مسلمًا عظيمًا وقائدًا مقدامًا، كان عمه يلفه في حصير، ويسلط عليه الدخان من تحته، ويتركه يعاني من الاختناق وآلامه، ولكنه لم يتنكر قط لإيمانه، لقد وجد الحقيقة ولن يتخلى عنها مستسلمًا أبدًا.

أبو ذر الغفاري، سمع بالرسول ﷺ وذهب إلى مكة ليتحرّى الأمر. فحاول أهل مكة صرْفه عن ذلك قائلين إنهم يعرفون محمدا حق المعرفة، وإن حركته تهدف لأغراض شخصية. غير أن ذلك لم يؤثر في أبي ذر، وذهب إلى الرسول الكريم ﷺ واستمع منه مباشرة إلى الرسالة، ودخل في الإسلام. وتساءل أبو ذر عما إذا كان يمكنه أن يسر إيمانه، فرخّص لــه الرسول ﷺ في ذلك إلى حين. ولكن حدث عندما كان يمرّ في طرقات مكة أن سمع جماعة من رؤساء مكة يسبّون الرسول ﷺ ويغتابونه

بخسّة، فلم يطق أن يظل على كتمان إيمانه، وأعلن صائحًا في الحال: "أشهد ألاَّ إله إلاَّ الله لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله". هذه الصيحة في جمع من الكافرين بدت لهم نوعًا من الوقاحة، فقاموا في غضب يضربونه حتى سقط مغشيًّا عليه. ومرّ عليهم العباس عمّ الرسول ﷺ الذي لم يكن قد دخل الإسلام بعد، فدفعهم عن الضحية قائلاً: "إن قوافل طعامكم تمرّ على قبيلة أبي ذرّ، وإذا ما غضبوا من أجل تعذيبه فإنهم يستطيعون تجويعكم حتى الموت". في اليوم التالي ظل أبو ذرّ في البيت، ولكنه في اليوم الذي يليه ذهب إلى نفس المكان، فوجدهم يقولون على الرسول ﷺ نفس القول المؤذي. فذهب إلى ساحة الكعبة، فوجد الناس يفعلون هناك نفس الشيء، فلم يملك نفسه وقام يعلن شهادة الإسلام في صوت جهْوَري. ومرة أخرى تعدّوا عليه وآذوه أشد الإيذاء. وتكرر نفس الأمر في مناسبة ثالثة، وبعدها غادر أبو ذرّ عائدًا إلى قبيلته.

والرسول الكريم ﷺ نفسه لم يُستثن من المعاملة الوحشية التي تلقاها المؤمنون. وفي إحدى المناسبات بينما كان يصلي، وضع جماعة من الكفار وشاحًا حول عنقه وشدّوه عليه حتى جحظت عيناه. ثم حدث أن جاء أبو بكر ﷺ فأبعدهم عنه باكيًا وقال: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله"؟! وفي مرة أخرى كان الرسول ﷺ ساجدًا في صلاته، فجاءوا بأمعاء بعير وألقوها على ظهره، فلم يستطع النهوض حتى جاءت ابنته فاطمة وأزالت هذه الأثقال عنه. وفي حادثه ثالثة كان يمر بالطريق، فتبعته جماعة من الصبيان أخذوا يصفعون رقبته صائحين بالناس أنه

يدّعي النبوة. هكذا كان الرسول ﷺ يلقَى العداوة والكراهية من هؤلاء الناس، وكان يبدو في أيديهم بلا حول ولا قوة. كان الناس يرجمون بيت الرسول ﷺ بالحجارة من أسطح المنازل المجاورة، وكانوا يلقون على مطبخه الرّوَث والقاذورات ونفايات الحيوانات المذبوحة. وكثيرًا ما كانوا يحثون عليه التراب أثناء أدائه الصلاة، ولذلك كان يلجأ إلى مكان آمن إذا أراد الصلاة مع الجماعة.

هذه الوحشية التي كانت تُقترف ضد مجموعة ضعيفة بريئة من الناس، وضد قائدها الأمين الذي لا حول لــه، لم تذهب هباء ولا ضاعت بغير فائدة. فقد رأى الكرام من الناس كل ما يجري وتأثروا به، فشعروا بشيء ما يجذبهم نحو الإسلام. حدث مرة في صباح أحد الأيام أن كان الرسول ﷺ يستند بظهره إلى الصّفا، وهو مرتفع صغير بجوار الكعبة، فمر عليه أبو جهل عدوّه اللدود، وأمطره بوابل من السباب الأثيم، ولم يقل الرسول ﷺ شيئًا ومضى إلى بيته. وكانت إحدى الإماء التي تعمل في البيت ترى ذلك المشهد المؤسف. وكان حمزة، عم الرسول ﷺ، رجلاً مقدامًا يهابه جميع أهل البلدة، وحدث أنه عاد ذلك اليوم من رحلة صيد، ودخل البيت معتزًّا بنفسه، يحمل قوسه على كتفه. فلما رأته الجارية التي لم تنس مشهد الصباح، قالت لــه بشيء من السخرية، إنه يظن نفسه شجاعًا، ويتجوّل فخورًا بسلاحه، ولكنه لا يدري ما صنع أبو جهل بابن أخيه البريء في الصباح. واستمع حمزة إلى ما حدث، ومع أنه لم يكن مؤمنًا إلا أنه كان يتمتّع بنبل الخُلُق. ولعله كان قد تأثر برسالة الرسول ﷺ، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله يجهر باعتناقها. غير

أنه لما استمع إلى ما قام به أبو جهل من عدوان على الرسول ﷺ لم يقو على الانتظار، وتلاشى تردده حول الدين الجديد، وبدأ يشعر أنه قد انتظر طويلاً بلا داع، فتوجّه لفوره إلى الكعبة حيث كان رؤساء مكة يجتمعون ويتآمرون كعادتهم، وتناول قوسه وشج به رأس أبي جهل قائلاً: "أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فَرُدَّ ذلك عليّ إن استطعت". وقد صُعق أبو جهل لهول الموقف، فخفّ إليه أصدقاؤه ليعينوه ولكنه أوقفهم خوفًا من حمزة وقبيلته، وكان يرى أن قتالاً مفتوحًا بلا حدود سوف يكلف الكثير من الأرواح الغالية، واعترف أنه كان في الحقيقة هو الملوم عما حدث في الصباح (ابن هشام والطبري).

رسالة الإسلام

استمرت المعارضة تتصاعد، وفي نفس الوقت ظل الرسول ﷺ وأتباعه يبذلون كل جهد لإيضاح رسالة الإسلام لأهل مكة. كانت رسالة ثريّة الجوانب، وذات محتوى بالغ السمو، ليس فقط للعرب وحدهم بل للعالم بأجمعه. كانت رسالة من الله ﷻ، وكانت تقول:

إن الله خالق العالم هو واحد، ولا أحد غيره يستحق العبادة. وقد آمن به الأنبياء دائمًا وأبدًا إلها واحدًا، وعلّموا أتباعهم نفس الشيء. وينبغي على أهل مكة أن يتخلوا عن كل الأصنام والأوثان، ألا يرون أن الأصنام عاجزة عن ذبّ الذبابات التي تحط على القرابين الموضوعة عند أقدامها؟ وإذا اعتدى عليها أحد فإنها لا تردّ عن نفسها العدوان، وعندما يُوجّه إليها سؤال فلا تجيب عليه، وإذا طُلب منها العوْن فلا تُقدّمه. ولكن الله

الواحد الأحد يعين كل من يطلب عَونه، ويجيب كل من يدعوه في الصلاة. إنه سبحانه أخضع كل أعدائه، وأعزّ كل من تذلل أمامه. وعندما ينْزل نور من لدنه، فإنه يضيء عباده المخلصين. لماذا إذن غفل عنه أهل مكة وولّوا وجوههم إلى أوثان وتماثيل ميّتة وأضاعوا عندها حياتهم؟ ألا يرون أن غفلتهم عن الله تعالى وافتقادهم الإيمان بالله الحق الأحد قد جعلهم يؤمنون بالخرافات ويتخلفون في كل مجال؟ إنهم يجهلون ما هو طاهر وما هو نجس، وما هو صحيح وما هو خطأ، فلم يكرموا أمهاتهم، وعاملوا أخواتهم وبناتهم ببشاعة، وأنكروا عليهن حقوقهن. لم يحسنوا معاملة أزواجهم، وعذّبوا الأرامل، واستغلوا اليتامى، والفقراء، والضعفاء. وسعوا لبناء ثرواتهم على حساب خراب الآخرين. لم يكونوا يخجلون من الكذب والخيانة، ولا من السلب والنهب. في لوثة الميسر والخمر كانت سعادتهم، ولا يهتمون بالثقافة ولا بتقدّم أمّتهم. إلى متى يصرّون على إهمال الله الأحد الحق والمضي قُدُمًا في خسران يتبعه خسران، ومعاناة بعد معاناة؟ أليس لديهم طريق أفضل للإصلاح؟ أليس من الخير لهم أن يتخلوا عن كل شكل من أشكال استغلال الفرد للآخر، وأن يحفظوا الحقوق لأصحابها، وأن ينفقوا ثرواتهم على ما ينفع أوطانهم، وأن يحسنوا من نصيب الفقراء والضعفاء في الثروة والأجور، وأن يعاملوا اليتامى كأبنائهم، ويعتبروا حمايتهم واجبًا مفروضًا، وأن يعينوا الأرامل، وأن يشجّعوا الأعمال الصالحة في كل الجماعة الإنسانية، وأن يغرسوا العطف والرحمة وليس فقط العدل والمساواة؟ إن الحياة في هذا العالم يجب أن تكون مخصبة بالأعمال

الصالحة: اتركوا بعدكم آثارًا جميلة.. أنتم آخر الأمم، فلن تأتي بعدكم أمّة أخرى لتنمو وتحمل أثمارًا. هناك فضل في بذل العطاء للآخرين لا في الأخذ منهم. تعلموا أن تُسلموا نفوسكم لله تعالى لتكونوا أكثر قربًا منه. مارسوا إنكار الذات من أجل رفاقكم من الناس، فتضاعفوا بذلك رصيد أمنكم مع الله تعالى. صحيح أن المسلمين ضعفاء، ولكن لا يضلنّكم هذا الضعف ولا تنخدعوا به لتذهبوا بعيدًا، فالحق سوف يعلو وينتصر، وهذا هو حكم السماء. ومن خلال هذا الرسول سوف ينبثق على العالم فجر مقاييس جديدة، وتشرق شمس معايير جديدة لقياس الصالح والطالح، والحق والباطل. إن الرحمة والعدل سوف يعلوان، ولن يُسمح بالإكراه في أمر الدين ولا العبث به، وسوف تنمحي ألوان العذاب الوحشي الذي تتعرّض له النساء والعبيد، وسوف تقوم وتتأسس مملكة الله تعالى وتحل محل مملكة الشيطان.

وما إن بلغت هذه الرسالة أهل مكة، وبدأ أصحاب الفطرة الصالحة يتأثرون بها، حتى وقف كبار مكة موقفًا صارمًا مما كان يحدث، فذهبوا في وفد إلى عم الرسول أبي طالب وخاطبوه قائلين:

"يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفًا ومنْزلة فينا، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنَّا، وإنَّا والله لا نصبر على هذا من شتْم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيْب آلهتنا، حتى تكفّه عنَّا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين". (ابن هشام).

كان أبو طالب في مواجهة اختيار صعب. إذ كان من الصعب عليه أن يتخلى عن ابن أخيه، كما كان من الصعب عليه أيضًا أن يتبرأ منه

قومه. لم يكن العرب يُعوّلون كثيرًا على المال، ولكن كرامتهم وهيبتهم كانت في سيادتهم. كانوا يعيشون من أجل قومهم، ويعيش قومهم بهم، ولذلك فقد أصاب أبا طالب همٌّ كبير. فأرسل إلى الرسول ﷺ وشرح له ما طلبه كبار القوم، وقال له والدموع تملأ عينيه: "يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا – الذي كانوا قالوا له – فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق". كان الرسول ﷺ في تعاطف جليّ مع عمه، وترقرقت الدموع في عينيه وهو يقول له إنه لا يسأله أن يدع قومه، ولا يطلب منه أن يسانده، وإنما له أن يُسلمه ويتخلى عنه. ثم أقسم له قائلا:

"يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته". (ابن هشام والزرقاني)

هذا الرد الحازم الثابت، والقوي المستقيم، والصادق المخلص، جعل أبا طالب يفتح عينيه، فاستغرق في تفكير عميق. ومع أنه لم يكن يملك الشجاعة كي يؤمن، فقد رأى أنه كان ذا حظ عظيم أن يعيش حتى يرى هذا البيان العالي للإيمان، وهذا الاحترام البالغ للواجب. فالتفت إلى الرسول ﷺ وقال:

"اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلمك لشيء أبدًا". (ابن هشام)

الهجرة إلى الحبشة

عندما بلغ الطغيان أقصاه، جمع الرسول ﷺ أتباعه وأشار إلى الغرب، وأخبرهم عن أرض خلف البحر، لا يُقتل الناس فيها بسبب تغيير عقيدتهم، ويستطيعون عبادة الله بلا ترويع، ويوجد بها ملك عادل. واقترح عليهم أن يرحلوا إليها، فعسى أن يجدوا فيها الأمن والسلام. وأخذ بهذا الاقتراح طائفة منهم، رجالاً ونساء وأطفالاً، وذهبوا إلى الحبشة.

كانت الهجرة على مستوى محدود، وكانت مثيرة للشجن إلى حد عميق. فالعرب كانوا يرون أنفسهم حرّاسَ الكعبة المشرّفة، وهم كانوا كذلك فعلاً. ولذلك كان ترك مكة بالنسبة لهم أمرًا مؤلمًا مضنيًا، ولا يوجد عربي يمكن أن يفكر في ذلك إلا إذا أصبحت الحياة في مكة مستحيلة. ولم يكن أهل مكة ليسمحوا أيضًا بهذه الهجرة، فما كانوا ليتركوا ضحاياهم يفلتون من أيديهم لينالوا الحياة في مكان آخر. ولهذا اضطرت هذه المجموعة المهاجرة إلى كتمان استعداداتها للرحلة، والعمل على مغادرة البلدة حتى بدون كلمة وداع للأقارب والأصدقاء. ولكن مهما يكن من أمر، فإن مغادرتهم أصبحت معروفة لدى بعض الناس، وقد تركت فيهم آثارًا عميقة. فعمر بن الخطاب، الذي صار فيما بعد الخليفة الثاني في الإسلام، كان لا يزال كافرًا، وكان عدوًّا لدودًا يضطهد المسلمين. وتصادف أن التقى بمجموعة من الأفراد المهاجرين، ومنهم امرأة تُدعى أم عبد الله. وعندما رأى عمر الأمتعة محزّمة، والأدوات المنْزلية محمّلة على الإبل، فهم للتوّ أنهم فريق يغادر مكة ليلجأ

إلى مكان آخر. فسأل عمر: "أراحلون أنتم"؟ فأجابت أم عبد الله: "بلى، إن الله معنا، وسنذهب إلى بلاد أخرى، فقد عذبتمونا هنا ولن نعود حتى يجعل الله لنا يسرًا". فتأثر عمر وقال: "ليكن الله معكم". وكان في صوته نبرة تهدّج، فقد ملأ هذا المشهد الصامت قلبه بالحزن والأسى.

وعندما عرف أهل مكة بالأمر أرسلوا جماعة للمطاردة، وقد وصلت هذه الجماعة إلى ساحل البحر، ولكنها وجدت المهاجرين المسلمين قد ركبوا البحر وغادروا البلاد إلى الحبشة. ولما عجزوا عن اللحاق بهم، قرر أهل مكة إرسال وفد إلى الحبشة لإثارة الملك ضد اللاجئين، ولإقناعه بتسليمهم ثانية إلى أهل مكة. وكان عمرو بن العاص أحد أعضاء هذا الوفد، وقد أسلم فيما بعد وقام بفتح مصر. وذهب الوفد إلى الحبشة والتقوا بالملك وتآمروا مع الحاشية، ولكن تبين أن الملك شديد المراس. ورغم أن ضغط الوفد وحاشية الملك الخاصة كان حريًّا أن يؤثر عليه، فإنه رفض تسليم المسلمين اللاجئين إلى مضطهديهم، فعاد الوفد بخُفَّي حنين خائبين. ولكنهم دبّروا في مكة خطة أخرى للتعجيل بعودة المسلمين من الحبشة، فقد أذيعت في القوافل الذاهبة إلى الحبشة إشاعة تقول إن مكة كلها قد قبلت الإسلام. وعندما بلغت الإشاعة الحبشة، عاد كثير من المسلمين في بهجة إلى مكة، ولكنهم فوجئوا عند وصولهم أن الخبر الذي بلغهم كان مفتعلاً. فعاد بعضهم ثانية إلى الحبشة، وقرر البعض البقاء، ومن بينهم عثمان بن مظعون وهو ابن أحد سادات مكة. وقد دخل عثمان في جوار أحد أصدقاء أبيه وهو الوليد بن المغيرة، وبدأ

يعيش في أمان. ولكنه رأى المسلمين الآخرين يعانون الاضطهاد القاسي والظلم البالغ، فجعله ذلك يحس بالحزن والبؤس والأسى، فذهب إلى الوليد وردّ إليه جواره. لقد أحسّ أنه لا يصحّ له أن ينعم بالحماية بينما يظل بقية المسلمين في معاناة. وقد أعلن الوليد ردّ الجوار إلى بقية أهل مكة.

وفي أحد الأيام كان لبيد بن أبي ربيعة، وهو شاعر من كبار شعراء العرب، يجلس بين سادات مكة، يقرأ عليهم شعره، فقال البيت التالي:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيـــم لا محالـــة زائل

ويعني البيت أن كل أنواع النعيم لا بد أن تكون لها نهاية، فقام عثمان بالاعتراض بجرأة عليه قائلاً: "إن نعيم الجنة لا يزول". وإذا بلبيد الذي لم يتعوّد الاعتراض الجريء يفقد رزانته ويقول: "ما كان ضيفكم يُضام هكذا من قبل، فمتى حدثت هذه البدعة فيكم يا معشر قريش"؟ ومن أجل تهدئته نهض أحد الحضور وقال: "أتمم يا لبيد ولا تبال بهذا الأحمق". وأصرّ عثمان على أنه لم يقل شيئًا يوصف بالحمق، فوثب الرجل مغضبًا على عثمان وسدّد إليه لكمة أصابت عينه. كان الوليد حاضرًا، وكان صديقًا مقرّبًا لوالد عثمان، ولم يتحمّل أن يرى معاملة كهذه لابن صديقه الراحل. غير أن عثمان لم يكن تحت حمايته المعلنة، والعادة العربية يومها تمنعه من التدخل، ولذا لم يستطع أن يفعل شيئًا. وقال وهو يعاني من الغضب والألم في نفس الوقت: "يا ابن أخي! ألم تكن عينك غنية عن هذا لو أنك لم تردّ عليّ جواري"؟ فرد عثمان: "والله إن عيني الأخرى لفقيرة إلى ما أصاب أختها في سبيل الله. ولتعلم أنه طالما ظل

الرسول ﷺ يعاني فلا نريد أن ننعم نحن بالسلام". (السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٤٨)

عُمر يقبل الإسلام

في ذلك التاريخ، وقعت حادثة أخرى على جانب كبير من الأهمية. فقد كان عمر بن الخطاب، الذي صار فيما بعد ثاني خلفاء الإسلام، لا يزال واحدًا من أشد الأعداء وأشرسهم نقمة على الإسلام. وأحسّ عمر أنه لم تُتّخذ بعد الخطوة الحاسمة ضد الحركة الجديدة، فقرّر أن يأخذها هو بأن يضع حدًّا لحياة الرسول ﷺ. وخرج من بيته يحمل سيفه بغير جرابه، فلقيَه صديق له، أخذته الدهشة للحالة التي رآه عليها فسأله عما ينوي أن يفعله، فقال عمر: "أريد أن أقتل محمدًا". فقال له: "أتظن بني هاشم تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا، ألا تدري أن أختك وزوجها قد أسلما"؟

ونزل عليه الخبر نزول الصاعقة، وانقبض صدره بشدة فقرر أن يبدأ بأخته وزوجها أولاً. وعندما بلغ بيت أخته سمع صوت تلاوة في الداخل، وكان الصوت هو صوت "خبّاب بن الأَرَت" يعلمهم القرآن الكريم، فدلف عمر إلى البيت مسرعًا. وأحسّ خبّاب بريبة من الخطوات المتسارعة وهي تقترب فاختبأ. وقامت فاطمة أخت عمر بتنحية الأوراق القرآنية جانبًا. وواجهت أخاها هي وزوجها، فقال عمر: "لقد سمعت أنكما صبأتما"، يقصد أنهما تخليا عن دينهما. ورفع يده ليصك زوجها الذي كان من أبناء عمومته، فألقت فاطمة نفسها على زوجها كي

تحول بينه وبين عمر، فهبطت الضربة على وجه فاطمة، وأصابت أنفها التي أخذت تنْزف الدماء بغزارة. ولكن الضربة زادت من شجاعة فاطمة، فقالت: "نعم، لقد أسلمنا، ولن ندع هذا الدين، فافعل ما بدا لك". كان عمر شهمًا مع خشونته تلك. وقد جعله وجه أخته المصبوغ بالدم من أثر يده يشعر بالندم، فإذا به يتحوّل إلى شخص مختلف تمامًا. طلب منهم أن يرى أوراق القرآن التي كانوا يقرأونها، فرفضت فاطمة خشية أن يمزقها ويلقي بها، فوعد عمر أنه لن يفعل. ولكن فاطمة قالت إنه غير طاهر، فعرض عمر أن يغتسل. وبعد أن تطهّر وهدأت نفسه، تناول الصحائف القرآنية في يده وكانت تحوي جزءًا من سورة طه. فراح يقرأ فيها إلى أن وصل إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ۝ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (طه: ١٥-١٦)

إن هذا التوكيد الجازم لوجود الله تعالى، وهذا الوعد الساطع بساعة قادمة حتمية، يؤسس فيها الإسلام عبادة حقيقية مكان تلك التي اعتادت عليها مكة، كل ذلك مع حشد من الأفكار الأخرى المرتبطة بها، لابد أنها جميعًا حركت مشاعر عمر، فلم يملك نفسه أمام تدفق ينبوع الإيمان في قلبه، وقال: "ما أعجب هذا الكلام وما أروعه"! فخرج خبّاب من مكمنه وصاح: "فليشهد الله! لقد سمعتُ رسول الله بالأمس فقط يدعو الله أن يهدي للإسلام عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام. وأرجو أن تكون هدايتك ثمرة دعائه". وعقد عمر العزم على اعتناق الإسلام، وسأل أين يكون الرسول ﷺ، وعلى الفور اتخذ طريقه إليه في دار الأرقم

بن أبي الأرقم، وكان قد أخذ سيفه معه. وعندما طرق الباب، رأى الصحابةُ عمرَ من شقوق الباب، فخشوا أن يكون ثمة نية سوء لديه، ولكن الرسول أمرهم أن يدعوه يدخل. ودخل عمر والسيف لا يزال في يده. فقال له الرسول ﷺ سائلاً: "ما جاء بك يا ابن الخطاب"؟ فقال عمر: "يا رسول الله، لقد جئت لأسلم". فكبَّر رسول الله ومعه الصحابة: "الله أكبر.. الله أكبر"، وردّدت قمم الجبال صدى الصوت. وانتشرت أخبار اعتناق عمر الإسلام كالنار في الهشيم. ومن اليوم فصاعدًا، أصبح عمر يعاني من الاضطهاد، شأنه في ذلك شأن بقية المسلمين، بعد أن كان هو الذي يقوم باضطهاد المسلمين وكانوا يخشون بأسه. وأصبح يجد عذوبة في العذاب من أجل الإسلام، كما كان يجد عذوبة في تعذيب المسلمين من قبل. وعاد يسير في طرقات مكة ويسمع من أهلها السباب والتحقير دون انقطاع.

اشتداد الاضطهاد

اشتدّ الاضطهاد، وأصبح أكثر خطورة وأشدّ قسوة بشكل يصعب احتماله. وغادر كثير من المسلمين مكة، والذين بقوا صاروا يلقون معاناة أشدّ وأكثر من ذي قبل. ولكن المسلمين لم يتزحزحوا قيد أنملة عن طريقهم الذي اختاروه. وظلت قلوبهم تسكنها الشجاعة، وظل إيمانهم ثابتًا كالطود. كان حبهم لله تعالى يزداد بقدر كراهيتهم لأصنام مكة. واتخذ الصراع صورة خطرة لم تحدث من قبل. ودعا أهل مكة إلى اجتماع كبير آخر، وقرروا فيه المقاطعة التامة للمسلمين. فلم يعد أهل

مكة يتعاملون بأي شكل من الأشكال مع المسلمين كما كان الحال من قبل، فلا يشترون منهم شيئًا ولا يبيعونهم شيئًا على الإطلاق. وقد اضطر الرسول ﷺ وأسرته وعدد من أقاربه الذين وقفوا إلى جانبه، رغم أنهم لم يكونوا مسلمين، إلى اللجوء إلى مكان منعزل يُسمى شعاب أبي طالب لأنه كان يملكه، وانحصروا هناك بدون مال، وبدون وسائل الحياة الضرورية، وبلا زاد مخزون. وقد عانى الرسول ﷺ وعائلته وأقاربه شدة لا يمكن التعبير عنها تحت هذا الحصار الذي دام لسنوات ثلاث، لم تخفّ خلالها حدّته. وفي النهاية، ضاق بعض الكرام من أهل مكة بهذا المشهد، وثاروا في وجه هذه الشروط المجحفة الظالمة، وذهب خمسة منهم إلى الأسرة المحاصرة لإنهاء المقاطعة وطلبوا منهم الخروج، فخرج أبو طالب وعنّف قومه على هذه القسوة. وعرفت مكة كلها بثورة الرجال الخمسة، غير أن المشاعر الطيبة عادت لتثبت وجودها في الإنسان ثانية، وقرر أهل مكة أنه يجب عليهم إلغاء المقاطعة الوحشية. ولكنهم لم يستطيعوا إلغاء آثارها، ففي غضون أيام قلائل لقيَت السيدة خديجة.. زوج الرسول ﷺ المؤمنة المخلصة ربها، ولحق بها أبو طالب بعد شهر.

وهكذا فقدَ الرسول الكريم ﷺ مساندة وصداقة السيدة خديجة، وفقدَ الرسول ﷺ والمسلمون معه المساعي الحميدة لأبي طالب. وبطبيعة الحال، فقد أدّى موتهما إلى فقْد المسلمين بعض التعاطف العام. وقد بدا في أول الأمر أن أبا لهب، العم الآخر للرسول ﷺ، سيقف معه، بعد أن أثرت فيه صدمة وفاة أخيه، وكانت وصيّته وهو على سرير الموت لا تزال حيّة في مخيّلته. ولكن أهل مكة نجحوا في استعدائه على الرسول ﷺ

مستغلين تأثير العادة وقوة التقاليد، فقد كانت تعاليم الرسول ﷺ تنص على أن الكفر بوحدانية الله عار وعورة وتجلب العقاب في الآخرة، وكان هذا التعليم يتعارض مع كل ما تعلموه من آبائهم الأولين. وهكذا قرر أبو لهب أن يأخذ جانب معارضة الرسول أكثر من ذي قبل. وأصبحت العلاقات بين المسلمين وأهل مكة متصدعة، وقد أدّت ثلاث سنوات من المقاطعة والحصار إلى اتساع الهوّة بينهما. وصار الاجتماع والدعوة إلى الإسلام والحوار في حكم المستحيل. ولم يعبأ الرسول ﷺ بالمعاملة السيئة ولا بالاضطهاد، فلم يكن لذلك اعتبار طالما أنه يستطيع أن يلتقي بالناس ويحادثهم، ولكن بدا له الآن أنه لن يستطيع أن يحقق ذلك في مكة. وبالإضافة إلى هذه العداوة العامة، وجد الرسول ﷺ أنه لا يستطيع الظهور في أيّ مكان عام أو في الطرقات، لأنه إذا فعل فإنهم يحثونه بالتراب ويعيدونه إلى داره. وقد عاد مرة إلى بيته ورأسه مكسيّ بالتراب، فبكت ابنته فاطمة وهي تنفض التراب عنه، فقال لها الرسول ﷺ: ''لا تبكي يا بنيّة، فإن الله مانع أباك''. إن المعاملة المهينة لم تكن هي ما يزعج الرسول ﷺ، بل لعله كان يرحب بها كدليل على الاهتمام برسالته. فعلى سبيل المثال، حدث في يوم من الأيام أن كاد له أهل مكة مكيدة، إذ لما خرج من بيته ومر في الطرقات، لم يجد أحدًا من أهل مكة يكلمه ولا يردّ عليه، وفي نفس الوقت لم يزعجه أحد بمعاملة سيئة من أي نوع، فعاد الرسول ﷺ إلى بيته مبتئسًا، حتى أتاه صوت الله تعالى يطمئنه ويخرجه إلى قومه مرة أخرى.

الرسول ﷺ يذهب إلى الطائف

بدا الآن أنه لا أحد في مكة بات يصغي إلى الرسول ﷺ، وقد جعله ذلك حزينًا، وأحس أن سوقه كاسدة، فقرر أن يتوجه إلى مكان آخر كي يبشر برسالته. واختار الطائف، وهي مدينة صغيرة تبعد ٦٠ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مكة، واشتهرت بالفاكهة ومزروعاها. وكان قرار الرسول ﷺ جاريًا على سُنة الأنبياء جميعًا. فقد توجّه موسى عليه السلام إلى فرعون مرة، وإلى بني إسرائيل مرة، كما ذهب إلى مديَن، وكذلك حدث للمسيح عليه السلام، فقد دعا أهل الجليل ثم عبر الأردن ودعا أهل أورشليم. وكذلك لما وجد الرسول ﷺ أن أهل مكة يسيئون المعاملة ولا يستمعون، تحوّل إلى الطائف. ولم تكن الطائف تقل عن مكة في الشرْك بالله، ولم تكن الأوثان المنصوبة في الكعبة هي وحدها المعبودة ولا وحدها المهمّة في بلاد العرب. ففي الطائف كان هناك صنم هام هو "اللات"، وبسببه كانت الطائف مركزًا للحجيج. وكانت أواصر الدم تربط بين أهل الطائف وأهل مكة، كما كان أهل مكة يملكون أغلب البساتين التي بين مكة والطائف. وعند وصول الرسول ﷺ إلى الطائف زاره سادة المدينة عدة زيارات، ولكن لم يَبد أن أحدهم كان مستعدًا لقبول رسالته، والعامة من الناس اتبعوا رؤساءهم ولم يعيروا كلامه أيّ اهتمام. ولم يكن ذلك غريبًا، فالناس المنغمسون في الأمور الدنيوية يرون مثل هذه الرسالة دائمًا على أنها نوع من التدخل في حياهم، بل يعتبروها إهانة لهم. ولما كانت الدعوة تبدو لهم بلا سند مرئي يدعمها، كعدد الأتباع وقوة السلاح، كانوا يشعرون أيضًا أن بإمكاهم أن يرفضوها بلا

مبالاة بل وبازدراء. و لم يكن الرسول ﷺ استثناء من ذلك. وقد سبقته أخباره إليهم، وها هو الآن قد أتى إليهم بلا سلاح ولا أتباع، فردٌ وحيدٌ ليس معه أحد سوى رفيق واحد هو زيد. واعتبر أهل الطائف أن الرسول ﷺ مصدر للضيق يجب وضع نهاية لـــه من أجل إرضاء سادتهم ورؤسائهم. فسلطوا عليه سفهاءهم والصبية المشردين في الطرقات، فحصبوه بالحجارة وطردوه خارج المدينة. وقد جُرح زيد وكان الرسول ﷺ ينْزف بغزارة، ولكن الملاحقة استمرت حتى صار الرسول ﷺ وزيد على بُعد أميال خارج الطائف. وكان الرسول ﷺ محزونًا وموجوعًا ومغتمًّا عندما جاءه مَلَك وسأله إن كان يريده أن يهلك أولئك الذين عاملوه بهذه القسوة البشعة، فرفض الرسول ﷺ وقال: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" (البخاري، كتاب بدء الخلق).

وتوقف الرسول ﷺ بعد أن أنهكه التعب، ونال منه الغم، واعتصره الألم، في كَرْمٍ يملكه رجلان من أهل مكة تصادف وجودهما في ذلك اليوم. ورغم أنهما كانا من بين الذين يضطهدون المسلمين في مكة، إلا أنهما كانا متعاطفين في تلك المناسبة. فهل كان السبب أن أهل الطائف قد أساءوا معاملة رجل من مكة، أم كان السبب شرارة من العطف الإنساني توهجت فجأة في قلبيهما؟ لقد أرسلا إلى الرسول ﷺ طبقًا مليئًا بالعنب مع مملوك نصراني يسمى "عدّاسا" من مدينة نينوَى. وقدّم عدّاس الطبق إلى الرسول ﷺ وصاحبه بينما أخذ يرنو إليهما بعينيه متفكرا، ثم اشتد فضوله كثيرًا عندما سمع الرسول ﷺ يقول:

"بسم الله الرحمن الرحيم". وانتعشت ذاكرته المسيحية، وأحسّ أنه في حضرة أحد أنبياء العبرانيين. وسأله الرسول ﷺ إلى أين ينتمي، فقال عداس إنه من أهل نينوى، وحينئذ قال الرسول ﷺ: "نينوَى، بلدة الرجل الصالح يونس بن متّى. ذاك أخي، فهو نبيّ مثلي". وقد أخبر الرسول ﷺ عدّاسا عن رسالته، فتأثر عدّاس كثيرًا بكلامه وآمن به في الحال، وعانق الرسول ﷺ والدموع تتقاطر من عينيه، وراح يقبّل رأسه ويديه وقدميه. وبعد هذا اللقاء توجه الرسول إلى الله تعالى بالدعاء فقال:

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنْزل بي غضبك، أو يحلّ علي سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك" (ابن هشام والطبري).

بعد هذا الدعاء، توجه عائدًا إلى مكة، وفي الطريق توقف عند "نخلة" لبضع أيام ثم قفل عائدًا إلى مكة. وحسب تقاليد مكة فإنه لم يعد مواطنًا مَكّيًا. لقد غادرها بسبب عدائها له، فلا يمكنه العودة إلا بموافقة أهل مكة. بعث الرسول ﷺ برسالة إلى المطعم بن عديّ، أحد أشراف مكة، يطلب جواره لدخولها. ورغم أن المطعم كان عدوًا لدودًا كالآخرين، لكنه كان يملك قلبًا نبيلاً، فجمع أولاده وأقاربه،

وحملوا سلاحهم وذهبوا إلى الكعبة، ووقفوا في ساحة المسجد الحرام، وأعلن المطعم أنه قد أجار محمدًا ليعود إلى مكة. وعاد الرسول ﷺ وطاف بالكعبة مع المطعم وأبنائه وأقاربه وسيوفهم مسلولة، ثم صحبوه إلى داره. ولم يكن هذا الجوار الذي أعلنه المطعم يعني منح الحماية الكاملة للرسول ﷺ، إذ لم يتعد ما فعل المطعم سوى بلاغ رسمي يسمح له بالعودة فقط، ولقد استمر الرسول ﷺ يعاني من الاضطهاد مثل غيره، ولم يستطع المطعم أن يمنع عنه شيئًا.

إن رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف قد انتزعت المدح حتى من أعداء الإسلام. فقد تحدث السير وليم موير عن رحلة الطائف في كتابه عن سيرة الرسول ﷺ، فقال:

هناك شيء شامخ وبطولي في هذه الرحلة التي قام بها محمد إلى الطائف؛ رجل وحيد، محتقر ومرفوض من قومه، يذهب في جسارة باسم الله، مثل يونس إلى نينوَى، ويدعو مدينة من الوثنيين كي يتوبوا ويساندوه في مهمته. إن ذلك يُلقي ضوءًا يدل على شدّة إيمانه بالأصل الإلهي لدعوته (حياة محمد، تأليف السير وليم موير، طبعة ١٩٢٣م ص ١١٢- ١١٣).

وعادت مكة إلى عداوتها القديمة. ومرة أخرى أصبح وطن الرسول ﷺ والبلدة التي يعيش فيها جحيمًا بالنسبة له، ولكنه استمر يخبر الناس برسالته، وبدأت جملة "لا إله إلا الله" تُسمع هنا وهناك. وظل الرسول ﷺ بكل حكمة ومحبة، وشعور بالتعاطف، يدعو الناس بإصرار ومثابرة. وأعرض عنه الناس، ولكنه خاطبهم ليلاً ونهارًا، وأعاد مخاطبتهم مرارًا وتكرارًا، ولقد صدع بدعوته سواء اهتم الناس به أم

لا، وكان لا بد أن يأتي الإصرار بأثماره. كذلك فإن تلك الحفنة من المسلمين التي عادت من الحبشة وقررت البقاء، راحت تبشر بالدين الجديد في سرّية مع الأصدقاء والجيران والأقارب. وقد اعتنق بعض هؤلاء الإسلام، وأعلنوا عن أنفسهم على الملأ، وشاركوا المسلمين الآخرين أشكالاً وأنواعًا من المعاناة التي كانوا يقاسون منها، ولكن الكثيرين لم تواتهم الشجاعة أن يعترفوا علانية، وإن كان القلب قد سكنه الاقتناع، فقد فضلوا الانتظار إلى أن يأتي ملكوت الله إلى الأرض.

خلال ذلك الوقت كان الرسول ﷺ يتلقى وحيًا يحتوي على تلميحات عن قرب إمكانية الهجرة من مكة. وقد تلقى أيضًا ما يفيد أن مكان الهجرة سيكون بلدة تتميز بوجود الآبار وحدائق النخيل، وقد ظن الرسول ﷺ أنها اليمامة، ولكن سرعان ما استبعد هذه الفكرة، وانتظر أمر الله تعالى يحدوه اليقين بأنه أيًّا كان المكان الذي ستتم الهجرة إليه، فلا بد أن الله ﷻ قد قدّر له أن يكون مهد الإسلام.

الإسلام ينتشر في المدينة

اقترب موسم الحج، وبدأ الحجاج يتوافدون إلى مكة من جميع أنحاء بلاد العرب. وكان الرسول ﷺ يذهب حيثما يجد أيّة مجموعة من الناس، ليخبرهم عن الله الواحد، ويطلب منهم أن يكفوا عن كل أنواع التطرّف والتجاوزات، وأن يعبروا الطريق إلى ملكوت الله تعالى.

وقد أصغى البعض وأبدَى شيئًا من الاهتمام، والبعض أراد أن يستمع ولكن أهل مكة حالوا بينهم وبين ذلك، والبعض ممن ركب رأسه توقف ليسخر ويخرج ما في داخله من حقد واحتقار. وكان الرسول ﷺ في وادي "مِنى" حين رأى مجموعة من ستة أو سبعة من الأفراد ينتمون إلى قبيلة الخزرج، وهي قبيلة تسكن في يثرب وتتحالف مع اليهود، فسألهم إن كان يمكنهم الإنصات لما يريد أن يقوله. كانوا قد سمعوا عنه، وأثار اهتمامهم بأمره، فوافقوا. وقضى الرسول ﷺ بعض الوقت معهم ينبّئهم بأن مملكة الله صارت على الأبواب، وأن الأصنام سوف تزول وتختفي، وأن فكرة وحدانية الله سوف تعلو وتسود، كما سوف تسود قيم النقاء والطهارة مرة أخرى وينتشر الورع بين الناس، فهل يمكن أن يرحّبوا بهذه الرسالة في المدينة؟ وكان لكلام الرسول ﷺ وقع جليل في قلوب هذه المجموعة فقبلوا الرسالة، ووعدوا أن يجتمعوا بالآخرين عند عودتهم إلى المدينة، ويبحثوا معهم الأمر، وفي العام القادم سيرفعون رأيهم للنبي ﷺ عما إذا كانت المدينة على استعداد لاستقبال المهاجرين المسلمين القادمين من مكة. وعندما عادوا التقوا بأصدقائهم وأقاربهم وتحدثوا معهم فعلاً.

في ذلك الوقت كان في المدينة قبيلتان عربيتان وثلاث قبائل يهودية. القبائل العربية هي الأوس والخزرج، والقبائل اليهودية هي بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع. كانت الأوس والخزرج في حرب دائمة، وكانت قبيلتا قريظة والنضير في حلف مع الأوس، أما بنو قينقاع فكانت في حلف مع الخزرج. وكان الجميع قد تعبوا من

الحرب ومالوا إلى السلام، وقرروا في النهاية تنصيب زعيم الخزرج عبد الله بن أُبيّ بن سلول ملكًا على المدينة. وكان الأوس والخزرج قد سمعوا من اليهود الكثير من النبوءات المكتوبة في التوراة، كما سمعوا أيضًا الروايات اليهودية عن المجد المفقود لليهود، وعن مقدم نبيّ "مثيل لموسى". وتعوّد اليهود أن يقولوا إن مقدم هذا الرسول قد صار على الأبواب، وقد أوشك أن يظلهم زمانه، وأن مقدم ذلك الرسول سيكون علامة على عودة مجد بني إسرائيل والقضاء على أعدائهم. وعندما سمع أهل المدينة عن أن الرسول ﷺ قد ظهر في مكة، تأثروا بذلك تأثرًا بالغًا، وتساءلوا إن كان هذا هو الرسول الذي سمعوا عنه من اليهود.

وقد آمن الكثير من الشباب في الحال، وفي موسم الحج التالي جاء إلى مكة اثنا عشر رجلاً ليبايعوا الرسول ﷺ. كان عشرة منهم ينتمون لقبيلة الخزرج واثنان من قبيلة الأوس، ولقوا الرسول ﷺ في وادي "مِنى"، ووضعوا أيديهم في يد الرسول ﷺ وبايعوه على الإيمان بوحدانية الله تعالى وعزمهم على الكفّ عن كل الآثام المعروفة، والامتناع عن وأد البنات، وقوْل الزّور، وأن يطيعوه في كل ما يأمرهم به من معروف. ولما عادوا إلى المدينة، راحوا ينشرون الدين الجديد بين جميع الناس. وزادت حماستهم وحميّتهم. وتم نزع الأصنام من محاريبها وقُذف بها في الطرقات. وأولئك الذين تعوّدوا الركوع أمام التماثيل والأصنام بدأوا يرفعون رؤوسهم عاليا، فقد عقدوا العزم على ألا يركعوا إلا لله الواحد الأحد. وتعجب اليهود!! إن قرونًا من الصداقة

والمناقشات مع العرب فشلت في إحداث الأثر الذي أحدثه ذلك المعلم الذي ظهر في مكة في أيام معدودات. وكان أهل المدينة يتوافدون على القلة الذين أسلموا ليعرفوا منهم المزيد عن الإسلام، ولكن هذا العدد القليل لم يكن ليستطيع الإجابة على هذا الكم الكبير من التساؤلات، ولم تكن لديهم المعرفة الكافية التي تؤهلهم لذلك، فقرروا أن يرسلوا إلى الرسول ﷺ ليطلبوا منه أن يبعث إليهم من يقوم بتعليمهم أمور الإسلام، ووافق الرسول ﷺ على إرسال مُصعَب بن عُمَير، وهو أحد شباب المسلمين الذين ذهبوا إلى الحبشة، فكان مُصعب أوّل مبشر إسلامي يخرج من مكة.

وفي تلك الأثناء، تلقى الرسول ﷺ وعدًا عظيمًا من الله ﷻ. فقد رأى رؤيا جليلة، ورأى نفسه في بيت المقدس وقد اصطف الأنبياء خلفه لصلاة الجماعة. وكان بيت المقدس في الرؤيا يرمز للمدينة المنوّرة التي كان من المقدّر لها أن تكون المركز الإسلامي الذي تنطلق منه عبادة الله الواحد الأحد، أما الأنبياء الآخرون الذين احتشدوا خلف الرسول ﷺ فقد كانوا يرمزون إلى أتباع الأديان الآخرين الذين سوف ينضمون إلى الإسلام، وأن الإسلام سيصبح دِينًا للعالم أجمع.

ومع مرور الوقت، كانت الظروف في مكة تزداد حرجًا، وصار الاضطهاد في أبشع صوره التي من الصعب تصورها. وقد سخر أهل مكة من هذه الرؤيا التي أعلن عنها الرسول ﷺ ووصفوها بأنها أحلام يقظة وأماني الخيال. وقليلاً ما كانوا يعلمون أن الأساس قد أقيم بالفعل لبناء "أورشليم الجديدة" كما جاء في نبوءات الكتاب المقدس،

وأن الناس في الشرق والغرب في شوق ولهفة ليسمعوا الرسالة العظمى الأخيرة من الله تعالى.

وفي تلك الأيام، اشتعلت الحرب بين قيصر الروم وكسرى فارس، وانتصر الفُرْس على الروم، واحتلت جيوش الفرس الشام وفلسطين، ودمروا القدس، واستولوا على مصر وآسيا الصغرى، واستطاع القادة الفُرس أن ينصبوا خيامهم على مشارف البسفور، على بعد عشرة أميال فقط من القسطنطينية. وتهلل أهل مكة للنصر الذي حققه الفُرس، وقالوا إن حكم الله قد صدر، فها قد انتصر أولئك الذين يعبدون الأصنام في فارس على أهل الكتاب من الروم. وفي ذلك الوقت تلقى الرسول ﷺ الوحي القرآني التالي:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣- ٧)

وتحققت النبوءة في سنوات قلائل، فقد هزم الروم الفرس واستردوا جميع البلاد التي فقدوها. وقد تحقق أيضًا الجزء الذي يقول: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾، فقد بدأ الإسلام يتقدم. وكان أهل مكة قد اعتقدوا أنهم قضوا على الإسلام لما أقنعوا الناس ألا يستمعوا إلى المسلمين، بل يظهروا لهم العداوة والاحتقار. وفي نفس الوقت، تلقى الرسول ﷺ وحي الله ﷻ يخبره بأنباء انتصار المسلمين والقضاء على نفوذ أهل مكة. وقد أعلن الرسول ﷺ الآيات التالية:

﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى ۞ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ۞ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (طه: ١٣٤-١٣٦)

لقد طالب أهل مكة أن يروا آية من عند الله تعالى، فأخبرهم سبحانه أن النبوءات التي وردت في الكتب السابقة عن الرسول والإسلام يجب أن يكون فيها الكفاية، ولو أن الله تعالى أهلكهم بعذاب قبل أن يتم شرح الإسلام لهم لقالوا إنهم لم تكن لديهم الفرصة لدراسة الآيات. وعلى ذلك، ينبغي على أهل مكة أن ينتظروا.

وتوالى كل يوم نزول الوحي الذي يَعِدُ بنصر المؤمنين وهزيمة المشركين. وعندما ينظر أهل مكة إلى قوتهم ويسر حالهم، وإلى ضعف المسلمين وفقرهم، ثم يسمعون وعود التأييد الإلهي وانتصار المسلمين وهي تتوالى يوميًا في الوحي النازل على الرسول ﷺ كانوا يعجبون ويعجبون. فهل أصابهم الجنون أم أن الرسول ﷺ هو الذي أصابه الجنون؟ لقد كانوا يأملون أن يُرغم التعذيب المسلمين على الخضوع وترك إيمانهم والعودة إلى دين أهل مكة، وأن الرسول نفسه وأتباعه المقربين سوف يبدأ الشك يساورهم في صدق دعواه. ولكنهم بدلاً من ذلك استمعوا لتوكيد جازم واثق كما يلي:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ

۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الحاقة: ٣٩-٥٣)

لقد أنذر الله تعالى أهل مكة أن جميع آمالهم الغالية سوف تنهار وتتحطم، فالرسول ﷺ ليس بشاعر ولا بكاهن ولا يتقوّل على الله، وإن القرآن المجيد تذكرة للمتقين. وصحيح أن منهم من يكذبه، ولكن له أيضًا معجبيه الذين لا يريدون أن يعترفوا بعظمته، لأنهم يغارون من جمال تعاليمه، وجلال حقائقه، فتصيب قلوبهم الحسرة، ولا شك أن جميع الوعود والنبوءات التي جاءت فيه سوف تتحقق يقينًا. وعلى الرسول ألا يهتم بالمعارضين، بل يستمر في تسبيح ربه العظيم.

وأقبل الموسم الثالث للحج، وكان بين حجاج المدينة رهط من المسلمين، وقد رغب هؤلاء المسلمون في الالتقاء بالرسول ﷺ على حدة بسبب المعارضة الشديدة من أهل مكة.

كان تفكير الرسول الخاص يتجه أكثر وأكثر إلى المدينة كمكان واعد محتمل للهجرة، وقد ذكر الرسول ﷺ هذا لبعض المقربين إليه من أقاربه، ولكنهم حاولوا إقناعه بالعدول عن كل الأفكار التي تنحو هذا النحو. وقالوا ينصحونه إنه رغم المعارضة الشديدة في مكة، فإن له قرابات عديدة من ذوي النفوذ. ثم إن احتمالات النجاح في المدينة غير مؤكدة، وإذا تبين أن المدينة مثل مكة في العداء أو أشد، فكيف يستطيع أقاربه في مكة حينئذ أن يقدّموا إليه يد المساعدة؟ غير أن

الرسول ﷺ كان مقتنعًا أن الله تعالى قد كتب أن تكون المدينة هي مكان الهجرة، ولذلك رفض نصيحة أقاربه وقرر الهجرة إلى المدينة.

بيعة العقبة الأولى

بعد منتصف الليل التقى الرسول ﷺ مرة ثانية بمسلمي المدينة في وادي العقبة مع عمه العباس رضي الله عنه. كان عدد مسلمي المدينة يبلغ ثلاثة وسبعين، اثنان وستون منهم من الخزرج، وأحد عشر من الأوس. وضمّ الرهط امرأتين، الأولى هي أمّ عمارة؛ من بني النجار الذين تعلموا الإسلام من مُصعب بن عُمَير، وكانوا قومًا يملؤهم الإيمان واليقين. وقد أثبتوا جميعًا أنهم أعمدة للإسلام، وكانت أمّ عمارة رضي الله عنها نموذجًا لهم، فقد غرست في نفوس أبنائها ولاءً لا يتزحزح للإسلام. وفي الحرب التي وقعت مع مسيْلمة الكذاب بعد وفاة الرسول ﷺ، أُخذ أحد أبنائها، وهو حبيب بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، أسيرًا إلى مسيلمة الكذاب. وقد حاول مسيلمة زعزعة عقيدة حبيب؛ فسأله قائلاً: "هل تؤمن أن محمدًا رسول الله"؟ فأجاب حبيب: "نعم". فسأله مسيلمة: "وهل تؤمن أني رسول الله"؟ فقال حبيب: "لا". وعندئذ أمر مسيلمة بقطع أحد الأطراف من جسد حبيب. ثم سأله مرة أخرى: "أتؤمن أن محمدًا رسول الله"؟ فأجاب حبيب: "نعم". فسأله: "أتؤمن أني رسول الله"؟ فأجاب حبيب: "لا". وعند ذلك أمر مسيلمة بقطع طرف آخر من جسد حبيب، وظل هكذا يقطع طرفًا بعد طرف حتى تمزّق جسد حبيب إلى أشلاء. ولقد مات

حبيب ميتةً قاسية بشعة، ولكنه ترك خلفه مثالاً لا يُنسى للبطولة والتضحية من أجل العقيدة الدينية. (السيرة الحلبية، ج٢، ص١٧)

وأما أم عمارة فقد صحبت الرسول ﷺ في العديد من الغزوات.

وباختصار، لقد حقق هذا الرهط من مسلمي المدينة تميزًا كبيرًا في الولاء والإيمان. لقد جاءوا إلى مكة لا من أجل الثروة، بل من أجل اليقين، ولقد نالوا فيضًا وافرًا من هذا اليقين.

وتكلم العباس ﷺ، مدفوعًا بالروابط الأسرية والإحساس بالمسئولية الشرعية عن سلامة الرسول ﷺ فقال للوفد:

"يا معشر الخزرج. إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه. فهو في عزّ من قومه ومنَعة في بلده. إلا أنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مُسْلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزّ ومنَعة من قومه وبلده".

فقام البراء ﷺ قائد الرهط وأجاب بثقة ويقين:

"لقد سمعناك. وإن قرارنا لحازم في هذا الشأن، وحياتنا رهن أمر رسول الله، لقد عزمنا وإننا ننتظر قرار الرسول" (السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨)

عرض الرسول ﷺ الإسلام مجددًا وبيّن تعاليمه. وأخبر الوفد أنه سيذهب إلى المدينة إذا كانوا سيمنعون الإسلام كما يمنعون نساءهم وأطفالهم. ولم يكن قد أكمل حديثه حين صاح الرهط الثلاثة

والسبعون في صوت واحد: نعم نعم. وفي غمرة حماسهم نسوا أنه قد يسمعهم أحد. وحذرهم العباس حتى يخفضوا الصوت. ولكن الإيمان كان يتدفق في قلوب ذلك الرهط وكان وجدانهم يموج باليقين، فلم يعد الموت شيئًا مرهوبًا في عيونهم. وعندما سمعوا تحذير العباس صاح أحدهم بصوت عال: يا رسول الله إنَّا لسنا خائفين، وإذا أذنت لنا فإنّا نستطيع أن نقاتل أهل مكة الآن وننتقم لما أجرموا في حقك. لكن الرسول ﷺ قال إنه لم يُؤمر بقتال. عند ذلك عقد الوفد بيْعة الوفاء وانفضّ الاجتماع.

عرفت مكة بأمر الاجتماع. فذهبوا إلى خيام أهل المدينة حيث اشتكوا هؤلاء الزائرين لسادتهم، لكن عبد الله بن أبيّ بن سلول، وهو سيد سادتهم، لم يكن يدري شيئًا عما حدث، فأكد لأهل مكة أن هذا الخبر إشاعة كاذبة، فلقد اختاره أهل المدينة زعيمًا ولا يمكنهم فعل شيء كهذا بدون علمه ورضاه. لم يكن عبد الله قد علم بعد أن أهل المدينة قد طرحوا حكم الشيطان، ورضوا بحكم الله بدلاً.

الهجرة

عاد الوفد إلى المدينة، وبدأ الرسول ﷺ وأتباعه يستعدّون للهجرة. وبدأت الأسر تختفي الواحدة بعد الأخرى. كانت الشجاعة تملأ قلوب المسلمين ليقينهم أن ملكوت الله قريب. وأحيانًا كان الزقاق كله يتم إخلاؤه في ليلة واحدة، ويصبح أهل مكة ليروا أبواب كل منازل هذا

الزقاق مغلقة، فيعلمون أن قاطنيها قد هاجروا إلى المدينة. ولقد أدهشهم أن يكون للإسلام كل هذا التأثير العجيب.

وفي النهاية، لم يبق أحد من المسلمين في مكة سوى بعض العبيد، والرسول ﷺ نفسه وأبو بكر رضي الله عنه وأهله، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وتأكد لأهل مكة أن فريستهم توشك أن تفلت، فاجتمع سادتهم ثانية وقرروا أنه لا بد من قتل الرسول ﷺ. وبتدبير إلهي خاص، كان الموعد الذي حدّدوه لقتل الرسول ﷺ هو الموعد الذي حدّده الله تعالى لنجاته. وعندما اجتمعوا عند باب بيت الرسول ﷺ في نيّة مبيّتة لقتله، كان ﷺ ينسلّ خارجًا في سرّية تحت جنح ظلام الليل. ولا بد أن أهل مكة قد خافوا أن يحبط تدبيرهم الأحمق بعمل من طرف الرسول ﷺ، لذلك باشروا عملهم بحذر، وعندما مرّ الرسول ﷺ نفسه عليهم ظنوه شخصًا آخر، وانسحبوا متوارين جانبًا. وكان أبو بكر، وهو الصديق الأثير لدى الرسول ﷺ، قد علم بخطة الرسول ﷺ قبل التنفيذ بيوم، فانضم إليه في حينه. وغادر الاثنان مكة، ولجآ إلى غار يسمى غار ثور؛ على قمة جبل يبعد ثلاثة أميال من مكة. وعندما علم أهل مكة بإفلات الرسول ﷺ، اجتمعوا وأرسلوا قوة مسلحة تطارده، يقودها قصّاص أثر. وبلغت القوة جبل ثور، وأمام الغار الذي يختفي فيه الرسول وأبو بكر، وقف قصّاص الأثر قائلاً إن محمدًا إمَّا أن يكون في الغار أو أنه صعد إلى السماء. وسمع أبو بكر رضي الله عنه ذلك، فدقّ قلبه بعنف وقال في همس: "لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآنا". فقال الرسول ﷺ: "لا تحزن إن الله معنا". فقال أبو بكر: "إني لا أخشى

على نفسي بل أخشى عليك، فإنني إن مت فما أنا إلا امرؤ عـــادي، ولكن لو أنك مت فذلك يعني موت الإيمان والدين (الزرقـــاني). فطمأنه الرسول ﷺ قائلاً لـــه: "ما ظنك يا أبا بكـــر بـــاثنين الله ثالثهمـــا" (البخاري، كتاب المناقب).

كان الله ﷻ قد قدّر أن ينتهي طغيان مكة، وكتب العزة والانتشار للإسلام. لذلك فقد خدع المطاردون أنفسهم؛ فسخروا مـــن قـــول قصّاص الأثر، وقالوا له إنّ الغار مكشوف ولا يُغري باللجوء إليـــه، ونظرًا لوجود الحيات والأفاعي به، فمن الخطر أن يلجأ إليه أحد. ولو أنهم انحنوا قليلاً لرأوا الرسول ﷺ وصاحبه، ولكنهم لم يفعلوا، فصرفوا قصّاص الأثر، وعادوا إلى مكة.

وانتظر الرسول ﷺ وأبو بكر يومين بالغار، وفي الليلة الثالثة حسب الخطة الموضوعة، جاءت ناقتان سريعتان إلى الغار؛ إحداهما للرســـول ﷺ للرسول والدليل الذي سيرشد إلى الطريق، والأخرى لأبي بكـــر وخادمه عامر بن أبي فُهَيرة.

سراقة يطارد الرسول ﷺ

قبل أن ينطلق الرسول ﷺ، نظر خلفه إلى مكة، وتفجّرت المشاعر في قلبه. لقد كانت مكة مسقط رأسه، عاش فيها طفلاً ورجلاً، وتلقّى فيها دعوة الله ﷻ. لقد كانت المكان الذي ازدهر فيه آبـــاؤه منـــذ إسماعيل عليه السلام. ومع جيشان هذه الخواطر، ألقى عليها نظـــرة أخـــيرة طويلة وقال: "عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ الأَرْضِ إِلَى اللهِ وَلَوْ

لا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ". عند ذلك قال أبو بكر ﷺ:
"هل تنتظر قرية أخرجت نبيّها سوى الهلاك"؟

عندما فشلت خطة المطاردة، وضع أهل مكة جائزة مقدارها مائة جمل لمن يأتي برأس الهاربيْن إلى مكة حيّين أو ميّتين، محمد ﷺ وأبي بكر ﷺ. وأُعلن الخبر في القبائل المحيطة بمكة، وأغرت الجائزة سُراقة بن مالك؛ أحد سادة البدو، فبدأ في مطاردة الرهط المهاجر، وأخيرًا لحهم على الطريق إلى المدينة. رأى جملين على البعد محمّلين، فخمّن أنهما لابد يحملان محمدًا ﷺ وأبا بكر. فهمز حصانه، غير أنه قبل أن يذهب بعيدًا، إذا به يتعثر ويسقط، ومعه سراقة. إن رواية سُراقة في هذا الصدد لذات مغزى. قال سُراقة:

"فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، فخرج الذي أكره. فركبت فرسي وعصيت الأزلام، وذهبت فرسي تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات (من الواضح أن ذلك كان خوفا على سلامة الرسول ﷺ)، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها، فنهضَت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان. فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره. فناديتهم بالأمان فوقفوا. فركبت فرسي حتى جئتهم، فوقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله. فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديّة. وأخبرتهم أخبار ما

يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني، إلا أن قال: أَخْفِ عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن. فأمر عامر بن فُهَيرة، فكتب لي في رقعة من أدم. وعندما أردت أن أعود بالكتاب تلقى رسول الله وحيًا عن المستقبل، فقال يا سُراقة، كيف أنت إذا لبست سواري كسرى؟ فسألته دهشًا: أيّ كسرى؟ كسرى بن هرمز؟ إمبراطور الفُرس قال الرسول: نعم". (أُسُد الغابة)

وبعد هذا اليوم بستة عشر أو سبعة عشر عامًا، تحققت النبوءة حرفيًّا. لقد دخل سراقة الإسلام، وذهب مهاجرًا إلى المدينة، ومات الرسول ﷺ، وبعده مات أبو بكر ﷺ، ثم أصبح عمر ﷺ خليفة الإسلام. ودفع نفوذ الإسلام المتنامي الفُرس إلى الإحساس بالغيرة، فهاجموا المسلمين. ولكنهم بدلاً من إخضاع المسلمين، خضعوا هم للمسلمين. وسقطت عاصمة الفُرس في يد المسلمين حيث استولوا على كنوز كسرى، وفيها سواراه الذهبيان اللذان كان يلبسهما عند ممارسة السُلطة. وكان سُراقة بعد إسلامه قد تعوّد على تكرار ذكر مطاردته للرسول ﷺ ورهطه، وكان يقصّ ما جرى بينه وبين رسول الله. وعندما وُضعت غنائم الحرب أمام عمر ﷺ، لمح السوارين وتذكّر ما قال الرسول ﷺ لسُراقة. لقد كانت نبوءة عظيمة، نطق بها الرسول ﷺ وهو في أقصى درجات الضعف. وقرر عمر ﷺ أن يقدّم تحقيقًا عمليًا للنبوءة على رءوس الأشهاد. فدعا سُراقة، وأمره أن يلبس السوارْين. واعترض سُراقة لأن ارتداء الذهب محرّم على الرجال في الإسلام. فقال عمر ﷺ إن ذلك حق، ولكن تلك المناسبة كانت

استثناء. لقد رأى الرسول ﷺ سواري كسرى على معصميه، فكان لا بد له من لبسهما. لقد كان اعتراض سُراقة قائمًا على احترامه لتعاليم الرسول ﷺ، وإلا فإنه كان يتلهف على تحقيق هذه النبوءة العظيمة تحقيقًا عمليًا. فلبس السوارين، ورأى المسلمون نبوءة رسول الله وقد تحققت. (أُسُد الغابة)

لقد أصبح الرسول المطارَد ملكًا. ورغم أنه لم يعد هو نفسه في هذا العالم، إلا أن أولئك الذين اتبعوه استطاعوا أن يشاهدوا كلماته ورؤياه تتحقق.

رسول الله ﷺ يصل إلى المدينة

وعودة إلى قصة الهجرة، واصل الرسول ﷺ رحلته دون ترويع من أحد بعد أن صرف سُراقة، ولما وصل إلى المدينة وجد الناس ينتظرونه بشوق عظيم وصبر بالغ، فلا يمكن أن يطلع عليهم فجر يومٍ أسعد من هذا اليوم؛ فإن الشمس التي كانت تشرق بنورها على مكة قد جاءت لتشرق على المدينة. لقد وصلتهم الأخبار بأن الرسول ﷺ قد غادر مكة، ولذا كانوا يتوقعون وصوله. ولعدة أيام، ظل الكثيرون منهم، في مجموعات وطوائف، يغادرون المدينة في الصباح، وينتظرونه على مبعدة أميال منها، ثم يعودون في المساء كاسفي البال. وعندما بلغ الرسول ﷺ المدينة أخيرًا، قرر التوقف عند قباء فترة، وهي قرية قرب المدينة. ورأى أحد اليهود البعيرين، وحدَس أن راكبيْهما الرسول ﷺ وصاحبه، فارتقى ربوَة ونادَى عاليًا: "يا بني قيلة، ها قد جاء الذي

أنتم تنتظرون". فهرع إلى قباء كل من سمع النداء، بينما ملأت الفرحة أهل قباء بوجود الرسول ﷺ بينهم، وراحوا ينشدون ويتغنون بتشريفه لهم.

وقد تجلّت البساطة المطلقة للرسول ﷺ في حادثة وقعت حينذاك بقباء. لم يكن أغلب أهل المدينة قد رأوا رسول الله من قبل، ولما رأوه ومرافقيه جالسين تحت شجرة يستظلون، ظن أكثرهم أن أبا بكر هو الرسول، إذ أن لحيته كانت أكثر شيبة من لحية رسول الله، كما كانت ملابسه تبدو أفضل من ملابس الرسول ﷺ، ولذلك تحوّلوا إلى أبي بكر وجلسوا أمامه، بعد أن قدموا له آيات الاحترام والإجلال الواجبة للرسول. فلما رأى أبو بكر أنهم أخطأوا، نهض وخلع عباءته وحجب بها أشعة الشمس عن الرسول ﷺ وقال: "يا رسول الله، إنك تجلس في الشمس فدعني أظلّلك" (البخاري). وبهذه البراعة واللطف، بيّن أبو بكر لأهل المدينة ببساطة ما أخطأوا فيه.

مكث الرسول ﷺ عشرة أيام في قباء، وبعدها أخذه أهل المدينة إلى بلدهم. وعند دخوله المدينة، وجد الناس جميعًا قد جاءوا لاستقباله، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ومما أنشدوه ترحيبا به كانت هذه الأبيات (السيرة الحلبية):

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

لم يدخل الرسول ﷺ المدينة من الجانب الشرقي، فلماذا ذكروا طلوع البدر؟! لقد كانوا يقصدون أنهم كانوا يحيون في ظلام قبل أن يأتيهم ﷺ ليشرق بنوره عليهم.

لقد دخل ﷺ المدينة يوم الاثنين، ودخل غار ثور يوم الاثنين، وربما يبدو غريبًا أنه فتح مكة يوم الاثنين أيضًا، بعد عشر سنوات من هذا التاريخ.

أبو أيوب الأنصاري يستضيف رسول الله

عندما دخل الرسول ﷺ المدينة، تلهّف الجميع لنيل شرف استضافته. وأثناء مرور بعيره على الدروب، كانت القبائل تصطف لاستقباله ويقولون: "هلم إلى العدد والعُدّة والسلاح والمَنعة". كانوا يعرضون بيوتهم، وأموالهم، وأنفسهم، لاستقباله وحمايته. وأظهر كثيرون حماسًا وحمية ولهفة بالغة، فكانوا يواجهون الناقة ويأخذون بعنانها، ويصرّون أن يترجّل الرسول ﷺ عند أبواب دورهم ليدخلها فينالوا شرف استضافته. ويرفض الرسول ﷺ بكل أدب قائلاً: "دعوها فإنها مأمورة".

وأخيرًا توقفت الناقة عند موقع يخصّ يتيمين لبني النجار، فترجّل الرسول ﷺ قائلاً: هذا المنْزل. وجاء كافل اليتيمين وعرض المكان ليستخدمه رسول الله، فردّ بأنه لن يقبل المكان إلا شراء، وتم الاتفاق على الثمن، وقرر الرسول ﷺ أن يبني في هذه البقعة مسجدًا وبعض البيوت. وبعد هذه الترتيبات، سأل الرسول ﷺ عن أقرب الجيران،

فجاء أبو أيوب الأنصاري وقال إن منْزله هو الأقرب، وإن كل ما لديه رهن لخدمة رسول الله، فطلب ﷺ منه أن يعد له غرفة في منْزله، وكان منْزل أبي أيوب مكوّنًا من طابقين، فعرض أن يسكن الرسول ﷺ الطابق الأعلى، ولكنه فضّل الطابق الأول، لأنه كان أيسر لزوّاره.

وتجلى الحب الشديد الذي يكنه أهل المدينة للرسول ﷺ مرة أخرى، إذ وافق أبو أيوب أن يدع الرسول ﷺ يسكن الدور الأول في منْزله، ولكنه رفض أن ينام على سقفٍ ينام رسول الله تحته. فقد رأى هو وزوجه في ذلك نوعًا من عدم اللياقة. وحدث أن انكسر إناء للماء فانساب منه الماء على الأرض، وخشي أبو أيوب أن يتساقط بعض الماء على الغرفة التي يشغلها الرسول ﷺ، فأخذ لحافه وجفف به الماء قبل أن يتسرب. وفي الصباح، زار أبو أيوب الرسول ﷺ وحكى له أحداث الليلة البارحة. وعندما سمع الرسول ﷺ، وافق أن يسكن الطابق العلوي. كان أبو أيوب يعدّ وجبات الطعام ويرسلها إلى فوق، فيأكل الرسول ﷺ ما يشاء، ويأكل أبو أيوب وزوجه ما يتبقى. وبعد أيام قلائل طلب آخرون أن ينالوا شرف استضافة الرسول ﷺ، وقد استضافه أهل المدينة إلى حين أن تم إعداد البيت الذي استقر فيه. وكانت هناك أرملة لها ولد وحيد يسمى "أنَسًا"، في الثامنة أو التاسعة من عمره، فجاءت بولدها إلى الرسول ﷺ وقدّمته له ليكون في خدمته الخاصة. وقد صار لأنَس هذا شأن كبير خلّده تاريخ الإسلام، فقد أصبح عالمًا عظيمًا كما صار غنيًا أيضًا، وعاش إلى أن بلغ من العمر مائة عام. وفي أيام الخلفاء كان يتمتع باحترام بالغ من كل

شخص. وقد رُوي عن أنسٍ أنه خدم الرسول ﷺ منذ كان صبيًا وحتى وفاة الرسول ﷺ، ومع ذلك فإنه لم يحدث قط أن عنّفه ولا لامه ولا كلفه يومًا بعمل لا يطيقه. وكان أنس خادمه الوحيد طوال إقامته بالمدينة. وتُبين شهادة أنس حقيقة خُلُق الرسول ﷺ في الفترة التي بدأ يباشر فيها السلطة ويتقلد السلطان في المدينة، وتنفتح له أبواب القوة والازدهار.

وفيما بعد، أرسل الرسول ﷺ زيدًا إلى مكة ليُحضر أسرة النبيّ وأقاربه. كان أهل مكة مذهولين بسبب مفاجأة هجرة النبيّ وأتباعه التي أُحكِم تنفيذها والتخطيط لها. ولبعض الوقت لم يفعلوا شيئًا يثير غضبه، وعندما غادرت أسرة الرسول مكة مع أسرة أبي بكر لم يثيروا لهم أية متاعب، ووصلت الأسرتان المدينة دون صعوبات. وفي ذلك الوقت، وضع الرسول ﷺ أساس المسجد في المكان الذي اشتراه لهذا الغرض، وبعد ذلك بني بيوتًا له ولبعض صحبه ورفقائه، وفي سبعة أشهر كان البناء قد تم.

الأخطار تحوم في المدينة

خلال أيام من وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، أوْلت القبائل المشركة هناك الكثير من الاهتمام بالإسلام، واعتنقته الغالبية منهم، ولكن كان فيهم الكثير ممن لم تستيقن قلوبهم بعد. وبهذا فقد انضمت إلى المسلمين طائفة لم تكن قلوبها مسلمة لله. وقد قام أفراد هذه الطائفة بأداء أسوأ الأدوار في التاريخ اللاحق، غير أن بعضهم تاب

وأصبح مخلصًا، ولكن الآخرين ظلوا علي غلّهم يكيــدون للإســلام والمسلمين. ولقد رفض بعض المشركين كلية أن ينضووا تحت لــواء الإسلام، و لم يطيقوا تحمل تزايد أثر الدين الجديد، فهاجروا من المدينة إلى مكة، وأصبحت المدينة بلدًا مسلمًا، وتم فيها تأسيس عبــادة الله الأحد. لم تكن هناك مدينة أخرى في العالم كله تستطيع أن تــدّعي ذلك الشرف، و لم تكن فرحة النبيّ وصحبه قليلة، أن يحــدث ذلــك خلال أيام قليلة من هجرتهم، وأن تقلع مدينة بأكملها عــن عبــادة الأصنام، وأن تؤسس بدلاً منها عبادة الله الأحد، الذي ليس كمثلــه شيء.

ولكن، لم يكن هناك سلام بعــد، و لم يســتتب الأمــن تمامًــا للمسلمين. ففي المدينة نفسها كانت هناك طائفة اعتنقــت الإســلام ظاهريًا فقط، وفي بواطنهم كانوا أعداء ألداء للرسول ﷺ. وكــذلك كان هناك اليهود الذين كانوا يكيدون له بلا توقف. وكان الرســول ﷺ يعي كل هذه الأخطار، فظل يقظًا، وحثّ أصحابه وأتباعــه أن يكونوا على حذر، وكان عادة يظل يقظًا طوال الليل (فتح البــاري ج ٦ ص٦٠). وأخيرًا طلب المساعدة ذات ليلة بسبب الإجهاد الذي أصابه من كثرة السهر، وعلى الفور سمع قعقعة سلاح، فسأل: "منْ هذا؟". فرد عليه المجيب قائلاً: "سعد بن أبي وَقَّاص يــا رســول الله جئــتُ أحرسك". (راجع البخاري ومسلم)

ولقد تحمّل أهل المدينة نصيبهم من المسئولية بأمانة وكفاءة. فقــد دعوا رسول الله أن يأتي ليقيم بينهم، وأصبح مــن واجبــهم الآن أن

يحموه ويذودوا عنه. فاجتمعت القبائل في المدينة، وقرروا أن يقوموا بحراسة داره مناوبة بينهم.

ولم يكن هناك من فرق كبير بين الأخطار التي كانت تحدق بحياة الرسول ﷺ في مكة والأخطار التي كانت تهددها في المدينة، وأيضًا لم ينعم أتباعه بالسلام في المدينة كما لم ينعموا به في مكة. وكان الفرق الوحيد هو أن المسلمين في المدينة كانوا يقومون بعبادة الله تعالى في المسجد الذي بنوه لعبادته ﷻ، فكانوا يجتمعون من أجل ذلك خمس مرات دون أن يتعرضوا للمنع أو الضرب. غير أن الأخطار ظلت تحوم في المدينة، وخاصة حينما يرخي الليل أستاره.

ومر شهران أو ثلاثة. وأفاق أهل مكة من ذهولهم، وبدأوا في وضع الخطط لمضايقة المسلمين، ولم يمض زمن طويل حتى أدركوا أن الاكتفاء بمضايقة المسلمين الذين بقوا في مكة ومن حولها لن يجدي شيئًا، وأنه لا بد أن يهاجموا النبيّ وصحبه في المدينة، ويدفعوهم إلى ترك ملجئهم الجديد. فوجّهوا خطابًا إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول، زعيم المدينة، الذي كان أهل المدينة قد أجمعوا على تنصيبه ملكًا قبل وصول الرسول ﷺ. وقالوا في هذا الخطاب إنهم صُدموا لوصول النبيّ إلى المدينة، وأن أهل المدينة ارتكبوا خطأ بالغًا بتوفير ملجأ له. وفي النهاية أقسموا بالله أنهم سيهاجمون المدينة مادامت قد آوت عدوّهم، إلا إذا طرده أهل المدينة أو قاتلوه. وأنهم حين يهاجمون المدينة فسوف يضعون السيف في كل الرجال، وسوف يسترقّون كل النساء. وجاء في سنن أبي داود، كتاب الخراج:

"إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا، وَإِنَّا نُقْسِمُ بِاللهِ لَتُقَاتِلُنَّهُ أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ، أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ ".

وخُيِّل لعبد الله بن أبي بن سلول أن في هذه الرسالة نجدة إلهية، فاستشار المنافقين الآخرين في المدينة، وأقنعهم أنهم لو تركوا النبيّ يعيش في سلام بينهم، فسوف يجلبون على أنفسهم عداء مكة، لذا لا بد من محاربته حتى ولو من أجل تهدئة أهل مكة. وعلم الرسول ﷺ بذلك، فذهب إلى عبد الله بن أبي بن سلول، وحاول إقناعه أن خطوة كهذه ستكون انتحارية، فكثير من سكان المدينة صاروا مسلمين، وهم على استعداد للتضحية بحياتهم من أجل الإسلام. فإذا أعلن عبد الله الحرب على المسلمين، فإن أغلبية أهل البلد سيقاتلون إلى جانب المسلمين، وحرب كهذه سوف تكلفه غاليًا، وسوف يكون فيها هلاكه هو بالذات. وتأثر عبد الله بهذه النصيحة، واقتنع بالعدول عن خطته.

وفي ذلك الوقت اتخذ الرسول ﷺ خطوة أخرى هامة. فقد جمع المسلمين، واقترح عليهم أن يشكل كل اثنين من المسلمين معًا رابطة تجمعهما كأخَوَيْن. وتقبّل المسلمون الفكرة بقبول حسن. فاتخذ الأنصارُ من أهل المدينة.. المهاجرين من أهل مكة إخوةً لهم. وفي ظل هذه الأخُوّة، عرض مسلمو المدينة على مسلمي مكة مشاركتهم في ثرواتهم وممتلكاتهم؛ حتى إن أحد مسلمي المدينة عرض أن يطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها أخوه المكّي المسلم. ورفض المهاجرون من أهل مكة هذه العروض الكريمة التي قدّمها إخوانهم من الأنصار، ولكن الأنصار

ظلوا على إصرارهم. وعُرض الأمر على الرسول ﷺ، واحتج الأنصار بأن مسلمي مكة هم إخوانهم، ومن ثم فلا بد لهم من مشاركتهم ما يملكون. وإن لم يكن المهاجرون يعلمون كيف يفلحون الأرض ويزرعونها، فيمكنهم مقاسمة الأنصار في غلة الأرض إن لم يملكوا الأرض نفسها. ورفض مسلمو مكة شاكرين هذا العرض السخي الكريم، وفضّلوا البقاء في مهنة التجارة. ولقد فتح الله تعالى للمهاجرين أبواب الرزق فصاروا أغنياء ثانية، ولكن ظل مسلمو المدينة يذكرون دائمًا أن عرضهم بالمشاركة مع المهاجرين في ما يملكون ظل قائمًا. وقد حدث مرارًا بعد أن مات واحد من الأنصار، أن قام أبناؤه باقتسام ممتلكاتهم مع من تآخوا معهم من المهاجرين. واستمر هذا التقليد معمولاً به لسنوات طويلة إلى أن أبطله الوحي القرآني بما جاءت به تعاليمه حول تقسيم الميراث (البخاري ومسلم).

إبرام معاهدة بين مختلف قبائل المدينة

وبالإضافة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، عقد الرسول ﷺ ميثاقًا يربط بين كل سكان المدينة، وبهذا الميثاق اتحد العرب واليهود مع المسلمين في مواطنة مدنية مشتركة. وشرح الرسول ﷺ للعرب واليهود أنهم قبل وجود المسلمين كانوا فريقين اثنين في بلدهم، والآن صارت الفرق ثلاثاً. ولذلك يتطلب الأمر أن يدخلوا معًا في اتفاق يربط الجميع، ويحقق للكل الاستقرار والسلام. وأخيرًا تم الوصول إلى اتفاق وكان يقول ما معناه:

هذا عهد بين رسول الله والمؤمنين به من جهة وبين كل الآخـــرين (من سكان المدينة) الذين رضوا بالدخول فيه.

إذا قُتل مسلم مهاجر فديّته تُدفع للمسلمين المهاجرين، وعلـــيهم تقع مسئولية فك أسراهم، وكذلك الأمر في كل قبائل المســـلمين في المدينة فيما يتعلق بالديّات وفك الأسرى.

كل من يثير العداوة أو يدعو للخصومة والفوضى سيعتبر عـــدوًا للجميع، وعلى الجميع واجب القتال ضده حتى ولو كـــان قريـــب أحدهم أو ولده، فلا يحميه والده ولا قريبه. وإذا قَتَل مسلم كافرًا في معركة فإن أقرباءه المسلمين لا يُطالَبون بانتقام، ولا يساعدوا كـــافرًا ضد مسلم.

ولليهود الداخلين في هذا الميثاق حق المعونة مـــن المســـلمين، ولا يكابدوا الصعوبات. ولا يُعان عدوّهم ضدهم.

ولا يقوم كافر بإيواء أيّ مكّي، ولا يقوم بحراسة ولا منع ممتلكات أهل مكة، ولا ينحاز إلى أيّ جانب في قتال يقـــع بـــين المســـلمين والكافرين.

وإذا أوذي مسلم وظلم بلا سبب، فمن حق المسلمين القتال ضـــد من اعتدَى، ولو هاجم العدوّ المدينة فإن اليهود سيقاتلون إلى جانـــب المسلمين ويتحمّلون معهم نفقات الحرب.

والقبائل اليهودية المتحالفة مع القبائل الأخرى في المدينة لهم نفـــس حقوق المسلمين، ولليهود دينهم أحرار. وللمسلمين دينهم أحرار. وما يتمتع به اليهود من حقوق فهي لأتباعهم.

مواطنو المدينة ليس لهم الحق في إعلان الحرب بدون أن يجيز الرسول ذلك، ولكن ذلك لا يجحف بحق فرد أن يعاقب فردًا قد أجرم في حقه.

واليهود سيتحملون تكاليف مؤسساتهم وتنظيمهم، وعلى المسلمين تحمل ما يخصّهم، ولكنهم في حال الحرب يشتركون كوحدة واحدة في تحمّل التكاليف.

وتُعتبر المدينة حرمًا آمنًا مقدسًا لا تُنتهك حرمته من الأطراف الموقّعة على هذا الميثاق.

وكل غريب يجيره ويحميه مواطن من أهل هذا الميثاق سيعتبر مواطنًا، ولا يحق لأهل المدينة أن يُدخلوا إليها امرأة لتصبح مواطنة بدون إذن أهلها، وكل خصام ونزاع فمردّه إلى الله وإلى الرسول.

أطراف هذا الميثاق متّفقون على مقاومة عدوّهم ولا يجوز الاتفاق مع أهل مكة وحلفائهم؛ ذلك لأن أطراف الميثاق متّفقون على مقاومة عدوهم المشترك.

المتعاهدون سيبقون متّحدين في الحرب والسلام على السواء، لا يدخل أحد منهم في سلام منفصل، ولا يسمح لطرف أن يتّخذ طرفًا آخر في حرب خاصة به.

كل من دخل في الميثاق وارتكب خرقًا له سيكون مُعَرَّضًا لعقاب الله، هو الوكيل وهو ناصر المتقين ومحمد نبيّه (انظر ابن هشام).

هذا هو الميثاق في عجالة، تم جمعه من نتف الروايات التي سـجلها التاريخ، وهو يؤكد دون شك أن الأسس الهادية في تسوية النّزاعـات والخلافات بين طوائف المدينة كانت أمينة وواقعية وعادلة.

وأولئك الذين خالفوا الميثاق وخرجوا عليه، تقع عليهم مسـؤولية المخالفات وما ترتب عليها. وقد أوضح الميثاق بجلاء أن الرسـول ﷺ كان يتعامل فعلاً بتمدّن وتعاطف مع جميع مواطني المدينة الآخـرين، وكان يحترمهم ويتعامل معهم كـإخوة. فـإذا كانـت النّزاعـات والصراعات قد حدثت بعد ذلك، فإن المسؤولية تقع على اليهود.

وكما سبق أن قلنا، مرّ شهران أو ثلاثة قبل أن يُعبّئ أهـل مكـة خططهم المعادية ضد الإسلام، وجاءهم الفرصة حين وصل سعد بـن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس إلى مكة ليطوف بالكعبة، فرآه أبو جهل فقـال له: "أتتوقعون أن بإمكانكم المجيء إلى مكة والطواف بالكعبة آمـنين بعد أن قدّمتم الحماية لهذا المارق محمد؟ أتظن أنك تستطيع منع محمد وإنقاذه؟ أقسم بالله أن هذا لن يكون، ولن تستطيع أن تعود لأهلـك سالمًا". فردّ سعد بن معاذ رضي الله عنه قائلاً: "خذها مني كلمة، لو منعتمونـا من الطواف بالبيت والحج، فلن تجدوا سلامًا في الطريق إلى الشام".

وحول هذا الوقت، مرض الوليد بن المغيرة مرضًا شديدًا، وهو أحد سادات مكة، وتوقع أن نهايته قد حانت. وكان سادات مكة الآخرون حول فراشه. ولم يستطع الوليد أن يتمالك نفسه فأخذ يبكي، فتعجب السادة الآخرون لبكائه، وسألوه عما يبكيه. فأجاب: "أتظنـون أني أخشى الموت؟ ليس الموت ما أخشاه، بل أخشى أن ينتشر دين محمد

وأن يتبعه الناس حتى تبايعه مكة نفسها". وعند ذلك أقسم له أبو سفيان أنهم سيقاومون هذا باذلين أرواحهم ضد انتشار هذا الأمر (الخميس جزء ١).

مشركو مكة يستعدون لمهاجمة المدينة

يتضح من هذا السّرد للأحداث أن هدوء عداوة مكة كان أمرًا مؤقتًا، إذ كان سادة مكة يستعدون لاستئناف الهجوم على الإسلام. لقد أخذ الزعماء الراحلون على هؤلاء الذين بقوا من بعدهم مواثيق مغلظة أن يظلوا على عداوة الرسول ﷺ مدى الحياة، واستنفروهم واستنهضوهم للحرب ضدّه وضدّ أتباعه. وقد حرّض مشركو مكة أهلَ المدينة على حمْل السلاح ضد المسلمين وطرْدهم من المدينة، كما أنذروهم بالهجوم على المدينة، وقتل رجالهم واستعباد نساءهم إن لم يفعلوا المطلوب. فلو كان الرسول ﷺ قد تنحّى جانبًا و لم يفعل شيئًا للدفاع عن المدينة، لكان قد فرّط في حق مسؤوليات جسام. ولذلك فقد أسّس الرسول ﷺ نظامًا للاستطلاع، فأرسل مجموعات من الناس إلى أماكن مختلفة حول مكة ليتعرّف علامات استعداد مشركي مكة للحرب. ومنذ وقت لآخر، كانت تقع بعض الحوادث والاشتباكات والمعارك بين هذه المجموعات وبين أهل مكة.

يقول الكُتّاب الأوربيون إنّ النبيّ هو الذي أشعل شرارة هذه الأحداث، وإذن فهو المسؤول عن الحرب التي نجمت بعد ذلك، ولذا فهو يُعتبر الطرف المعتدي. ولكن أمامنا ثلاثة عشر عامًا من طغيان

أهل مكة، ومن ثم مكائدهم لاستعداء أهل المدينة على المسلمين، والتهديد بالهجوم على المدينة نفسها. ولا يمكن لمن يضع كل هذا نصب عينيه أن يتّهم الرسول ﷺ بالمسؤولية عن إشعال الحرب. وإذا اضطر أن يرسل بعض السرايا للاستطلاع، فهذا دفاع عن النفس. إنّ ثلاثة عشر عامًا من الطغيان والاضطهاد والقتل والتعذيب كانت كافية لأن يتّخذ المسلمون كافة الوسائل للدفاع عن أنفسهم، وإذا نشبت الحرب بينهم وبين أهل مكة فإن المسؤولية لا تقع على عاتق المسلمين في ذلك.

إنّ الأمم المسيحية اليوم تعلن الحرب لأسباب أدنى وأوهن كثيرًا من ذلك، ولو أن نصف ما ارتكبه أهل مكة ضد المسلمين قد ارتكبه بلد في حق أحد الشعوب الغربية، لوجدوا فيه المبرر الكافي الذي يدفعهم لشنّ الحرب بسببه؛ فحين يقوم شعب في بلد ما بالتدبير والتخطيط والتعبئة الشاملة للقضاء على شعب آخر، وحين يُرغم شعبٌ ما شعبًا آخر على الخروج من دياره، ألا يعطى هذا للضحايا الحق في شنّ الحرب؟ إنّ المسلمين لم يكونوا في حاجة إلى سبب إضافي لشنّ الحرب على مكة بعد أن اضطرهم أهلها للخروج منها والهجرة إلى المدينة. ورغم ذلك فإنّ الرسول ﷺ لم يعلن الحرب. لقد أظهر تسامحًا، وقصر كل أنشطته الدفاعية على الاستطلاع فقط، بينما استمر أهل مكة في إثارة قلق المسلمين وإزعاجهم، وحرّضوا أهل المدينة ضدّهم، وتدخّلوا فمنعوهم حقهم في الحج، وغيروا طرق قوافلهم المعتادة، وبدأوا يندسّون في القبائل المحيطة بالمدينة ويحرّضونهم ضد المسلمين.

وتهدّد سلام المدينة. وهكذا صار واجبًا واضحًا على المسلمين أن يقبلوا التحدّي، تحدّي الحرب الذي كان أهل مكة يطرحونه طيلة أربعة عشر عامًا كاملة، وتحت هذه الظروف والملابسات لا يمكن لعاقل أن ينازع في حق المسلمين أن يقبلوا التحدّي.

وبينما كان الرسول مشغولاً في أعمال الاستطلاع، فإنه لم يهمل الاهتمام بتلبية الاحتياجات اليومية العادية والضرورات الروحانية لأتباعه في المدينة. وكان فيها غالبية عظمى من السكان قد صاروا مسلمين ظاهرًا وباطنًا، وبعضهم أظهر الإسلام فقط ولم يزد. وبدأ الرسول ﷺ يؤسّس الشكل الإسلامي للحكومة في المدينة.

وفي الأيام الخوالي، كان العرب يحسمون نزاعاتهم بالسيف أو بالعنف. وقد أدخل الرسول ﷺ نظام التقاضي، فعين القضاة للنظر في الدعاوى التي يقيمها الأفراد أو المجموعات بعضهم ضد الآخر. وما لم يُصدر القاضي إعلانًا بصحة الدعوَى فلا تُعتبر التهمة قائمة بعد. وفي الماضي كان العرب يزدرون المهن الذهنية، فاتخذ الرسول ﷺ خطوات لمحو الأمية وإشاعة الرغبة في التعليم، وطلب ممن يجيدون القراءة والكتابة أن يُعلموا الآخرين هذه الفنون. ووضع نهاية للظلم والقسوة، كما فرض القواعد لحفظ حقوق النساء. وتصدّق الأغنياء من أجل حاجات الفقراء وتحسين مستوى الحياة الاجتماعية للمدينة. وتمت حماية العمال من الاستغلال، ووُضعت التدابير لحفظ حقوق الورثة الضعفاء من اليتامى وتعيين الأمناء عليهم وعلى أموالهم. وبدأ تسجيل القروض بالكتابة، والتأكيد على الأهمية القصوَى للوفاء بالعهود. كما

تم إلغاء التجاوزات في معاملة العبيد، وتوَجّه الاهتمام بأمور النظافة الشخصية والصحة العامة، كما تم إجراء إحصاء للسكان. ومُهّدت الطرق والدروب وتم توسيعها، واتخذت الخطوات اللازمة للاحتفاظ بنظافتها. وباختصار، فإن العرب البدائيين، ولأول مرة في تاريخهم، بدأوا يخطون على درْب التهذيب والتمدّن.

غزوة بدر

كان أهل مكة يستعدون من أجل ترتيبات الحرب، وكان الرسول ﷺ يخطط من أجل وضع الترتيبات العملية وإرساء القواعد وسن القوانين التي لن تفيد مجتمعه وجيله الخاص من العرب فحسب، بل تفيد الإنسانية كلها، وعلى مدى التاريخ. وهكذا بينما كان الرسول ﷺ يخطط لإرساء القانون الذي يضع منهجًا للحياة يكون كفيلاً لأن يجلب السلام لقومه وللآخرين، ويفتح للجميع طريق المجد والتقدم، كان أعداؤه من أهل مكة على العكس من ذلك يخططون من أجل تحطيم ذلك المنهج، والقضاء على ذلك القانون. وقد ترتبت على خططهم نتائج وتداعيات، أثمرت ثمرتها في معركة بدر.

كان قد مرّ على الهجرة ثمانية عشر شهرًا. وكان أبو سفيان على رأس قافلة تجارية عائدة من الشام. وتحت مظلة الاحتجاج بحماية هذه القافلة، حشد أهل مكة جيشًا ضخمًا وقرروا تسييره إلى المدينة. وعرف الرسول ﷺ بهذه الاستعدادات، وجاءه الوحي من الله تعالى أن الوقت قد حان لسداد الدَيْن إلى العدو وبنفس الطريقة. خرج الرسول

ﷺ من المدينة ومعه عدد من أصحابه، و لم يكن أحد يعلم حتى هـــذا الأوان ما إذا كانت هذه الفئة المسلمة ستلقَى القافلة العائدة من الشام أو الجيش القادم من مكة، وكان عدد المسلمين حوالي الثلاثمائة.

لم تكن القوافل في تلك الأيام تقتصر على الإبل المحمّلة بالبضـــائع، بل كانت تشمل أيضًا جنودًا مسلحين يحرسون القافلة ويصـــحبونها خلال رحلتها. وعندما اشتد التوَتّر بين أهل مكة ومسلمي المدينـــة، أخذ سادة مكة يُولون عناية خاصة لتسليح القوة المرافقـــة للقوافـــل. وسجّلت الوثائق التاريخية حقيقة أن هناك قافلتين أخريين مرّتا علـــى هذا الطريق قبل فترة قصيرة، وبلغ عدد الحرس المـــرافقين في واحـــدة منهما مائتي رجل مسلح، وفي الأخرى ثلاثمائة.

وإنه لافتراض خاطئ أن نظن.. كما يفعل الكتّاب المسيحيون.. أن الرسول ﷺ أخذ معه ثلاثمائة من أتباعه وتوجّه بهم ليهاجم قافلة تجارية لا ترافقها قوة للدفاع؛ فإن هذا ظن فاسد وليس له أساس من الصحة. فتلك القافلة القادمة من الشام كانت ضخمة، وبالنظر إلى حجمهـــا وحجم الحراسة المسلحة التي ترافق القوافل الأخرى، كان من المتوقـــع أن تكون تلك القافلة في حراسة قوة كبيرة تتراوح بين أربعمائـــة أو خمسمائة من الحراس المسلحين المرافقين لها.

وإنه لمن الظلم البالغ الزعم بأن فئة قليلة من المســـلمين، قوامهـــا ثلاثمائة فرد ضعفاء التسليح، قد خرجوا بقيادة الرســـول ﷺ لمهاجمـــة وسلب قافلة جيدة التسليح كهذه. إن هذا تفكير المتحـــاملين علـــى الإسلام الذين لا يضمرون سوَى سوء النية المتعمّد بغير عقل أو منطق.

ولو كان رهط المسلمين قد خرج لمواجهة هذه القافلة وحدها فقــط، فإن مغامرتهم يمكن أن توصف بأنها مغامرة حرب؛ مع أنها كانت حربًا دفاعية. وسبب اعتبارها مغامرة؛ هو قلة عــدد المســلمين وضــعف تسليحهم مقابل ضخامة عدد أهــل مكــة وجــوْدة تســليحهم، واستعدادهم الطويل لشنّ العدوان على المسلمين في المدينة.

وفي الحقيقة، إن الظروف التي خرجت فيها هذه الفئة القليلة مــن المسلمين كانت أشد خطرًا. وكما أسلفنا، فإنهم لم يكونوا يعرفون ما إذا كانوا سيلقون القافلة العائدة من الشام أم سيضــطرون لمواجهــة الجيش القادم من مكة. وعدم وضوح الهدف أمامهم أدّى إلى حالــة "عدم اليقين" التي أشار إليها القرآن المجيد، وكان عليهم أن يتوقعــوا الأمريْن. وترجع مغادرة المسلمين للمدينة في ظل حالة عدم اليقين هذه إلى اطمئنانهم بالإيمان وإخلاصهم الصادق الذي لا حدود له. وبعد أن صاروا على مسافة من المدينة، أخبرهم الرسول ﷺ أنهم ملاقو الجيش الضخم القادم من مكة بدلاً من القافلة القادمة من الشام.

بلغت المسلمين أنباء متضاربة تتعلق بحجم جيش مكــة، وأقربهــا للحقيقة كان يحدّد العدد بألف، كلهم من المقاتلين المجهزين بالسلاح والمدربين على فنون الحرب. وكان العدد الذي صحب الرســول ﷺ يبلغ ثلاثمائة وثلاثة عشر ليس إلا، منهم كثيرون بلا خبرة ولا تدريب، وأغلبهم ضعيف التسليح، وكانت الجمهرة الكبرى منهم يمشون على أقدامهم أو محمولون على إبل، وليس عندهم جميعًا سوى فرسين.

لقد اضطرت هذه الفئة القليلة التي كانت تفتقر إلى أسلحة الحرب وخبرة القتال إلى مواجهة قوّة تبلغ ثلاثة أمثالها في العدد، تتكـوّن في غالبيتها من مقاتلين مدرّبين ذَوي حنكة وخبرة. وإنه لمن الواضح تمامًا أن اتخاذ قرار بهذه المواجهة كان أكثر القرارات التي تم اتخاذها علـى الإطلاق في خطورتها على مدى التاريخ كله.

وكان الرسول ﷺ من الحكمة بحيث يتأكد أن لا يشترك أحـد في المعركة القادمة بغير علم سابق، أو دون أن تكون موافقته نابعة مـن صميم قلبه وإرادته الحرة. فأخبر أصحابه بوضوح أنهـم لم يعـودوا يواجهون احتمال لقاء القافلة، بل هو جيش مكة الآن، وسأل النـاس المشورة. وقام الواحد تلوَ الآخر من المهاجرين يؤكدون للرسـول ﷺ ولاءهم وحماسهم وتصميمهم على القتال ضد جيش مكة، الذي جاء ليهاجم مسلمي المدينة في وطنهم وبيوتهم. وكرّر الرسول ﷺ طلـب المشورة بعد كل مرة يستمع فيها إلى واحد من المهـاجرين. وكـان الأنصار من أهل المدينة صامتين حتى الآن، فالمعتدون كانوا من مكة، وتربطهم روابط الدم بكثير من هؤلاء المهاجرين الذين كانوا يشكلون جزءاً من هذه الفئة القليلة. وقد خشي الأنصار أن يقولوا شـيئًا قـد يجرح مشاعر إخوانهم المهاجرين، إذا أظهروا رغبتهم وحماستهم لقتال أهل مكة.

ثم قال رسول الله ﷺ: "أشيروا عليّ أيها الناس"، وكـان يقصـد الأنصار، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما

نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألا يكون الأنصار يرون أنّ عليهم نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. ولكن عندما أصرّ رسول الله على تكرار طلب المشورة، قال له سعد بن معاذ ﷺ: "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟". قال: "أجل". قال: "لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقَى بنا عدوّنا غدًا. إنَّا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء. لعل الله يريك منّا ما تقر به". وقام أيضًا من الأنصار المقداد بن عمرو ﷺ فقال: "يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه". (انظر البخاري كتاب المغازى، وابن هشام).

كانت تلك هي روح الحب والتضحية التي أظهرها المسلمون الأُوَل، والتي لم يوجد لها مثيل في تاريخ العالم كله. لقد ذكرنا سابقًا مَثَل أصحاب موسى عليه السلام، وكيف رفضوا قتال العدو. وهكذا كان حال حواريي المسيح عليه السلام، الذين تركوه في أحرج المواقف، إذ خانه أحدهم وأسلمه لقاء مبلغ حقير، وأنكره الآخر وصبّ عليه اللعنات،

بينما لاذ الباقون بالفرار في ساعة العسرة. أما المسلمون من الأنصار في المدينة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ، فلم يكن قد مضى على صحبتهم له سوى عام ونصف، ومع ذلك فقد بلغوا تلك القوّة التي لا مثيل لها في عالم الإيمان، بحيث لو أمرهم الرسول ﷺ أن يلقوا بأنفسهم في خضمّ البحر لكانوا طوْع أمره دون أيّ تردد. لقد حصل الرسول ﷺ على المشورة التي طلبها، ولكنه لم يكن لديه أدنى شك في حب أتباعه وصدق إخلاصهم. لقد طلب المشورة ليغربل منهم الضعيف ويقصيه بعيدًا، فوجد المهاجرين من أهل مكة، والأنصار من أهل المدينة، وكل منهم يباري الآخر في التعبير عن الحب والتضحية، وكلاهما قد صمّم ألا يولي العدو دبره، حتى ولو كان العدو يفوقهم في العدد أضعافًا ثلاثة، وكان أفضل منهم كثيرًا في السلاح والعتاد، وأشد منهم خبرة بفنون القتال. لقد وضعوا كل ثقتهم في وعد الله ﷻ، وأظهر كل من الأنصار والمهاجرين معًا عظمة تقديرهم للإسلام، وقدّموا أرواحهم ومهجهم للدفاع عنه.

وتقدم الرسول ﷺ بعد أن تحقّق من إخلاص كل من مسلمي مكة والمدينة، حتى بلغ مكانًا يسمى بدرًا، فأخذ بمشورة أحد صحابته وأمر رجاله أن يعسكروا قريبًا من ماء بدر. وقام المسلمون بتأمين مصدر المياه هذا، غير أن منطقة الأرض التي كانوا عليها كانت رملية لا تثبت عليها الأقدام حين تقتضي المعركة المناورات بين الرجال، وأظهر الصحابة قلقهم الطبيعي لهذا العيب الذي يشوب المكان، وشاركهم الرسول ﷺ القلق، فأمضى الليل كله يدعو ربه:

"اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض أبدًا" (راجع الطبري).

سمع الله تعالى تضرع نبيّه، ونزل المطر أثناء الليل، فأصبح الجزء الرملي من الميدان الذي كان يشغله المسلمون رطبًا ومتماسكًا، أما الجزء الآخر الذي نزل به العدو فأصبح طينيًّا زلقًا. ولعل الأعداء من أهل مكة قد اختاروا هذا الجزء وتركوا الجزء الرملي للمسلمين عمدًا، لأن عيونهم الخبيرة فضّلت الأرض الجافة لتسهيل حركة المشاة والفرسان. ولكن الله قلب عليهم الطاولة في الوقت الدقيق المحكم. لقد تصلبت المنطقة الرملية التي كان عليها المسلمون بفعل المطر ليلاً، وأوْحلت المنطقة الصلبة التي كان عليها أهل مكة وصارت مزلقة للأقدام. وخلال الليل، تلقّى رسول الله إشارة من ربه ﷻ أن رءوسًا مهمّة من رجال العدوّ ستلقَى حتفها. بل لقد أُوحي إليه بأسماء الأشخاص، وأُوحي إليه بالمواضع التي سيلقون فيها مصرعهم. ولقد هلكوا كما سماهم ﷺ، وسقطوا حيث سبق وأخبر به.

وعندما دارت المعركة ذاتها، أظهرت هذه الفئة القليلة من المسلمين جسارة عجيبة وتفانيًا رائعًا. ولتوضيح ذلك، نكتفي بذكر حادثة واحدة، حدثت لأحد قادة المسلمين ويسمى عبد الرحمن بن عوف ﷺ؛ وهو أحد سادات مكة، وواحد من الجنود القليلين في جيش المسلمين الذين لهم خبرة بفنون القتال. وعندما بدأت المعركة، التفت عن يمينه وشماله ليرى نوع المساندة التي لديه، فلم يجد لدهشته سوى فتيَين حديثي السن من الأنصار. دقّ قلبه وقال لنفسه: "إن كلّ قائد

يحتاج عونًا على جانبيه، وأنا أحوَج إلى العوْن في يومي هذا، ولكـــن ليس لديّ إلا فَتَيَان عديما الخبرة، فماذا أفعل بهما"؟ وما كـــاد عبـــد الرحمن ينتهي من حديث النفس هذا، حتى لمس أحدُ الفتيين كوعَـــه، فمال إليه ليسمع ما يُسرّ به الفتى، فقال الفتى: "يـــا عـــمّ، أرني أبـــا جهل". ويروي عبد الرحمن القصة فيقول: "قلت، يا ابن أخي فمـــاذا تصنع به؟". قال: "أُخبرت أنه يسبّ رسول الله، فوالذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا"، فتعجبت لذلك. وغمزني الآخر فقال لي مثلها. فلم أنشب أن نظـــرت إلى أبي جهل يجول في الناس. فقلت: "ألا تريان، هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه". وأشار لهما عبد الرحمن بإصبعه إلى رجل مدجّج بالسلاح، يقف خلف الصفوف، يحيطه حرس شاهربن سيوفهم من جانبيه. ومـــا إن خفض عبد الرحمن أصبعه التي أشار بها حتى انقـــض الفتيـــان علـــى صفوف العدو في سرعة النســـر مـــتجهين إلى هـــدفهما المنشـــود كالصاعقة، وكان الهجوم مفاجئًا أذهل الجنود والحراسة المحيطة بـــأبي جهل فهاجموا الفتيين، وفقد أحدهما ذراعه، غير أن ذلـــك لم يـــوهن منهما و لم يثنهما عن عزمهما، فهاجما أبا جهل بعنف ساحق، وسقط قائد مكّة الكبير على الأرض مصابًا بجراح خطيرة أصابت منه مقتلاً. ومن هذه الروح العالية من التصميم والإصرار التي كانت تملأ قلـــبيْ هذيْن الصبيين، يمكن للمرء أن يدرك مدى التأثر العميق الذي شعر به صحابة الرسول ﷺ، الصغير منهم والكبير، بأخبار الاضطهاد الفظيع، والتعذيب الوحشي الذي تعرّض له رسول الله وأتباعه.

إننا نقرأ عن هذا التعذيب فقط في التاريخ، ومع ذلك نتأثر بعمق، ولكن مسلمي المدينة سمعوا الوقائع من شهود العيان الذين حكوا عن الممارسات الوحشية العديدة، ويمكننا أن نتخيّل جيدًا كيف أحسّوا بمعاناة إخوانهم. لقد سمعوا عن وحشية المشركين من أهل مكة من ناحية، ومن ناحية أخرى سمعوا عن حلم الرسول ﷺ وصبره عليهم، فلا عجب أن كان تصميمهم بالغًا، كي يقتصّوا للجرائم التي ارتُكبت في حق الرسول ﷺ والمسلمين الضعفاء في مكة. لقد انتظروا الفرصة السانحة ليخبروا أهل مكة الذين عذبوا المسلمين، أن المسلمين لم ينتقموا منهم ليس بسبب عجزهم عن ذلك، ولكن بسبب أن الله تعالى لم يكن قد أذن لهم بعد.

ويمكن أن نتصوّر مدى شدة تصميم هذه القوّة الصغيرة المسلمة على القتال المستميت من حادثة أخرى. فقبل أن ينشب القتال، أرسل أبو جهل أحد قادة البدو، وكان عُمير بن وهب الجمحي، إلى جهة المسلمين ليأتي له بتقدير لعددهم. فعاد ذلك القائد وأخبره أن عدد المسلمين كان ثلاثمائة أو يزيدون. وملأ السرور أبا جهل وأتباعه، وظنوا أن المسلمين سيكونون فريسة سهلة. ولكن القائد البدَوي أكمل حديثه فقال: "ولكن نصيحتي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم. لأن كل واحد منهم قد جاء يتمنى الموت، إني لم أر رجالاً، بل رأيت الموت محمولاً على ظهور الإبل"، أو كما جاء في الأثر عنه أنه قال: "نواضح

يثرب تحمل المنايا" * (الطبري وابن هشـــام). ولقد صدق حدس القائـــد البدَوي، فالذين هم على استعداد لمجابهة الموت، ليس من الســـهل أن ينال الموت منهم.

نبوءة عظمى تحققت

اقترب موعد المعركة، فأطل الرسول ﷺ من عريش كان قد نُصب له ليصلي فيه، وقال معلنًا:

﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾

كانت هذه هي الكلمات التي سبق أن أوحيت إليه في مكة مـــن قبل، وكانت تخص هذه الموقعة. فحين بلغت وحشية مكـــة أقصـــى الحدود، وراح المسلمون يهاجرون إلى الأماكن الـــتي يســـتطيعون أن يجدوا فيها الأمان، تلقى الرسول ﷺ من ربه الوحي التالي الذي تضمنه هذه الآيات:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ۝ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ۝ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِـــي ضَـــلالٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَـــقَرَ﴾ (القمر:٤٢-٤٩)

---

* *النواضح جمع ناضح وهو البعير، ويثرب اسم المدينة المنوّرة قبل الإسلام (المترجم)*

هذه الآيات جزء من سورة القمر، وقد نزلت هذه السورة طبقًا لكل الروايات في مكة، وحدّد المفسرون المسلمون التاريخ الذي نزلت فيه بين السنة الخامسة والعاشرة من بعثة الرسول ﷺ، أي بثلاث سنوات قبل الهجرة من مكة إلى المدينة، والاحتمال الأقرب هو ثماني سنوات قبل الهجرة. ويتفق الباحثون الأوربيون مع هذا الرأي، إذ يرى "نولدكه" أن السورة كلها نزلت بعد السنة الخامسة للبعثة، ولكن وِيرِي يرى هذا التاريخ مبكرًا قليلاً، إذ يرى أن السورة قد نزلت بين السنة السادسة والسابعة قبل الهجرة أو بعد البعثة. وهكذا يتّفق كل المفسرين المسلمين وغير المسلمين على أن السورة نزلت قبل الهجرة بعدة سنوات. إن قيمة الأنباء الغيبيّة المذكور في الآيات الكريمة فوق كل شبهة واختلاف؛ فهي تحمل إشارة واضحة إلى ما يخبئه القدر لأهل مكة في معركة بدر، وقد جاء بوضوح نبأ المصير الذي هم منْزلقون إليه. وعندما أطلّ الرسول ﷺ من العريش، كرّر ذكر شرح النبأ الغيبي الوارد في السورة، ولا بد أنه قد تلقى من الله تذكيرًا بهذه الآيات خلال صلاته في العريش، وبتلاوته إحداها فقد ذكّر صحابته أن الساعة الموعودة في السورة قد حانت.

وفعلاً كانت الساعة قد حانت، كما سبق أن تنبأ بها إشعياء النبيّ (٢١: ١٣-١٧). لقد بدأت المعركة، مع أن المسلمين لم يكونوا على درجة الاستعداد المطلوبة، ورغم أن مشركي قريش تلقوا النصح ألا يتورطوا فيها. كان هناك ثلاثمائة وثلاثة عشر من المسلمين، أغلبهم لا خبرة لهم و لم يتعوّدوا القتال، وجميعهم تقريبا بلا عدّة، يواجهون عدوًا

يبلغ ثلاثة أمثالهم عددًا من الجنود، كلهم من المقاتلين المتمرّسين. وفي ساعات قلائل لقيَ العديد من زعمائهم البارزين حتفهم، تمامًا كما تنبأ إشعياء النبي، حيث قال: "يفنى كل مجد قيدار"، وفرّ جيش مكة في عجلة بائسة، تاركًا خلفه قتلاه وبعض الأسرى.

ومن الأسرى كان العباس، عم الرسول ﷺ الذي كان يسانده عادة عندما كان في مكة، وقد أُرغم على الانخراط في جيش مكة، وقتال النبيّ. وأسير آخر هو أبو العاص، زوج ابنة الرسول ﷺ. ومن القتلى كان أبو جهل، القائد الأعلى لجيش مكّة، وكان بحق رأس أعداء الإسلام.

وجاء النصر، ولكنه أتى معه بكثير من الأحاسيس المختلطة للرسول ﷺ. لقد فرح بتحقق وعود الله المتكررة خلال أربعة عشر عامًا خلت، وعود جاء ذكرها أيضًا في كتب بعض الأديان السابقة، ولكن أصابه الحزن على المأزق الذي حلّ بأهل مكة، فما أشقاها تلك النهاية التي آل حالهم إليها. ولو كان شخص آخر غيره قد حقق هذا النصر لقفز فرحًا وسرورًا، ولكن منظر العباس أمامه مقيد الأرجل مغلول اليدين أسال الدمع من عيني الرسول ﷺ ومن عين صديقه المخلص أبي بكر رضي الله عنه. لقد رأى عمر رضي الله عنه ذلك المنظر أيضًا، ولكنه لم يستطع أن يفهم السبب في بكاء النبي وأبي بكر بعد أن تحقق النصر. كان عمر متحيرًا، ولذا تجاسر ليسأل الرسول ﷺ: "لم البكاء يا رسول الله وقد منّ الله عليك بهذا النصر العظيم؟ فإن كان لابد من البكاء بكيت معك، أو تباكيت على الأقل". فأشار الرسول ﷺ إلى بؤس الأسارى من أهل

مكة، ذلك البؤس الشديد الذي يُرثى له، فهذا ما يؤدّي إليه عصـــيان الله تعالى.

لقد تكلم إشعياء النبي مرارًا وتكرارًا عن عدل هذا الرسول العظيم، الذي خرج ظافرًا من معركة قاتلة. وقد ظهر مصداق ذلـــك بجـــلاء ووضوح في هذه المناسبة. وفي أثناء العودة إلى المدينة، استراح الرسول ﷺ ليلة في الطريق، ولكن صحابته المخلصين رأوه يتقلب على جانبيه ولا يستطيع النوم، إذ كان العباس بالقرب منه يرســـف في قيـــوده. وخمنوا أن السبب في أرق الرسول ﷺ هو صوت عمه العباس الـــذي يئنّ على مسمع منه وقيوده مشدودة باعتباره أسير حرب، فخفّفوا من وثاق العباس ليكف عن الأنين. وراح الرسول ﷺ في النوم بعـــد أن كفّ أنين العباس عن إزعاجه. لكنه بعد قليل نهض وسأل متعجبًا، لِمَ لَمْ يعد صوت العباس مسموعًا؟ ولعل الرسول ﷺ ظن أن عمه قد فقد الوعي، ولكن الحراس من صحابته صرّحوا له أنهم أرخوا قيود العباس قليلاً كي يستطيع الرسول الحصول على قسط من النوم. فـــرفض ﷺ أن يُظلم أحد من الأسرى بالتفرقة بينه وبين غيره، وذكر لهم أنـــه إذا كان العباس من أقربائه، فإن الآخرين كذلك أقرباء لآخرين منـــهم، وعلى ذلك ينبغي عليهم أن يرخوا القيود عن كل الأسرى أو يشدّوها على العباس مثل الباقين. وقد استمع الصحابة لهذه اللفتة، وقرروا أن يرخوا القيود عن كل الأسرى، وتحملوا هم على عاتقهم مســـؤولية الحراسة الآمنة لهم.

أما عن الأسرى، فمن كان بينهم من القارئين الكاتبين فقد نـالوا وعدًا باسترداد حريتهم إن هم علّموا عشرة صبية من أبناء المهاجرين القراءة والكتابة، وكانت هذه فديتهم مقابل الحرية. وأما الذين لم يكن لهم من يدفع فديتهم، فقد وُهبوا حريتهم عندما سألوها. وأما الـذين أمكنهم دفع الفدية، فقد نالوا الحرية بعد دفع ما عليهم. وبتحرير كل الأسرى بهذه الطريقة، وضع الرسول ﷺ نهاية للممارسات الوحشـية التي كانت تحوّل أسير الحرب إلى عبد مملوك.

غـزوة أُحُـد

بعد فرار جيش مكة من المعركة في بدر، عادوا فأعلنوا عن نيّتـهم في مهاجمة المدينة ثانية لينتقموا لأنفسهم من المسلمين لما عانوه في هذه المعركة. وبعد عام واحد شنّوا هجومهم وهم في عدّة تامـة. لقـد أحسوا بالمهانة وبالعار حتى إن رؤساء مكة حرّموا على أقرباء الـذين لقوا مصارعهم في بدر أن يبكوا حدادًا وحزنًا عليهم. وقرروا كذلك أن تساهم أرباح القوافل التجارية في ميزانية الحرب. وهكذا هـاجم المدينة جيش من ثلاثة آلاف مقاتل، كاملي العدة والعتاد والاستعداد تحت قيادة أبي سفيان. وعقد الرسول ﷺ اجتماعًا للمشورة، وسـأل أتباعه ما إذا كانوا يلقون العدوّ في المدينة أو خارجها، وكـان هـو يُفضل البقاء في المدينة، وأن يأتي العدو المهاجم إليهم في وطنهم، فيضع بذلك مسؤولية العدوان على العدوّ. ولكن تلك الخطة لم تكن مقبولة لدى كثير من المسلمين الذين لم تتح لهم فرصة المساهمة في غزوة بدر،

وكانوا في شَوق للقتال في سبيل الله، وأرادوا أن تتاح لهم فرصة قتال مباشر مفتوح، لعلهم ينالون شرف الشهادة في سبيل الله.

وقَبِل الرسول ﷺ رأيَ الأغلبية، وبينما كان هذا الجـــدل جاريًـــا رأى الرسول رؤيا بشأنه، قال:"إني رأيت بقرًا لي تـــذبح ورأيـــت في ذباب سيفي ثلمًا ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، ورأيـــت كأنني أمتطي كبشًا". وسأله الصحابة عن تفسير ذلك فقال ﷺ: "أمّا الدرع الحصينة فالمدينة، وأما انفصام سيفي فأوّلتها أحدًا من أهل بيتي يُقتل أو يموت، وأما البقر المذبح فقتل في أصحابي، وأما الكبش الذي أركب فأوّلته كبش القوم – أي قائدهم – يقتله الله إن شاء الله" (انظر البخاري وابن هشام والطبقات الكبرى).

وكان واضحًا من هذه الرؤيا وتفسيرها أن البقاء في المدينة أفضـــل للمسلمين، غير أن الرسول ﷺ لم يصرّ على ذلك، لأن تفسير الرؤيـــا كان من اجتهاده ولم يكن وحيًا تلقّاه، فقَبِـــل رأيَ الأغلبيـــة وقـــرر الخروج للقاء العدو. وبينما هو يعدّ عدّته، راجعت الفئة الأكثر حماسة من أصحابه أنفسهم، وقالوا للرسول ﷺ بعد أن أدركوا خطأهم: "يا رسول الله، إن ما أشرت أنت به علينا لأحسن، يجب علينا البقـــاء في المدينة ونلقَى العدوّ في طرقاتنا". فرد عليهم قائلاً: "لا ينبغي لـــنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. فـــانظروا مـــا أمرتكم به فافعلوه وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم". (انظر البخاري والطبقات الكبرى)

ومضى الرسول ﷺ في قوّة مؤلفة من ألف جندي، وعسكروا على مسافة قليلة من المدينة ليلاً. وكان من عادة الرسول ﷺ أن يدع قوّاته المقاتلة تستريح قبل لقاء العدو، وفي صلاة الفجر رأى الرسول ﷺ بعض اليهود وقد انضموا للمسلمين، وزعموا أن لهم معاهدات مع قبائل المدينة، ولأنه كان على معرفة بكيد اليهود فقد صرفهم ليعودوا. وعند ذلك انسحب عبد الله بن أبيّ بن سلول زعيم المنافقين مع ثلاثمائة من أتباعه قائلاً إن جيش المسلمين أضعف من أن يقوم لعدوّه، وإن دخول المعركة صار موتًا مؤكدًا، وإن الرسول أخطأ عندما أعاد الحلفاء اليهود إلى المدينة. ونتيجة لهذا الانسحاب الذي تم في اللحظة الأخيرة، فقد تبقّى تحت قيادة الرسول ﷺ عدد لا يتعدّى السبعمائة مسلم، كان عليهم أن يتصدّوا لجيش يفوق أربعة أمثالهم، وأما الفرق بينهما في العدة والسلاح فيفوق أضعاف الفرق في العدد. كان في جيش مكة سبعمائة مقاتل يرتدون الدروع، ولم يكن لدى المسلمين سوى مائة مدرع، وكان جيش مكة يحوي مائتي فرس، بينما لا يملك المسلمون سوى فرسين.

وبلغ الرسول ﷺ منطقة أُحُد، وعلى ممر مرتفع فوق التلال هناك، وضع خمسين من جنده من الرماة لحراسة الممر، وكلفهم بواجب واضح وهو منع أيّ هجوم على جيش المسلمين من هذا المكان، ومنع استيلاء العدوّ عليه. وأبلغهم الرسول ﷺ بمهمتهم في جلاء، وأنّ عليهم البقاء صامدين في مكانهم وألاّ يتزحزحوا عنه حتى يأتيهم الأمر أن يفعلوا، بصرف النظر عما يحدث للمسلمين. ثم ذهب الرسول ﷺ

ليخوض معركته مع ٦٥٠ من الجنود الباقين ضد جيش يفوقهم عددًا بخمسة أمثالهم تقريبًا، ولكنهم بعوْن الله وفي وقت قصير، شتّتوا جيش العدوّ الذي يتكوّن من ثلاثة آلاف جندي، وراحوا يطاردونهم بعد أن انسحبوا مسرعين.

كان موقع الممر الذي يحرسه الجنود الخمسون خلف ميدان المعركة، فقال الحرس لقائدهم إنّ العدوّ قد هُزم، وهذا وقت الاشتراك في المعركة لنوال الثواب في الآخرة. فأوقفهم القائد، وذكّرهم بأنّ أمر الرسول ﷺ كان واضحًا، ولكن الرجال فسّروا الأمر بمعناه وليس بحرفيته، فلا معنى للاستمرار في الحراسة بعد هروب العدوّ لينجو بحياته.

النصر يتحول إلى الهزيمة

وبناء على فهمهم هذا ترك الحرّاس الممر، وغاصوا في خضمّ المعركة. وكان خالد ابن الوليد.. الذي صار فيما بعد قائدًا عظيمًا من القادة المسلمين.. ضمن جيش مكة المنسحب. وبعينه الفاحصة الحادة لاحظ الممر المهجور، و لم يكن هناك الآن سوَى قلة من الرجال يحرسونه. ونادى خالد على عمرو بن العاص، وهو قائد آخر في جيش المشركين، وطلب منه استطلاع الممر الخلفي، ففعل عمرو ورآها فرصة العمر. وأوقف كل من القائديْن رجالهما المسارعين بالفرار، وانطلقوا يتسلقون الجبل، وقتلوا المسلمين القلة الباقين في الحراسة، ثم بدأوا في الهجوم على المسلمين من موقعهم البارز المتميّز.

وإذا بجيش مكة المنكسر يجمع شتاته ثانية، بعد سماعه لصرخات الحرب الصادرة من رجاله المهاجمين، وعادوا إلى ميدان المعركة. وكان وقْع الهجوم على المسلمين مفاجئًا، إذ كانوا قد تفرّقوا في أنحاء الميدان خلال مطاردتهم لجيش مكة، فلم يتمكن المسلمون من جمع شتاتهم لمقاومة هذا الهجوم الجديد، ولم يكن سوى بعض الأفراد من المسلمين يناجزون العدو، بينما سقط الكثير منهم صرعَى وهم يقاتلون، وتقهقر الباقون، بينما صنعت قلة تبلغ عشرين رجلاً من المسلمين سياجًا من أجسادهم حول الرسول ﷺ. وهاجم جيش مكة هذه الحلقة المحيطة بالرسول بشراسة، وتحت ضربات سيوفهم تساقط المسلمون المحيطون بالرسول الواحد بعد الآخر، ومن قمة الجبل أطلق الرماة وابلاً من السهام. وفي ذاك الوقت، لاحظ "طلحة" ﷺ وهو مسلم قرشي من المهاجرين، أن سهام العدو كانت جميعًا مصوّبة نحو وجه الرسول ﷺ، فمد يده وستر بها وجهه الشريف. كانت السهام تصيب يده الواحد تلو الآخر ومع ذلك لم تتزحزح ولم تنخفض، مع أن السهام كانت تخترقها مع كل رمية، وتشوّهت اليد إلى أقصى حد، وهكذا فقد طلحة يده، وظل طوال ما بقي من حياته يسعى بيد مشوّهة مشلولة. وفي زمن الخليفة الراشد الرابع للإسلام عندما نشبت فتنه داخلية بين المسلمين، عيّر طلحة ﷺ أحدُ خصومه بأنه "مقطوع اليد"، فأجاب عنه صديق له قائلاً: "مقطوع اليد؟ نعم، ولكن هل تعلم أين فقد طلحة يده؟ في موقعة أُحُد، حيث رفع يده ليحمي بها وجه رسول الله من سهام العدو".

وبعد زمن من معركة أُحُد، كان أصحاب طلحة رضي الله عنه يسألونه: "ألم يكن وقع السهام يَخز يدك ويجعلك تصرخ من الألم؟ فردّ طلحة: لقد كانت تخزني بالألم وتكاد تجعلني أصرخ، لكنني قاومت الألم والصراخ لأنني كنت أعلم أن يدي لو اهتزت عن مكانها قليلاً لتعـرّض وجـه رسول الله لوابل من سهام العدو".

إن الرجال القلائل الذين بقوا مع الرسول ﷺ لم يكـن لهـم أن يقاوموا الجيش الذي يواجهونه، فتقدّم قسم من العدوّ ودفعهم بعيـدًا فكشفهم عنه، وإذ ذاك وقف الرسول ﷺ وحده كسدّ منيع، فتعاورته الأحجار حجرًا بعد حجر، الأوّل أحدث به جرحًا عميقًا في جبهته، والثاني جعل حلقتي المغفر تدخلان في خده، وبينما كانـت السـهام تتساقط غزيرة متسارعة والرسول ﷺ مثخن بالجراح إذا به يـدعو الله قائلاً: "ربِّ اغفر لقوْمي فإنهم لا يعلمون" (مسلم، كتاب الجهاد والسـير). ثم انحنى حزينًا ينظر إلى الموتى الذين فقدوا حياتهم وهم يدافعون عنه، وعاد بعض المسلمين ليدفعوا عنه الهجوم المتزايد، فسـقطوا صـرعَى كذلك، وخرّ رسول الله مغمًى عليه بين هذه الأجسـاد الصـريعة، وعندما رأى العدوّ ذلك حسبوه ميّتًا، فانسحبوا متيقّنين أنهم حققـوا النصر المرغوب.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بين المسلمين الذين دفعهم الهجـوم العنيف وأبعدهم عن الرسول ﷺ أثناء دفاعهم عنه. وكانت سـاحة المعركة قد خلت إلا من الغبار الذي ظل يتطاير في الهواء، وأجسـاد القتلى التي ظلت ملقاة على الأرض، فاستيقن عمر أن رسول الله قـد

مات لما رأى ذلك المنظر. كان عمر ﷺ شجاعًا، وقد أثبت ذلك مرارًا، وكان أفضل إثبات لذلك هو قتال إمبراطوريتين في نفس الوقت؛ الروم والفرس، ولم يجفل أبدًا أمام الصعوبات ولا اهتز أمام الشدائد. ومع ذلك، فإن عمر هذا جلس على حجر مبتئسًا، وقد نكّس رأسه، وراح يبكي مثل الطفل الصغير. وفي تلك الأثناء جاء أحد المسلمين، وكان اسمه أنس بن النضر ﷺ، وقد تصوّر أن المسلمين قد حققوا النصر، فلقد رآهم يتغلبون على العدوّ، فانسحب من الميدان إذ لم يكن قد ذاق طعامًا منذ ليلة الأمس، ثم عاد ومعه بضع تمرات في يده. وحالما رأى عمر باكيًا توقّف في عجب وسأله: يا عمر ماذا حدث لك حتى إنك تبكي بدلاً من أن تفرح بالنصر العظيم الذي ظفر به المسلمون؟

رد عمر قائلاً بما معناه: "إنك لا تدري ماذا حدث يا أنس، لقد رأيتَ الجزء الأول من المعركة، ولا تعلم أنّ العدوّ انتهز الفرصة واحتلّ الجبل وهاجمنا بعنف شديد. لقد تفرّق المسلمون بعد أن تصوّروا أنهم انتصروا، ولم يجد العدوّ مقاومة إلا من رسول الله ﷺ وحفنة من حرّاسه الذين صمدوا ضد جيش كامل، وسقطوا جميعًا صرعى وهم يقاتلون". فقال أنس متسائلاً: "إن كان هذا هو الحق، فما بقاؤنا هنا نبكي؟ فلنذهب إذًا حيث ذهب إمامنا". كانت التمْرات الأخيرة في يد أنس وكان على وشك أن يضعها في فمه، ولكنه رمى بها بعيدًا قائلاً: "لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه لتكونن حياة طويلة، والله إني لأجد ريح الجنة". ثم استل سيْفه وألقَى بنفسه في صفوف العدوّ، فكان

بمفرده في مواجهة جيش بأكمله من ثلاثة آلاف. لم يستطع أن يفعل الكثير، ولكن روحًا مؤمنة أعظم وأقوَى من جمع غفير. وقاتل أنس ﷺ بشجاعة، وسقط في النهاية جريحًا، ولكنه استمر يقاتل، وعند ذلك انقضّت عليه جموع العدو، وظلوا يضربونه بسيوفهم بوحشية بالغة. وبعد أن انفضت المعركة، لم يمكن التعرّف على جسد أنس بين القتلى، فقد تمزّق جسده إلى سبعين قطعة. وفي النهاية تعرّفت عليه أخته من أصبع ممزقة بين الأشلاء، فقالت هذا هو جسد أخي. (انظر البخاري).

ولما انسحب العدوّ، عاد المسلمون الذي كانوا في حلقة حول الرسول ﷺ ثم انكشفوا عنه تحت ضغط هجوم العدو، ورفعوا جسد الرسول ﷺ من بين القتلى، وقبض أبو عبيده بن الجراح بأسنانه على حلقات المغفر التي انغرست في خدّ رسول الله وجذبها فسقطت ثنيتاه، وبعد قليل عاد الرسول ﷺ إلى وعيه. وأرسل حرّاسه المحيطون به من ينادي المسلمين ليجتمعوا ثانية إلى نبيّهم. وبدأت تجتمع حوله قوة من المسلمين، رافقته إلى أسفل الجبل.

ورأى أبو سفيان.. قائد العدو.. هذه البقيّة من المسلمين فصاح بصوت عال: "لقد قتلنا محمدًا". وسمع الرسول ﷺ الصيْحة المتبجّحة، ولكنه منع المسلمين أن يجيبوه خشية أن يعرف العدوّ الحقيقة فيعاود الهجوم، ثم يضطر المسلمون الجرحَى والآخرون الذين نال منهم التعب والإعياء أن يقاتلوا ضد كل هذا الحشد البربري.

ولما لم يتلقّ أبو سيفان جوابًا من المسلمين، أيقن أن الرسول ﷺ قد مات، فأردف صيحته الأولى بثانية وقال: "لقد قتلنا أبا بكر أيضًا". ومنع الرسول ﷺ أبا بكر أن يرد عليه. فأردف أبو سفيان بصيحة ثالثة وقال: "وقد قتلنا كذلك عمر". ومنع الرسول ﷺ عمر أيضًا أن يرد. فصاح أبو سفيان نشوان طربًا بأن الجميع قد قتل، وعندئذ لم يتمالك عمر نفسه فصاح قائلاً: "خسئت يا عدوّ الله. إننا جميعًا أحياء بفضل الله، وعلى استعداد لقتالكم وتحطيم رؤوسكم". فرفع أبو سفيان عقيرته بالهتاف القومي للمشركين: "أعل هُبَل" (وكان هبل صنم مكة القومي). عندها لم يتحمل رسول الله هذا التباهي ضد الله الذي لا إله إلا هو، والذي لأجله يضحّي هو وجميع المسلمين بكل عزيز لديهم. لقد رفض الردّ على أبي سفيان عندما أعلن عن موته، كما رفض الردّ عندما أعلن عن موت أبي بكر وعمر لأسباب تكتيكية، و لم يكن قد بقيَ له إلا فضلة من قوّة قليلة، وكانت قوات العدو ضخمة، وقد أطربها الفرح، ولكن العدوّ الآن قد سبّ الله تعالى. و لم يتحمّل الرسول إهانة كهذه، فاشتعلت روحه ونظر بغضب إلى المسلمين المحيطين به وقال: "ألا تجيبوا له؟". قالوا يا رسول الله ما نقول؟ قال: "قولوا اللهُ أعْلَى وأَجَلّ". ورفع المسلمون هذه الهتافات، فإذا هتافاتهم وأصواتهم تُذهل العدوّ، وتصيبه بالإحباط بعد أن أدرك أن رسول الله لا يزال على قيد الحياة بعد كل هذا. وأمامهم وقفت حفنة من المسلمين، منهم الجرحَى ومنهم من أنهكه الإعياء، ومع ذلك لم

يتجاسر العدوّ على مهاجمتهم مرة أخرى، واكتفوا بما حققوه وعادوا يهللون لنصرهم بفرح وطرب.

لقد تحوّل انتصار المسلمين في موقعة أُحُد إلى هزيمة، ورغم ذلـــك، فقد أثبتت المعركة صدق الرسول ﷺ حيث تحققت فيها النبوءات التي أنبأ بها قبل الخروج إلى الميدان. فقد انتصر المسلمون في البداية، وقُتل حمزة ﷺ.. عمّ رسول الله الحبيب إليه وهو يقاتل وقُتل حامل لـــواء العدوّ مبكرًا في بداية المعركة، وجُرح الرسول ﷺ نفسه، كمـــا قُتـــل الكثير من المسلمين، وكلّ هذا حدث تمامًا كما أنبأ به الرسول ﷺ في رؤياه.

وبالإضافة إلى تحقّق الأحداث التي سبق الإنباء عنها، فقد قـــدّمت هذه المعركة دلائل عديدة على إخلاص المسلمين وتفانيهم في حب الله ورسوله. لقد بلغ سلوكهم من المثالية بمكان لم يستطع التاريخ أن يجد ما يوازيه، ولقد سبق أن قصصنا بعض الأحداث التي تثبت هذا بجلاء، غير أن هناك واقعة أخرى تستحق الذكر، وهي تُظهر مـــدى قـــوّة الاقتناع واليقين وعمق الولاء الذي أبداه صـــحابة رســـول الله ﷺ. فعندما تراجع الرسول ﷺ إلى سفح جبل أُحُد، مع حفنة من المسلمين، أرسل بعض أصحابه لتفقّد الجرحَى في الميدان. ووجد أحد الصـــحابة بعد طول البحث جريحًا مسلمًا من أهل المدينة، وكان على مشـــارف الموت، فانحنى الصحابيّ عليه وقال: "السلام عليكم". ورفع الجـــريح المسلم يده المرتجفة وأخذ بيد الزائر وقال: "كنت أنتظر أن يـــأتي إليّ أحد"، فرد الزائر على الجندي قائلاً ما معناه: "إنك في حال حرجـــة

فهل تريد أن أبلغ ذويك وأهلك شيئًا"؟ فرد المسلم المحتضر: "نعم نعم، أقرِئ أهلي السلام وأبلغهم أنني بينما أموت هنا فإني تركت لهم أمانة ثمينة ينبغي عليهم أن يحافظوا عليها بأرواحهم، وهذه الأمانة هي رسول الله ﷺ. وإنّ وصيّتي إليهم أن لا يخلص العدو إلى رسول الله وفيهم عين تطرف" (الموطأ والزرقاني).

كان لدى المحتضرين الكثير مما يوَدّون قوله لأقربائهم، ولكن هؤلاء المسلمين الأوّلين السابقين لم يكونوا، حتى في لحظات الموت، يُفكرون في أقربائهم ولا أبنائهم ولا بناهم ولا أزواجهم، و لم يفكروا في ممتلكاهم، بل كل ما فكروا فيه هو الرسول ﷺ. لقد واجهوا الموت مستيقنين أن رسول الله قد جاء لينقذ العالم، وأن أبناءهم لو عاشوا بعدهم فلن يحققوا سوَى القليل، ولكنهم لو ماتوا دفاعًا عن رسول الله فسيكونون قد أدّوا حق الله تعالى وحق الإنسانية كلها. لقد آمنوا أهم عندما يُقْدِمون على التضحية بأنفسهم وبأسرهم فداء لرسول الله، فإهم يكونون قد أدّوا خدمة جليلة للإنسانية وأرضوا رهم، وأن موهم في هذا السبيل هو ضمان الحياة الأبدية للمجتمع الإنساني بأكمله.

وجمع الرسول ﷺ إليه الجرحَى والقتلى، وتلقّى الجرحَى إسعافاهم الأوّلية، وتم دفن القتلى. وعلم الرسول ﷺ أن العدو قد تعامل مع المسلمين بأقصى صوَر البدائية الوحشية؛ فقد مزّقوا أجساد قتلى المسلمين، وقطعوا أذنًا هنا وأنفًا هناك. ومن الأجساد التي مثّلوا بها كان جسد حمزة عمّ الرسول ﷺ، فوقف محزونًا بجواره وقال: إن فعل الكفار قد قدم لنا تبريرا لما كنا نعتبره غير مبرر من قبل. حالما قال النبي

ﷺ ذلك أمره الله أن يدَع الكافرين وشأنهم، وأن يظل سائرًا على سبيل الرحمة التي اختطها طوال حياته.

إشاعة عن وفاة رسول اللّه تصل إلى المدينة

وصلت إلى المدينة إشاعة عن مقتل الرسول ﷺ وتشتّت جيش المسلمين، وذلك قبل أن تصل بقايا القوّة المسلمة إلى البلدة، وأسرع الأطفال والنساء إلى جبل أحُد في جنون، ومن ثم عرفوا الحقيقة وعادوا مع بقايا الجيش. ولكن امرأة من بني دينار استمرت في المشْي حتى بلغت أحُدًا، لقد فقدت هذه المرأة زوجها وأباها وأخاها في المعركة، وتذكر بعض الروايات التاريخية أنها فقدت أيضًا ولدها. ولقيَها أحد الجنود العائدين وأخبرها أن والدها قد قتل، فقالت: "أنا لا أسألك عن هذا، ولكن أخبرني عن رسول الله". كان الجندي يعلم أنه لازال حيًا، ومن ثم لم يجب على سؤالها لتوّه ومضى يخبرها عن أخيها وزوجها اللذيْن ماتا أيضا. وفي كل مرة تستمر هي في سؤالها عن الرسول ﷺ لا تتزحزح عن ذلك: "ماذا فعل رسول الله"؟ لقد كان ذلك تعبيرًا غريب الاستعمال، ولكنا إذا تذكرنا أن امرأة هي التي كانت تتفوّه به زالت الغرابة، فعواطف المرأة قوية، وهي أحيانًا تتحدث إلى الشخص الميّت كما لو كان حيًّا، ولو كان الميّت قريبًا لها فإنها تميل إلى أن تشتكي إليه وتتساءل لماذا تركها وذهب دون أن يهتم بها أو يعتني بها. وهي عادة شائعة عند النساء أن ينُحْن بهذه الطريقة على أعزائهن المفقودين، وعليه فإن تعبيرًا كهذا يناسب امرأة محزونة

على موت الرسول ﷺ. لقد كانت هذه المرأة تعتبر أن الرسول ﷺ أحبّ إليها من أيّ شخص آخر، ورفضت أن تصدق خبر موته بعد أن سمعت به، وفي نفس الوقت لم تنكر الأنباء، وظلت تقول في حزن نسائي حقيقي: "ماذا فعل رسول الله"؟ وبقولها هذا كانت تتمثل الرسول ﷺ حيًّا وتشتكي: كيف لقائد مخلص محبّ مثله أن يجرّعهم آلام الفراق عنه.

وعندما وجد الرجل العائد من الميدان أن هذه المرأة لم تهتم كثيرًا بموت أبيها وأخيها وزوجها، أدرك مدى عمق حبها للرسول ﷺ، فقال لها: "أمّا رسول الله فهو كما تحبين، حيّ يُرزق". فطلبت المرأة من الجندي أن يريها إياه، فأشار إلى ركن في ساحة المعركة، فهرعت إليه وبلغت مكان الرسول ﷺ وأمسكت بطرف عباءته بيديها وقبّلتها وقالت: "فداك أبي وأمي يا رسول الله. ما دمت سالمًا فلا أبالي بمن يموت بعد ذلك". (انظر ابن هشام)

يمكننا إذن أن نرى مدى العزم والثبات والحب والإخلاص الذي أبداه المسلمون رجالاً ونساءً في هذه المعركة. إن الكُتّاب المسيحيين يقصّون باعتزاز قصة مريم المجدلية ورفقائها، ويحكون لنا عن إخلاصهم وشجاعتهم. وقيل إنهم تسللوا في الساعات الأولى للصباح من خلال اليهود وذهبوا إلى قبر السيد المسيح، ولكن ماذا يكون هذا الفعل بالمقارنة مع إخلاص هذه المرأة المسلمة من بني دينار؟؟

مثال آخر سجله التاريخ. فبعد دفن القتلى وأثناء عودة الرسول ﷺ إلى المدينة، رأى النساء والأطفال الذين خرجوا إلى ظاهر المدينة للقائه،

وكان حبل بغلته في يد سعد بن معاذ ﷺ سيّد المدينة. كان سعد يقود البغلة بفخر واعتزاز، وكأنه يعلن للعالم كله أنه رغم كل ما حــدث، فقد استطاع المسلمون أن يعودوا برسول الله سليمًا معافى إلى المدينة. وحدث أن رأى أمّه العجوز تتقدم لتلقى الجموع العائدة. كانت هذه العجوز ضعيفة النظر جدًا، وعرفها سعد والتفت إلى الرسول قائلاً: "يا رسول الله، هذه أمّي"، فقال الرسول ﷺ: "دعها تتقدم". وجــاءت المرأة تتقدم إلى الأمام، وببصر كليل حاولت أن تعثــر علــى وجــه الرسول ﷺ، وأخيرًا، لما استطاعت أن تتبيّنه ظهرت عليهــا أمــارات السعادة.

بلغ الرسول ﷺ المدينة، ومع أن الكثير من المسلمين قد قُتل وجُرح في هذه المعركة، غير أنه من الصعب القول إنها انتهت بهزيمة المسلمين. والحوادث التي رويناها من قبل تدل على العكس، فهــي تثبــت أن معركة أُحُد كانت انتصارًا للمسلمين. والمسلمون الــذين يقلبــون صفحات تاريخهم المبكر يمكنهم أن يستمدوا قوةً وإلهامًا مــن غــزوة أحُد.

وفي المدينة، عاد الرسول ﷺ مرة أخرى إلى ممارسة مهمّته النبويّة، فانهمك ثانية في تعليم وتدريب أتباعه. ولكن، كما كان الحال فيمــا مضَى، لم يستمر عمله هذا يمضي طويلاً بلا إعاقة. فبعد غزوة أحُــد صار اليهود أكثر جسارة، وبدأ المنافقون يطلون برءوسهم ثانية. لقــد ظنوا أن اقتلاع الإسلام قد صار في متناول أيديهم، وما عليهم إلا أن يبذلوا المزيد من الجهد لتحقيق غاياتهم. وبناء عليه، شرع اليهــود في

استخدام سبل جديدة لإثارة المشاكل والمضايقات، فبدأوا ينشـــرون السباب في أبيات من الشعر، يهدفون بذلك إهانة الرسول وآل بيتـــه. وحدث مرة أن دُعي الرسول ﷺ للفصل في خصومة، واضطر للذهاب إلى قلعة يهودية، فدبّر اليهود أمر إسقاط قالب من الحجر عليه ليضعوا نهاية لحياته. وتلقى الرسول إنذارًا مسبقًا من الله تعالى، ولقد تعوّد أن يتلقّى مثل هذه الإنذارات في وقتها المناسب، فتـــرك مجلســـه دون أن يلفظ بكلمة، وقد اعترف اليهود بعد ذلك بتدبيرهم الأحمق. وكـــان اليهود يقومون بالإساءة إلى النساء المسلمات في الطرقات، وفي إحدى تلك الحوادث فقد أحد المسلمين حياته. وفي حادثة أخـــرى رضـــخ اليهود رأس فتاة مسلمة بين حجرين وقتلوها بطريقة أليمة. وقد أدّى سلوك اليهود هذا إلى توتر علاقاتهم مع المسلمين، الأمر الذي أعطاهم الحق في قتال اليهود. ولكن المسلمين اكتفوا بإجلائهم عـــن المدينـــة، فهاجرت إحدى القبيلتين اليهوديتين إلى الشام، وأما الأخرى فهـــاجر بعض أفرادها إلى الشام، واستقر البعض الآخر في خيبر؛ القلعة اليهودية الحصينة إلى الشمال من المدينة المنوّرة.

في فترة السلام، بين غزوة أحُد والموقعة التالية، شهد العالم مثـــالاً بارزًا لا نزاع في أنه يدلّ على مدى تأثير الإسلام في أتباعـــه، ونحـــن نشير بذلك إلى تحريم الخمر. وعند وصف الظروف التي كانت تسود المجتمع العربي قبل الإسلام، كنا قد ذكرنا أن العرب كانوا ســـكّيرين مدمنين، وكان شُرب الخمر خمس مرات يوميًا تقليدًا عاديًا في كـــل بيت عربي، وأما فقد المرء لوعيه تحت تأثير الخمر فقد كان ممارســـة

عامة، و لم يكن العرب يشعرون بأيّ خجل من هذا، بل كانوا يعتبرونه فضيلة. وعندما يصل ضيف، كان من واجب الزوجة أن ترسل أدوارا متتابعة من الشراب. وكي يُفطم شعبٌ كالعرب عن هـــذه العـــادة المميتة، لم يكن ذلك بالأمر الهيّن.

وفي السنة الرابعة للهجرة، تلقّى الرسول ﷺ أمرًا بتحريم الخمـــر، ومع إعلان هذا الأمر اختفت الخمر من المجتمع المسلم. وسجّل التاريخ أنه حين تلقّى الرسول ﷺ الوَحي بتحريم الخمر، أرسل لأحد صحابته وأمره أن يعلن أمر الله الجديد في طرقات المدينة. وفي تلك الأثناء كان جماعة يشربون الخمر في بيْت أحد الأنصار، كان هنـــاك أشـــخاص كثيرون مدعوُون، وأكواب كثيرة قد أعدّت للشرب، وجَرَّة كـــبيرة مليئة بالخمر قد فرغت، وأخرى قد فُتحت للشراب. كان البعض قد فقد وعيه، والبعض الآخر في طريقهم لذلك. وفي هذه الحال سمعـــوا شخصًا يعلن أن الخمر قد حُرّمت بأمر رسول الله بعد أن نزل إليـــه وحي الله بذلك. نهض أحد أفراد الجماعة وقال: "يبدو أن هناك إعلانًا ضد شرب الخمر، فلننظر إن كان الأمر كذلك". فنهض آخر وضرب بعكازه الجرة الفخارية المليئة بالخمر فتحطمت قطعًا وقـــال: "لنطـــع الأمر أولاً ثم نستفسر لاحقًا، ويكفينا أن نسمع إعلانًا كهذا، فلا يليق أن نظل نشرب بينما نستفسر عن الأمر، بل ينبغي علينا أن ندع هذه الخمر تسيل في الطرقات أولاً ثم نبحث الأمر بالتفصيل فيما بعد" (انظر البخاري ومسلم كتاب الأشربة). كان هذا المسلم على حق، فلو كانـــت الخمر قد حُرّمت، لصاروا مذنبين لو استمروا يشربون، ولو لم تكـــن

الخمر قد حُرمت، فلن يكونوا قد خسروا كثيرًا عندما قـاموا بتـرك قدورهم يسيل منها الخمر في الشوارع. ولقد اختفَى شرب الخمر من المجتمع الإسلامي بعد هذا الإعلان. لم تكن هناك حاجـة إلى حملـة قومية أو جهود خاصة لإحداث هذا التغيير الثوري.

إن المسلمين الذين سمعوا هذا الأمر وشهدوا الاستجابة الفورية التي استُقبل بها، عاشوا بعد ذلك سبعين أو ثمانين سنة، ولم يوجد من بين هؤلاء فردٌ واحد صدر عنه ما يدل على أنه قد شعر بأدنى إحسـاس بالسخط إزاءه. ولو وُجدت حالة كهذه، فلا بد أنها كانت لواحد من الذين لم ينالوا فرصة وجوده تحت التأثير المباشر للرسول ﷺ. ولنقارن هذا مع حركة الامتناع عن شرب الخمر الأمريكية، أو الجهود الـتي بُذلت لترويج فكرة الاعتدال في الشرب ولسنوات طويلة في أوروبا.

في الحالة الأولى كان إعلان بسيط قام به الرسول ﷺ كافيًا لمحو إثم اجتماعي متفشّ ومتأصّل في أعماق المجتمع العربي.

وفي الحالة الثانية كان المنع مشرّعًا بقـوانين خاصـة، تسـاندها الشرطة، والجيش، وضباط الجمارك، ومفتشو الضرائب؛ وكلهم كانوا يبذلون جهودهم المشتركة كفريق موَحد، محاولين القضاء على رذيلة شرب الخمر، ولكنهم فشلوا واضطروا للاعتراف بفشـلهم. وفـاز السكّيرون، ولم يمكن هزيمة رذيلة شرب الخمر. ويُقال عن عصرنا إنه عصر التقدم الاجتماعي، ولكن حين نقارن عصرنا بعصـر الإسـلام المبكر فإننا نعجب متسائلين: أيّ العصريْن يستحق هـذه التسـمية،

عصرنا هذا أو العصر الذي أحدث الإسلام فيه هذه الثوْرة الاجتماعية العظيمة.

إن ما حدث في أُحُد لم يكن ليُنسى بسهولة، فأهل مكـــة رأوا في تلك المعركة نصرهم الأول، ولقد أذاعوا الأخبار في كل أنحاء الجزيرة العربية، واستخدموها لإثارة قبائل العرب ضـــدّ الإســـلام، ولكـــي يقنعوهم أن المسلمين ليسوا مستعصين على الهزيمة. وإذا كـــانوا قـــد حققوا نجاحًا وازدهارًا، فلم يكن ذلك بسبب قوّة سرّية كامنة فيهم، بل كان بسبب ضعف المتمسّكين بالمعتقدات العربية وضعف الوثنيين العرب، ولو قام العرب الوثنيون بعمل مشترك، فلن يكون من الصعب القضاء على المسلمين. وبدأت حملات الكراهية ضد المسلمين تشـــتد نتيجة لهذه الدعاية، وأخذت القبائل العربية الأخرى تنافس أهل مكة في إزعاج المسلمين، وراح بعضهم يهاجمهم جهارًا، بينما أوْقع البعض بالمسلمين الكثير من الخسائر في الأرواح.

ففي السنة الرابعة للهجرة، أرسلت قبائل عضل والقارة ممثلين عنهم إلى الرسول الكريم ﷺ، ورفعوا إليه التماسًا يطلبون أن يرسل إلـــيهم بعض المسلمين المتضلعين في تعليم الإسلام والقرآن، ليعيشوا بينـــهم، ويعلّموهم الدين الجديد، حيث إن الكثير من رجالهم قـــد مـــالوا إلى الإسلام.

كانت هذه في الحقيقة مكيدة مدبّرة رسم خطوطها بنـــو لحيـــان، رأس أعداء الإسلام. فقد أرسلوا هذا الوَفد إلى الرسول ﷺ، ووعدوا أفراد الوَفد بمكافأة ثمينة.

تلقّى الرسول الطلب دون أن يرتاب فيه، وأرسل لهذه القبائل عشرة من المسلمين ليعلموهم مبادئ الإسلام وعقائده. وعندما بلغ الجمع أرض بني لحيان، جاءت الأخبار إلى رجال القبيلة تأمرهم بالقبض على النفر المسلم أو قتلهم، وبناء على هذا الإيعاز الآثم، خرج مائتا رجل مسلح من بني لحيان لمطاردة النفر المسلم حتى أدركوهم في النهاية عند مكان يقال له "الرجيع". وحدثت منازلة بين عشرة مسلمين ومائتين من العدوّ، كان المسلمون مملوئين بالإيمان واليقين، و لم يكن لدَى العدوّ من ذلك شيء. وتسلق المسلمون العشرة قمة من القمم وتحدّوا المائتين، وحاول العدوّ أن يتغلب على المسلمين بمكيدة آثمة، فعرضوا عليهم أن يُبقوا على حياتهم إذا هبطوا إليهم، ولكن قائد المجموعة ردّ بأنهم رأوا ما يكفي من وعود الكافرين. ثم اتجهوا بعد ذلك إلى الله تعالى بالدعاء، وهو سبحانه العليم بهم، فقد أخبر نبيّه بما هم فيه. وعندما رأى الكافرون ذلك النفر الصغير بهذه الصلابة الشديدة، بدأوا في مهاجمتهم. فقاتل النفر دون أن تطرق خواطرهم الهزيمة، فسقط سبعة منهم وهم يقاتلون. وأعاد الكافرون وعودَهم على مسمع الثلاثة الباقين بالإبقاء على حياتهم لو هبطوا إليهم من القمّة، فصدّقهم الثلاثة واستسلموا. وبمجرّد أن فعلوا ذلك أوْثقوهم بسيور القسي، فقال أحد الثلاثة: "هذا أول الغدر والله يعلم ما أنتم صانعون بعد"، وأبى أن يصحبهم، فجرّوه واعتدوا عليه ليصحبهم فأبى، فلما هالهم ما أبداه من مقاومة قتلوه في ذلك المكان. وانطلقوا بالاثنين الآخرين وباعوهما كعبيد إلى قريش في مكة. كان أحدهم

الصحابي خُبَيْب ﷺ، والثاني كان زيد بن الدثنة ﷺ، وكان الــذي اشترى خُبيْبا يريد قتله انتقامًا لأبيه الذي قتله خُبيْب يوم بــدر. وفي أحد الأيام طلب خُبيْب شفرة للحلاقة، وكان الموسى في يد خُبيْــب عندما دخل طفل من أهل البيت واقترب منه في فضول، فأخذ خُبيْب الطفل وأقعده على ركبتيه بحنان. ورأت أمّ الطفل ذلك فأصابها فــزع شديد، إذ لم يخطر على بالها إلا كلّ التوَقعات السيئة، فــذاك رجــل سيقومون بقتله خلال أيام يمسك بشفرة حادة خطرة قريبًا من ولدها، فلم يخطر ببالها سوى أن خُبيْباً يريد قتل الطفل. ورأى خُبيْب الفــزع المرتسم على وجه المرأة، وأدرك ما تفكر فيه فقال: "هل تتخــيلين أني سأقتل الطفل؟ هل يخطر ببالك لحظة أني أفعل ذلك؟ إنني لا أســتطيع أن أرتكب هذا الغدر الدنيء، فالمسلمون لا يغدرون بأحد". وتأثرت المرأة بصدق خُبيْب وأمانته وخلقه القويم، وظلت تذكر هذا دائمًــا، وكانت تقول إنها لم تر مطلقًا سجينًا مثل خُبيْب.

وفي نهاية الأمر، قاد أهل مكة خُبيبًا إلى ساحة مفتوحة للاحتفــال بقتله أمام الملأ. ولما حانت اللحظة المرتقبة، طلب خُبيْب أن يتركــوه ليصلي ركعتين، فوافقت قريش. وتوَجّه خُبيْب إلى الله بآخر صــلواته في هذا العالم أمام الجمهور، وعندما سلّم في نهاية الصلاة قــال: "والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزعٌ لزدت". ثم أسلم عنقه إلى الجــلاد في هدوء، وتمتم وهو يفعل ذلك بهذه الأبيات:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا على أي شق كان في الله مضجعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصــال شــلوٍ ممزع

ولم يكد خُبيْب يتم غمغمته بهذه الأبيات، حتى نزل سيف الجلاد على عنقه، وسقط رأسه جانبًا. وكان سعيد بن عامر واحدًا من الحشد الذي حضر هذا الإعدام العلني، وقد صار مسلمًا فيما بعد. ورُوِي أنه كان كلما سمع قصة قتل خُبيب تُذكر في حضوره، كانت تصيبه نوبة من الغثيان.

وأخذوا السجين الآخر زيد بن الدثنة ليقتلوه. وكان أحد المشاهدين هو أبو سفيان؛ سيد مكة. فالتفت إلى زيد وسأله: "ألا يسرك أن يكون محمد في مكانك لنضرب عنقه بينما تكون أنت في أهلك"؟ فأجاب زيد بأنَفَة واستنكار: "ماذا تقول يا أبا سفيان؟ لا والله، ما يسرّني أني في أهلي وأن رسول الله في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه". وبهت أبو سفيان لهذا الإخلاص والحب. ونظر إلى زيد مذهولاً وقال بلا تردد، ولكن في نبرة حذرة: "والله ما رأينا أحدًا يحبّ أحدًا مثل ما يحبّ أصحاب محمد محمدًا". (انظر ابن هشام جزء ٢)

وحول ذلك الأوان جاء وفد من نجد أيضًا إلى الرسول ﷺ يسألونه إرسال بعض المسلمين كي يعلموهم الإسلام. ولم يثق بهم الرسول ﷺ، ولكن أبا البراء سيد قبيلة عامر، تصادف أن كان موجودًا بالمدينة وقتها، فعرض أبو البراء أن يجير الوفد، وأكد للرسول ﷺ أن أهل نجد لن يفعلوا سوءًا بالمسلمين، فاختار الرسول ﷺ سبعين رجلاً من قراء القرآن وحُفّاظه، وأرسلهم مع أبي البراء حتى بلغوا بئر معونة.

ذهب واحد من الرهط المسلم، وهو حرام بـــن ملحـــان ﷺ، إلى عامر بن الطفيل سيد قبيلة بني عامر، ابن أخي أبي البراء، ليبلغه برسالة رسول الله. وفي ظاهر الأمر تم استقباله بترحاب، ولكنه بينما كـــان يخاطب سيدهم، انسل رجل خلف حرام وطعنه برمح فقتله لســـاعته. وبينما كان الرمح يخترق عنق حرام سمعوه يقول: "الله أكـــبر، فـــزتُ ورب الكعبة". (البخاري).

وبعد قتل حرام بهذا الشكل الخسيس. استنفر زعيم القبيلة بني عامر لفوره إلى قتال الباقين من المعلمين المسلمين، ولكنهم أبوا عليه ذلـــك بسبب البراء، فاستنفر القبيلتين اللتين كانتا قد ذهبتا إلى الرســـول ﷺ تطلب منه المعلمين وقبائل أخرى معهم، فأجابته قبائل عصية ورعـــل وذكوان، وهاجموا وفد رسول الله.

و لم تجْد مناشدهم الواضحة السهلة أثرًا عند المعتدين عندما قـــالوا لهم إنهم قد جاءوا للتبليغ والتعليم وليس للحرب والقتـــال. فـــأعملوا فيهم ضربًا وتقتيلاً حتى قتلوهم جميعًا، السبعين، ما عدا ثلاثة. أحدهم كان أعرج، وكان قد تسلق قمة جبل قبل بداية المنازلـــة، والاثنـــان الآخران كانا يرعيان سرح المسلمين، وهما عمرو بن أميّة الضـــمري والمنذر بن عقبة بن عامر، فلما عادا وجدا ستة وستين من أصـــحابهم مقتولين. فتشاورا وقال عمرو بضرورة إبلاغ الرسول ﷺ عما حدث، وعارض المنذر مغادرة المكان الذي أمرهم أميرهم بالانتظار فيه، وراح وحده يقاتل المشركين حتى قُتل مع أصحابه، وأُسِر عمرو ابن أميـــة،

فلما أخبر أنه من مضر، جز عامر ناحيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

كان في القتلى عامر بن فُهَيرة، الذي اعتقه أبو بكر ﷺ، قتله جبّار الذي أسلم بعد ذلك. وذكر جبّار أن سبب تحوّله للإسلام كانت هذه المذبحة الهائلة للمسلمين. وقال: "عندما أردت قتل عامر سمعته يقول: "فزتُ ورب الكعبة"، فسألته: يا عامر، لماذا يقول المسلم شيئًا كهـذا عندما يلقى حتفه؟ فأجاب عامر موضحًا: إن المسلمين يرون المـوت في سبيل الله سعادة ونصرًا". وتأثر جبار تأثرا عميقًا بهذه الإجابة، فبدأ في دراسة منظمة للإسلام، تُوّجَت بإسلامه (ابن هشام وأُسد الغابة).

وصلت أخبار الحادثتين إلى المدينـة متـزامنتين، حادثتـان راح ضحيتهما ثمانون رجلاً تقريبًا من المسلمين نتيجة للمكر السـيئ. لم يكن هؤلاء القتلى أناسًا عاديين، بل كانوا من حملة القرآن. لم يقترفوا جُرمًا، ولم يُشكلوا خطرًا على أحد، ولم يدخلوا في معركة، بل وقعوا في شباك العدوّ بسبب كذبة قيلت تحت اسم الله والدين. هذه الحقائق كلها تدل بدلالة قاطعة على أن العداوة للإسلام كانت على درجـة كبيرة من العمق والتصميم. وفي المقابل، فإن حماسة المسلمين وحميتهم للإسلام كانت على نفس الدرجة من العمق والتصميم.

المعركة مع بني المصطلق

بعد معركة أحُد حدثت مجاعة خطيرة في مكة، وقد قام الرسـول ﷺ بجمع ذخيرة من المؤن لمساعدة فقراء مكة في أزمتـهم القـاهرة،

بصرف النظر عن كل العداوة التي يحملونها له في مكة، وبصرف النظر عن كل المكائد التي كانوا يمارسونها لنشر النفور منه في أرجاء الجزيرة العربية كلها. ولقد استمرت كراهيتهم له دون أن تهدأ أو تخفّ، بل في الحقيقة صارت أسوأ وأشدّ، حتى إن القبائل التي كانت شديدة التعاطف مع المسلمين، صارت تحمل لهم العداوة والبغضاء، ومنهم كانت قبيلة بني المصطلق.

فقد كان لهم علاقات حسنة مع المسلمين، ولكنهم الآن صاروا يعدّون العدّة للهجوم على المدينة، ولما سمع الرسول ﷺ عن استعداداتهم للعدوان، أرسل رجالاً لتقصّي الحقيقة، وعاد الرجال وأكدوا الأخبار. وقرر الرسول ﷺ التحرّك للقاء هذا الهجوم الجديد، وبناء عليه فقد حشد قوّة وقادها إلى ديار بني المصطلق، وعندما لقيَ المسلمون العدوّ حاول الرسول ﷺ إقناعهم بالانسحاب دون قتال فأبوا، وفي ساعات قلائل حدث الاشتباك وهُزم العدو.

ولأن كفار مكة كانوا قد عقدوا العزم على خلق الفساد والإساءة للمسلمين، والقبائل الصديقة كانت تتحوّل إلى العداء والعدوان، فقد غامر المنافقون في هذه المناسبة بالاشتراك في المعركة إلى جانب المسلمين، ولعلهم ظنوا أن الفرصة قد حانت للنيْل من الإسلام. غير أن معركة بني المصطلق انتهت بالنصر في ساعات قلائل، ولم يجد المنافقون فرصة للإضرار بالمسلمين. وقرر الرسول ﷺ البقاء في ديار بني المصطلق بضعة أيام، وخلال ذلك نشب عراك بين واحد من المهاجرين وآخر من الأنصار على الاستقاء من بئر هناك. وكان المسلم

المهاجر عبدًا محرّرًا، فضرب الأنصاري الذي صاح: "يا للأنصار". وصاح الآخر: "يا للمهاجرين". وغلب الحماس على الناس، ولم يتبين أحد ماذا حدث، وسل الشباب الصغار من الفريقين سيوفهم، وظنها عبد الله بن أبي بن سلول فرصة جاءت إليه من السماء، فقرر أن يصب الوقود على النار قائلاً: "لقد ذهبتم بعيدًا في إكرام المهاجرين، ولقد أدارت المعاملة الطيبة رءوسهم، والآن صاروا يكاثرونكم بكل سبيل". ولعله ظن أن كلامه سيؤدي إلى النتيجة المطلوبة، أو لعله تصوّر أن النّزاع سوف يتطوّر ليكون ذا خطورة بالغة، ولكن ذلك لم يحدث. لقد أخطأ عبد الله بن أبيّ في تقدير الآثار السيئة لخطابه على الأنصار، واستمر موغلاً في تصوّره أن الأنصار قد اقتنعوا بحديثه فقال: "لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ". (البخاري)

لقد قصد نفسه بقوله: الأعزّ، وقصد الرسول ﷺ بقوله: الأذلّ. وحالما قال ذلك، أدرك المؤمنون المخلصون من المسلمين حقيقة الأذى الكامن والضرر المتربّص في ذلك الحديث، وأحسّوا أن ما استمعوا إليه من كلام لم يكن كلامًا بريئًا، كان الكلام للشيطان الذي جاء ليقودهم إلى الضلال. ووقف رجل شاب وأبلغ الرسول ﷺ بالأمر، فأرسل إلى عبد الله بن أبي بن سلول وصحبه وسألهم عما حدث، فأنكر عبد الله هو وصحبه أنهم فعلوا شيئًا من ذلك، أو أنهم ساهموا في هذه الحادثة.

ولم يقل الرسول ﷺ شيئًا، ولكن الحقيقة بدأت تظهر وتنتشر، وبعد ساعات وصلت أنباء الحادثة إلى سمع ابن عبد الله ابن أبي ابن

سلول واسمه "عبد الله"، وفي الحال ذهب لرؤية الرسول ﷺ وقال له: "يا رسول الله، لقد أهانك أبي، وعقابه على ذلك هو المـــوت، فـــإذا رأيتَ ذلك فإني أريدك أن تأمرني بقتله، فإنك لو أمرت أحدًا غـــيري بذلك فقتله، فربما كبر عليّ أن أرى قاتل أبي يمشي على الأرض فأقتله فأغضب الله ويعذبني".

ولكن الرسول ﷺ لم يوافق على قتل عبد الله بن أبيّ، وذكر لابنـــه أنه سيستمر في معاملة أبيه برحمة وتقدير. وعندما قارن ذلك الشـــاب عبد الله خيانة والده وجفاءه مع رحمة وعطف وكرم الرسول ﷺ، عاد إلى المدينة مليئًا بغضب مكتوم ضد أبيه. وفي الطريق إلى المدينة أوْقف والده وقال له إنه لن يدعه يدخل المدينة حتى يسحب الكلام الـــذي قاله ضد رسول الله، وقال له: "إن اللسان الذي قال إن الرسول هـــو الأذل وأنت الأعز، يجب أن يقول الآن إن الرسول هو الأعز وإنـــك أنت الأذل، ولن أدعك تذهب حتى تقول ذلك". وصُدم عبد الله بن أبي بن سلول وخاف، وقال: "حقًّا ما قال ابني؛ إن محمدًا هو الأعـــز وأنا الأذل". وعند ذلك أفسح عبد الله لأبيه الطريق. (ابن هشام ج٢)

لقد قلنا من قبل إن هناك قبيلتين يهوديتين أقصيتا خارج المدينة من جراء إساءاتهما الخبيثة، ومكرهما السيئ، والمؤامرات التي تســـببت في قتل بعض المسلمين.

كانت بنو النضير إحدى القبيلتين، وقد هاجر بعضهم إلى الشـــام، وذهب الباقون إلى خيبر؛ وهي بلدة تقع في شمال المدينة. كانت خيبر مركزًا يهوديًا حصينًا جدًا في الجزيرة العربية، وراح اليهـــود الـــذين

هاجروا هناك يعملون على إثارة العرب ضد المسلمين. كان أهل مكة بالفعل أعداء ألداء للإسلام، و لم يكونوا في حاجة إلى أية إثارة جديدة تحمّسهم ضد المسلمين، وكذلك الشأن مع غطفان من نجد ؛ فكـــانوا يكرهون المسلمين أيضًا بسبب صداقاهم لأهل مكة. وقـــد اعتمـــد اليهود الذين استقرّوا في خيبر في تنفيذ مؤامراهم على قريش في مكة، وغطفان في نجد، بالإضافة إلى أهم خطّطوا كي ينقلب بنو سليم وبنو أسد ضد الإسلام. ونجحوا أيضًا في إقناع قبيلة بني سعد التي كانـــت تحالفهم، كيْ يتّحدوا مع أهل مكة في حلف يجابه الإســـلام. وبعـــد مكائد عديدة وتدابير طويلة الأمد، تم تنظيم اتحاد كونفدرالي لحـــرب المسلمين، وكان هذا الاتحاد يضم أهل مكـــة، والقبائـــل المقيمـــة في الأراضي المحيطة بمكة، وقبائل نجد، ومعهم القبائل التي كانت تقيم في الأراضي الواقعة شمال المدينة.

غـزوة الخنـدق

في السنة الخامسة للهجرة، احتشد جيش ضخم قـــدّر المؤرخـــون قوّته بعدد يبلغ عشرة آلاف أو أربعة وعشرين ألف رجـــل، ولكـــن جيشًا يحتشد من القبائل المختلفة في الجزيرة العربية لا يمكن أن يكون تعداده عشرة آلاف، لذلك تبدو الحقيقة أقرب إلى الأربعة والعشرين ألف مقاتل؛ ولعلهم كانوا ثمانية عشر أو عشرين ألفًا.

و لم تكن المدينة التي يرغب كل هذا الحشد في مهاجمتها سوى بلدة متوسطة الحجم، لا تستطيع على الإطلاق أن تقاوم غزوًا منسقًا تقوم

به كل الجزيرة العربية. كان تعداد المدينة إذ ذاك لا يتعدّى ثلاثة آلاف من الذكور، بما في ذلك الشيوخ والشباب والأطفال. وفي مواجهة هذا التعداد السكاني، حشد العدوّ جيشًا من عشرين ألفًا إلى أربعة وعشرين ألفًا من الرجال الأشداء، المتمرّسين على الحرب وفنون القتال. وحيث إنهم جاءوا من الأجزاء المختلفة في الجزيرة العربية، فقد أُحسن اختيارهم ليكونوا ضمن هذا الجيش.

ومن ناحية أخرى، كان كل من يمكن استدعاؤهم لمقاومة هذا الجيش الجرّار، هم جميع السكان الذكور في المدينة، ويمكن الحكم على احتمالات نجاح مواجهة مثل هذا العدد الهائل الذي كان على سكان المدينة أن يناجزوه، فقد كان نِزالاً غير متكافئ إلى أبعد الحدود. فالعدوّ كان يضم من عشرين إلى أربعة وعشرين ألفًا من المقاتلين الأقوياء، بينما لا يكاد يبلغ المسلمون ثلاثة آلاف، هم كل ذكور المدينة كما سبق ذكره، بما فيهم الكبير والصغير.

وعقد الرسول ﷺ اجتماعًا لطلب المشورة، عندما سمع عن الاستعدادات المعادية الهائلة. وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه بين الذين استشارهم الرسول ﷺ، وكان المسلم الأوّل من بلاد فارس. فسأل الرسول ﷺ سلمان عما يفعلونه في بلاده إذا أرادوا الدفاع عن مدينة ضد جيش عرمرم؟ فقال سلمان: إذا لم تكن المدينة حصينة، وكانت قواها المحلية صغيرة للغاية، فإن العادة جرت لدينا على حفر خندق حول المدينة والدفاع عنها من داخله. وقبل الرسول ﷺ الفكرة.

كانت القمم الوَعرة تحف بالمدينة من أحد جوانبها، وكان ذلك يضمن حماية طبيعية من هذا الجانب. جانب آخر مملوء بالدروب الضيقة المكتظة بالسكان المتقاربين، ومن هذا الجانب فإن المدينة لا يمكن مباغتتها دون علم سكانها. وفي الجانب الثالث كانت غابات النخيل وبعض البيوت. وعلى مسافة منها حصون القبيلة اليهودية بني قريظة. وكان المسلمون قد عقدوا عهدًا مع بني قريظة للتعايش في سلام وللدفاع المشترك، ولذلك كان هذا الجانب يُعتبر آمنًا أيضًا من هجوم العدو.

في الجانب الرابع كان هناك سهل منبسط مفتوح، وكان الخوف أن يهجم العدوّ من هذا الجانب لأنه الأكثر احتمالاً، ولذلك قرر الرسول ﷺ حفر خندق على هذا الجانب المفتوح لمنع العدوّ أن يباغت المدينة بالهجوم. ووُزّعت المهمّة بين المسلمين، كلّ عشرة أشخاص عليهم حفر عشر أذرع من الخندق، وكان على الجميع حفر ميل كامل بعرض وعمق كافيَين.

وعندما كان الحفر يمضي على قدم وساق، اعترضت صخرة صلبة طريق الحفر، و لم يستطع أحد من المسلمين أن يتمكن منها، فرفعوا تقريرا بذلك للرسول ﷺ فحضر إلى المكان في الحال، وأخذ المعوَل وضرب الصخرة بقوّة، وتطايرت منها بعض الشرارات فصاح الرسول ﷺ عاليا: "الله أكبر". وضرب الصخرة ثانية، ومرة أخرى تطاير الشرر فصاح الرسول ﷺ ثانية: "الله أكبر". وضرب الصخرة ضربته الثالثة، وتطاير الشرر كذلك، فهتف الرسول ﷺ: "الله أكبر". وتفتّتت

الصخرة إلى شظايا، وسأل الصحابة رسول الله عن كل ذلك، ولماذا قال الله أكبر مرارًا؟

وأجاب بما معناه:

لقد ضرب الصخرة بهذا المعوَل ثلاث مرات، وفي المرات الثلاث رأى مشاهد مجد الإسلام تُوحَى إليه وتنكشف له. فرأى في الشرارات الأولى قصور الشام في إمبراطورية الروم، وأُعطيَت له مفاتيح تلك القصور. وفي المرة الثانية رأى قصور فارس في المدائن قد أضاءت، وأعطيَت له مفاتيح ملك الفُرس. وفي المرة الثالثة رأى أبواب صنعاء وأعطيَت له مفاتيح مملكة اليمن، وأخبرهم أن هذه وعود الله وأنه يثق فيها، وحثّهم على أن يتوكلوا على الله، ولن يضرهم العدوّ، إلا أذىً. (الزرقاني ج ٢ وفتح الباري ج ٧)

ومن وجهة النظر العسكرية الاستراتيجية، فلم يكن من الممكن حفر خندق عظيم نظرًا لقلة عدد القوّة العاملة للمسلمين، لكن بدا هذا الخندق على الأقل كحاجز يؤمّنهم ضد الاقتحام المفاجئ للمدينة، رغم أنه لم يكن منيعًا على العبور، ولقد برهنت الأحداث التالية على ذلك، و لم يكن هناك جانب آخر يناسب العدوّ للهجوم على البلدة، وهكذا بدأ جيش ضخم من رجال القبائل يصل إلى المدينة، وحالما عرف الرسول ﷺ ذلك، خرج إليهم ليدفعهم عنها في ألف ومائتي رجل بعد أن أرصد المجموعة الأخرى الباقية من الرجال للدفاع عن الأجزاء الأخرى للمدينة.

لقد قدّر المؤرّخون عدد المدافعين عن الخندق بتقـديرات مختلفـة، حدّده البعض بثلاثة آلاف، وبعضهم قدّره بألف ومائتي رجل، وقدّره آخرون بسبعمائة، وهي تقديرات يبلغ اختلافها درجة يبدو أن مـن الصعب التوفيق بينها، ولكن بعد تحليل مختلف القرائن يمكن أن نستنتج صحّة جميع التقديرات المتعلقة بعدد المسلمين المنخرطين في الدفاع عن الخندق، لأنها ترجع في اختلافها إلى مراحل مختلفة في هذه الموقعة.

القتال ضد أحزاب ضخمة

لقد سبق وذكرنا أنه بعد انسحاب المنافقين من أحُد، كان عدد من بقيَ من المسلمين في الميدان سبعمائة، و لم تحدث موقعة الخندق إلا بعد عامين من أحُد، وخلال هذين العامين لم يسجّل التاريخ أن أعـدادًا كبيرة من الناس قد دخلوا في الإسلام.

وليس من المتوقع أن يزيد عدد المسلمين المقاتلين في خلال ذلـك الوقت من ٧٠٠ إلى ٣٠٠٠، كذلك من غير المعقول أيضًا أن تنعدم زيادة عدد المسلمين المقاتلين بين معركتي أحُد والخندق، فقد اسـتمر دخول الناس في الإسلام، ومن الطبيعي أن نتوَقع ثمة زيادة معقولة بين موقعة أحُد وغزوة الأحزاب (الخندق). ومن هذين الاعتبارين، يبـدو أن التقدير الأصوَب لعدد المسلمين في الموقعة هـو ١٢٠٠ مقاتـل، والسؤال الذي يمكن أن يرد على ذلك هو: لماذا قال بعض المفسـرين إن العدد ٣٠٠٠، وقال البعض الآخر إنه ٧٠٠؟ وإجابتنا على هـذا السؤال هي أن الرقمين يرجعان إلى مرحلتين من مراحل الموقعة.

كانت هناك ثلاث مراحل لهذه المعركة، المرحلة الأولى قبل أن يصل العدوّ إلى المدينة عندما كان المسلمون منغمسين في حفر الخندق، خلال هذا الوقت يمكننا أن نفترض مطمئنين أن الصبيان ونسبة ما من النساء قد جاءوا للمساعدة في إزالة التراب المحتفَر من المكان. ولذلك من المعقول أن تكون أعداد المسلمين الذين اشتركوا في أعمال الحفر قد بلغت ثلاثة آلاف، ويشمل هذا الرقم الصبية وبعض النسوَة. فالصبية كانوا قادرين على المساعدة في حمل الأتربة، وهناك ما يؤكد هذا الافتراض، فلقد دُعي الصبْية إلى الحضور بمجرّد بدء الحفر. والنسوَة اللائي تنافسن مع الرجال دائمًا على المساعدة في كل حروب المسلمين، لا بد أنهن كن مفيدات في أداء الأعمال المساعدة المرتبطة بالحفر، ومن الوجهة الفعلية فلقد ساهم كل سكان المدينة في العملية. ولكن بمجرد حضور العدوّ إلى ميدان المعركة، أمر الرسول ﷺ كل صبيّ دون الخامسة عشرة بمغادرة المكان وترك مشهد العمليات، وسمح لمن هم فوق الخامسة عشرة بالمساهمة في المعركة لو أرادوا. (انظر السيرة الحلبية جزء ٢)

ومن ذلك يتبيّن أن عدد المسلمين وقت الحفر كان يفوق عددهم عند بدء المعركة، فقد انسحب الصبْية والنسوَة ولم يبق عند الخندق سوَى المقاتلين من الذكور البالغين وحدهم، وهؤلاء هم الذين ذكرت بعض التقديرات أن عددهم كان ١٢٠٠ مقاتل.

بقي التقدير الثالث الذي لم نبيّنه حتى الآن، وهو ذلك الذي ذكر أن عدد المقاتلين عند الخندق كان سبعمائة مقاتل، ونرى أن هذا

التقدير كان صحيحًا أيضًا. وقد طرحه ابن اسحاق وهو ثقة، كما أيّده فيه ابن حزم، ولذلك من الصعب أن نشكّ في مصداقيته. وعند مراجعة التفاصيل المتعلقة بهذه المعركة، يتبين لنا أن تقييم هذا العدد كان صحيحًا. فقد حدث أن نقض بنو قريظة الحلف الذي عقدوه مع المسلمين بالاشتراك معهم في الدفاع عن المدينة إذا تعرّضت للعدوان. وكان قد عُهِد إليهم بالدفاع عن جزء من المدينة. فلما تبيّن للرسول ﷺ أن بني قريظة قد خانوا عهدهم وعلم بنيّتهم الخبيثة بالهجوم على المدينة من الخلف، رصد حراسة بقوّة من المسلمين في ذلك الجزء من المدينة المعرّض للهجوم من طرف بني قريظة. ومن المعروف أن الرسول ﷺ أرسل فرقتين إحداهما مؤلفة من مائتي رجل والأخرى من ثلاثمائة، لحماية جزأين من المدينة بمجرد أن بلغه نبأ خيانة بني قريظة، وبالتالي فلم تعد النساء والأطفال في مأمن، وأمر الرسول ﷺ القوّة المرسلة أن يرفعوا أصواتهم بالتكبير ليعلم بقية جيش المسلمين أن النساء والأطفال آمنون. وتكشف هذه التفاصيل صحة تقدير ابن اسحاق بأن عدد المقاتلين عند الخندق كان سبعمائة مقاتل، لأن انسحاب ٥٠٠ رجل من ١٢٠٠ لإرسالهم لظهر المدينة يؤدّي إلى بقاء ٧٠٠ مقاتل، هم الذين اشتركوا في المعركة ضد الأحزاب عند الخندق.

ولهذا فإن نتيجة التقديرات الثلاثة لعدد جيش المسلمين في معركة الخندق كانت صحيحة، وعلى ذلك لم يكن لدَى الرسول ﷺ سوَى ٧٠٠ رجل فقط ليدافعوا عن الخندق. صحيح أن الخندق كان قد تم حفره، ولكن كان يبدو من المستحيل على جيش المسلمين أن يواجه

جيشًا بهذه الضخامة، ويردّه على الأعقاب حتى ولا بمساعدة الخندق، ولكن المسلمين كعادتهم وثقوا في الله ربهم وتوكلوا على معونته، وانتظروا جيش العدوّ، بينما أرسلوا الأطفال والنساء إلى منطقتين من البلدة بدتا آمنتين في ذلك الوقت.

وعندما بلغ العدوّ الخندق أخذته الدهشة والذهول، لأن العرب في الجزيرة العربية لم يألفوا هذه الحيلة من قبل في أيّة معركة، لذلك قرروا أن يضربوا خيامهم على جانب الخندق الذي هم عليه، حتى يتدبروا أمرهم ويبحثوا أفضل الطرق للهجوم على المدينة. فقد كان جانب منها يحميه الخندق، والجانب الثاني به قمم وعرة ذات حصانة طبيعية، وعلى جانب ثالث توجد بيوت حجرية مع حدائق النخيل والبساتين، فكان من المستحيل على العدوّ أن يباغت أيّ جانب من المدينة. وعقد قادة العدوّ مؤتمرًا جامعًا، وقرروا أنه قد بات من الضروري استمالة بني قريظة إليهم، وفصلهم عن المسلمين وحلفهم، وأن يطلبوا منهم الانضمام إلى الأحزاب في هذا الهجوم الشرس والحرج على المدينة، وكان كل ما عليهم أن يفعلوه هو أن يفسحوا طريقًا لجيش الأحزاب إلى البلدة. وفي النهاية اختار أبو سفيان حُيَيّ بن أخطب؛ زعيم قبيلة بني النضير اليهودية، والتي تم نفيها من المدينة، والتي كانت المحرّض الأساسي للقبائل العربية ضد المسلمين، وكلفه أن يتفاوض مع بني قريظة للحصول منهم على تسهيلات تمكنهم من الهجوم على المدينة من الخلف. وذهب حُيي بن أخطب إلى الحصن اليهودي كي يلقَى قائد بني قريظة. وفي البداية رفضوا رؤيته، لكنه لما شرح باستفاضة

كيف أن هذه اللحظة هي فرصتهم لدحر المسلمين، نجح في استمالة كعب، أحد رجالات بني قريظة، وأوْضح له أنّ العرب عن بكرَة أبيهم قد خرجوا جميعًا للهجوم على المسلمين والقضاء عليهم، وأنّ الجيش الذي يقف على الجانب الآخر للخندق ليس جيشًا عاديًا، بل هو بحر يموج بالرجال الأشدّاء الذين يستحيل على المسلمين أن يقاوموهم. وأخيرًا تم الاتفاق على أنه بمجرد أن ينجح المشركون في اقتحام الخندق، فإنّ بني قريظة سيهاجمون هذا الجزء من المدينة الذي أوْدع فيه الرسول ﷺ كلّ النساء والأطفال طلبًا لسلامتهم. وبدوا متأكدين أن هذه الخطة كفيلة بتهشيم مقاومة المسلمين، وستكون بلا شك فخًّا مميتًا لقوم النبيِّ ﷺ؛ رجالاً ونساءً وأطفالاً. وحقًّا لو أتيح لهذه الخطة ولو نصيب محدود من النجاح، لكلفت المسلمين غاليًا، ولجعلت كل شيء صعبًا شديد التعقيد بالنسبة إليهم، فلن يكون لهم مخرج من هذه الورطة القاتلة.

خيانة بني قريظة

كان بنو قريظة كما أسلفنا في حلف مع المسلمين، وحتى إذا لم يكونوا قد ساهموا في الحرب مع المسلمين، فقد كان المتوقع منهم على الأقل أن يقوموا بحجز العدوّ من جانبهم وإعاقته، ولهذا السبب فقد ترك الرسول ﷺ هذا الجانب في أوّل الأمر بلا حراسة على الإطلاق. وكان بنو قريظة يعلمون أن المسلمين يثقون بحسن نيتهم، ولهذا عندما قرروا الانضمام إلى أحزاب العرب، فقد اتفقوا ألا يكون هذا

الانضمام جهارًا واضحًا، حتى لا يتنبّه المسلمون ويتّخذوا الخطـــوات اللازمة لحماية المدينة من جانب بني قريظة. لقد كانت الخطة شديدة الخطورة ومحبوكة الأطراف.

وعندما تم الاتفاق على مهاجمة المسلمين في المدينة من جانبين، راح جيش أحزاب العرب يحاول اقتحام الخندق، ولكن مرّت عـــدّة أيـــام دون تحقيق أيّة نتيجة. ثم طرأت لهم فكرة، أن يجمعوا رُمـــاهم علـــى مرتفع، ويأمروهم أن يهاجموا المجموعات المدافعة عن الخنـــدق مـــن المسلمين، وأن يقف هؤلاء على حافة الخندق تفصـــلهم مســـافات قصيرة، وعندما تلوح من المسلمين أيّة أمارات تتيح إحـــداث ثغـــرة ضعيفة، يعبر الكفار الخندق على الفور بمساعدة فرساهم الأكفاء.

لقد تصوّروا أهم إذا كرّروا الهجوم فسيمكّنهم هذا من الحصـــول على رأس جسر في الجانب المسلم، بحيـــث يســـتطيعون أن يعـــبروا وتتجمّع قوّاهم عليه للقيام بهجوم كاسح على البلدة. وهكـــذا وقـــع هجوم بعد هجوم، واضطر المســـلمون المـــدافعون إلى القتـــال دون انقطاع. وفي أحد أيام القتال هذه، ظلوا منخرطين في دفع هذا الهجوم المتكرّر حتى فاتتهم صلاة من صلواهم اليومية عن موعدها المحدد. وقد حزن الرسول ﷺ بشدة من أجل ذلك وقـــال: "مَـــلأَ اللهُ بُيُـــوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَـــتِ الشَّـــمْسُ". وتدل هذه الحادثة على عنف الهجوم المعادي، كما تدل كذلك على أن عناية الرسول ﷺ واهتمامه أولاً وأخيرًا كان موجهًا إلى عبادة الله تعالى.

صارت المدينة محاصرة من كل الجوانب، كما صار أهلها رجالاً ونساءً وأطفالاً يواجهون موتًا محققًا، وأصاب البلدة كلها شعور بالجزع، ولكن ظل تفكير الرسول ﷺ مرتبطًا بالحفاظ على أداء الصلوات في أوقاتها المحددة. إن المسلمين لا يعبدون الله مرّة واحدة كل أسبوع شأن المسيحيين والهندوس، بل هم ملتزمون بالصلاة خمس مرات كل يوم. وعندما تنشب المعارك يكون من الصعب أداء صلاة واحدة في الجماعة، ناهيك بالحديث عن خمس صلوات في اليوم في جماعة. ولكنّ الرسول ﷺ كان يدعو إلى الصلاة الجامعة خمس مرات كل يوم حتى أثناء المعركة، ومع ذلك يصيبه الألم عندما يفوته أداء صلاة واحدة من هذه الصلوات بسبب هجوم العدوّ.

كان العدوّ يهاجم من الأمام، وخطّط بنو قريظة للهجوم من الخلف، ولكن بطريقة لا تؤدّي إلى تنبيه المسلمين إلى الخطر. لقد أرادوا دخول المدينة من ظهرها، وقتل كلّ النساء والأطفال المتحصّنين هناك. وأرسل بنو قريظة جاسوسًا ذات يوم ليرَى إن كان الحرّاس قد أرصدوا لحماية النساء والأطفال، وما هي قوّتهم. كان هناك حصن احتمت فيه بعض الأسر، وقد اعتبره العدو هدفًا خاصًا مهمًّا. وجاء الجاسوس، وأخذ يطوف بالحصن ويحوم حوله بريبة، وبينما هو كذلك إذا بصفية بنت عبد المطلب عمّة الرسول ﷺ قد رمقته، ولم يكن هناك سوَى رجل واحد في نوبة حراسته الواجبة، وكان مع ذلك مريضًا. وأخبرته صفية بما رأت، واقترحت عليه أن يقبض على هذا الجاسوس حتى لا يخبر العدو عن خلوّ حصن الأطفال والنساء من الحماية في ذلك الجزء من

البلدة. ولكن لم يستطع ذلك المسلم المريض أن يفعل شيئًا، فالتقطت صفية بنفسها عمودا وراحت تقاتل هذا الزائر الطفيلي، وبمساعدة نساء أخريات تمكنت من التغلب عليه وقتله. ولقد تبين بعد ذلك أن الرجل كان بالفعل عينًا لبني قريظة.

أصبح المسلمون متوَجّسين، فقد توَقعوا أن يشنّ عليهم العدوّ هجومًا بعد آخر من هذا الجانب الذي كانوا يظنونه آمنًا إلى حد بعيد، ولكن ثقل الهجوم من الأمام كان شديدًا لدرجة استغرقت كل القوّة المسلمة لمقاومته، ومع ذلك فقد قرر الرسول ﷺ إرسال جزء من القوّة التي معه لحماية النساء والأطفال. وكما سبق ذكره عند مناقشة أعداد المسلمين التي ذكرها المؤرخون في هذه المعركة، فقد أرسل الرسول من الألف ومائتي رجل، خمسمائة رجل ليقوموا بحماية النساء، ولم يبق إذن للدفاع عن الخندق سوى سبعمائة رجل، يقاتلون عدوًّا يتراوح تعداده من ثمانية عشر إلى عشرين ألفًا. ومع ذلك لم يفقد الكثير من المسلمين رباطة جأشهم إزاء الحشود الهائلة التي كان عليهم أن يواجهوها. وذهبوا إلى الرسول ﷺ وبيّنوا له كم كان الوضع حرجًا، وكيف أنه صار يبدو من المستحيل إنقاذ المدينة. وطلبوا منه أن يدعو الله تعالى، وطلبوا منه كذلك أن يعلمهم دعاء خاصًا بهذه المناسبة. وطمأنهم الرسول ﷺ ألا يخافوا وأن يدعوا الله أن يقيهم من ضعفهم، وأن يثبّت قلوبهم ويؤمّن روعاتهم ويُذهب عنهم الريب. وتوجّه هو إلى الله ﷻ بالدعاء التالي:

"اللهم مُنْزل الكتاب سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللــهم اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم." (البخاري، كتاب الجهاد والسير).

ودعا ثانية:

"اللهم يا سميع الدعاء من البائسين والمحزونين، يا مجيب الخــائفين، أذهب عني حزني وغمّي وخوفي، أنت الأعلم بمــا حشــدوا لي أنــا وأصحابي" (الزرقاني)

أصبح المنافقون أكثر قلقًا وأشدّ توترًا من المســلمين الآخــرين في القوة المسلمة، وتلاشى من قلوبهم كل احترام لاعتبــارات الشــرف والاحترام للجانب الذي كانوا فيه، أو لأمــن مدينتــهم ونســائهم وأطفالهم. ولما كانوا قد توقعوا الخزي والهزيمة، أرادوا ألا يحدث هــذا في وجودهم. لذلك بدأوا ينسلون الواحد بعد الآخر، تاركين المسلمين ومتعللين بأعذار هزيلة. وقد أشار القرآن المجيد إلى ذلك في الآية ١٤ من سورة الأحزاب حيث قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَــامَ لَكُــمْ فَــارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَــوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾

وقد وصف القرآن المجيد في الآيات التالية حالة المعركــة في تلــك اللحظة، والظروف التي أحاطت بالمسلمين وأحوالهم إزاءها:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَــتِ الأَبْصَــارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَــا ۞ هُنَالِــكَ ابْتُلِــيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِــي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ (سورة الأحزاب: ١١-١٤)

وقد ذكّر الله تعالى المسلمين في هذه الآيات، كيف هوجموا من الأمام بواسطة الأحزاب المتّحدة من القبائل العربية، ومن الخلف بواسطة اليهود، وذكّرهم بمدى الكرب الذي كانوا يعانونه حينئذ؛ أبصارهم زاغت، وقلوبهم بلغت الحلقوم، بل بدأ الشك يخالجهم في وعْد الله تعالى. كان المؤمنون إذن في محنة، كانوا في هزّة عنيفة جميعًا، فبدأ المنافقون وضعاف الإيمان يقولون: لقد خُدعنا كلنا بوعود زائفة من الله ونبيه المرسل، وبدأ جزء منهم يوهنون من عزيمة المسلمين الآخرين قائلين لا سبيل أمامنا إلا العودة. كذلك فقد وصف القرآن المجيد سلوك المؤمنين الحقيقيين المخلصين، فقال تعالى في الآيتين ٢٣ و ٢٤ من نفس السورة:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۞ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾

لم يكن المؤمنون الصادقون كالمنافقين وضعفاء الإيمان ومرضى النفوس. وعندما رأوا العدد الهائل للعدّو، تذكّروا أنّ الله ورسوله قد أخبرا بذلك بالفعل من قبل، وهذا الهجوم المنسّق من طرف قبائل

العرب لم يكن إلا إثباتًا لصدق الله ونبيه. لـــذلك بقـــيَ المؤمنـــون المخلَصون غير مزعزعين، بل إنهم ازدادوا من روح الطاعة، وامـــتلأوا بحماسة الإيمان وحميته. لقد انحاز المؤمنون الصادقون ومالوا بجمعهم مع الله وأوْفوا بعهدهم معه. ونال بعضـــهم مبتغـــاهم بالفعـــل ولقـــوا مصرعهم، والآخرون منهم ينتظرون الموت في ســـبيل الله لتحقيـــق أمنيتهم.

هاجم العدوّ الخندق بشراسة ودون انقطـــاع، ونجـــح أحيانًـــا في عبوره، ونجح مرة أحد قادة العدوّ في المرور عبره، ولكنهم هوجمـــوا بشجاعة بالغة من المسلمين فعادوا على أعقابهم. وفي هذه المعركة فقَدَ نوفل حياته، وهو من كبار قادة المشركين وزعمائهم، وكان من عظم مكانته لدى الكافرين أنهم لم يقبلوا ترك جثته عند المســـلمين؛ لـــذا أرسلوا للرسول ﷺ أنهم يقبلون دفع عشرة آلاف درهم إذا هو أعـــاد إليهم جثة زعيمهم هذا، وكان هذا ثمنًا باهظًا لجثة أحد الموتى. وقـــد قدّموا عرْضهم دون أيّ إحساس بالذنب، فقد مثّل الكافرون بجثـــث المسلمين في أحُد، وكانوا يخشون أن يفعل بهم المسلمون نفس الشيء، ولكن تعاليم الإسلام تختلف عن ذلك، فلقد حرّم الإسلام كلّ صـــور التمثيل بالجثث كافّة. وعندما تلقّى الرسول ﷺ عـــرْض المشـــركين ورسالتهم، قال إن المسلمين ليسوا بحاجة إلى جثة كهـــذه، وأنهـــم لا يبتغون شيئًا مقابل إعادتها، وإذا كانوا يريدون الجثـــة فليأخـــذوها. (الزرقاني ج٢، ص ١١٤)

ولا مانع من نقل مقطع في هذا المقام من كتاب السير وليم موير: "حياة محمد" (لندن ١٨٧٨ ص ٣٢٢) يصف بوضوح عنف الهجوم على المسلمين، فيقول:

"في الصباح التالي، وجد محمد كلّ قوات العدوّ وقد اصطفت على طول الخندق في مواجهته، واقتضى ذلك من جانبه يقظة وحــذرًا لا يفتران حتى يحبط مناورات العدوّ، فهم على ما يبدو يهدّدون بهجــوم عام شامل. ثم انقسموا إلى مجموعات تهاجم المواقع المختلفــة للــنبيّ ورجاله في سرعة وتوال يبعث على الارتباك. وفي النهايــة يحــاولون انتهاز فرصة لهم، فربما استطاعوا حشد كل قواتهم تجاه النقطة الأقــل حصانة، ومنها يحاولون عبور الخندق تحت غطاء وابل لا ينقطع مــن رمي السهام القاتلة. وبتكرار المحاولة، حدثت هجمات قويّــة مــن بعضهم نحو المدينة، بل نحو خيْمة النبيّ، من قِبَل قادة مشهورين مثــل خالد وعمرو، ولكنّ هذه الهجمات رُدّت على أعقابها بعــد هجــوم مضاد مستمر ورمي منهمر من السهام، وظل هذا دأبهم طول اليــوم. ولأن جيش محمد كان بالكاد كافيًا لحراسة خط دفاعه الطويل، فإنــه لم يكن يجد متنفسًا للراحة. وحتى في الليل، فقد ظل خالد مع قوة من فرسانه الأشداء يصعّد هجومه، ويهدّد خط الدفاع، ويهاجم مخــافر المسلمين الأمامية والمرصودة على مسافات متكررة مهمة. ولكن كل هذه المحاولات المعادية كانت بلا أثر، و لم يتمّ عبور الخندق".

واستمرت المعركة ليومين، و لم يكن هناك قتال متلاحم يدًا بيــد، و لم تُسفك الكثير من الدماء، إذ لم يسقط من جانب العــدوّ خــلالً

أربع وعشرين ساعة من القتال سوَى ثلاثة قتلى، وخمسة في جانب المسلمين، وجُرح سعد بن معاذ ﷺ زعيم قبيلة الأوْس وأحد المؤمنين المخلصين المحبين لرسول الله. وقد أدّى تكرار الهجوم إلى إحداث بعض الخسائر، مما سهّل الهجوم المتوالي. وتجلت مواقف عظيمة للشجاعة والولاء، ففي ليلة كانت باردة، بل ربما كانت أبرد ليلة في الجزيرة العربية، تروي لنا السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ أنه كان يستيقظ من نومه مرارًا ليحرس الأجزاء التي ضعفت من الخندق، حتى إذا أصابه التعب عاد إلى فراشه لينال شيئًا من الدفء، ثم يذهب ثانية لحراسة الخندق. وفي أحد الأيام بلغ منه التعب مبلغًا حتى بدا تمامًا أنه لا يستطيع الحركة، فقال إنه يرغب أن يحل محله أحد المسلمين المخلصين ليريحه قليلاً من الجهد البدني في حراسة الخندق في برد الليل. ولفوره سمع صوتًا، وكان لسعد ابن أبي وقاص ﷺ، ولما سأله عن سبب مجيئه قال إنه جاء لحراسته. فقال الرسول ﷺ إنه ليس في حاجة لأن يحرسه أحد، والأوْلى بسعد أن يحرس ذلك الجزء من الخندق الذي أصابه الدمار حتى يكون المسلمون في أمان. فذهب سعد للمهمة، واستطاع الرسول ﷺ أن يحصل على قسط من الراحة. ولعلها كانت من المصادفات أنه لما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة، وهدّدت سلامته بعض الأخطار، كان سعد بن أبي وقاص أيضًا هو الذي ذهب لحراسته.

وفي مناسبة أخرى في ذلك اليوم العصيب، سمع الرسول ﷺ صوت سلاح، فسأل عمّن يكون، وجاءت الإجابة بأنه عَبَّاد بن بِشْر ﷺ. فسأله الرسول ﷺ عما إذا كان معه أحد، فقال عَبَّاد إنه معه بعض

أصحاب رسول الله، وأنهم يحرسون خيْمته. فطلب منهم الرسول ﷺ أن يدَعوا خيْمته، وأن يذهبوا بالحريّ لقتال المشركين الذين يريـــدون عبور الخندق. (السيرة الحلبية ج٢)

وكما ذكرنا من قبل، حاول اليهود أن يدخلوا المدينة خفية، وفقد جاسوس يهودي حياته في المحاولة، وحين عرفوا أن كيدهم انكشـــف بدأوا في التعاون جهْرة مع الأحزاب. ولم تقع محاولة منسّقة للـــهجوم من الخلف، لأن هذا الجانب كان ضيّقًا، وبوجود الحـــرس المســـلم المرصود هناك صار من المستحيل القيام بهجوم كاسح. ولكـــن بعـــد بضعة أيام، قرر اليهود والأحزاب الوثنيون القيـــام بهجـــوم متـــزامن ومفاجئ على المسلمين.

قوات الأحزاب تتشتت

ولقد أحبط الله هذه الخطة البالغة الخطورة بتدبير معجز. فإن نُعَيْم بن عبد الله من قبيلة غطفان مال إلى الإسلام، وكان قد جاء مع جيش الوثنيين يتحين الفرص لكي يُعين المسلمين. لم يكن يســـتطيع عمـــل الكثير بمفرده، ولكنه لما رأى اليهود قد ضمّوا جهـــودهم إلى جهـــود العرب ليناصروهم، وبدا أن المسلمين يواجهون موتًا محتّمًا وهلاكًـــا مؤكدًا، عقد نُعيْم العزم على أن يفعل ما في وسعه لإنقاذ المســـلمين. لقد كان يكتم إسلامه، فذهب إلى بني قريظة وحـــادَث رؤســـاءهم، وسألهم عما هم صانعون إذا ذهبت جيوش العرب، وماذا يتوقعون أن يصنع بهم المسلمون. كان بعض اليهود يميل إلى البقاء على عهده مـــع

المسلمين، و لم يكن هؤلاء على استعداد لتحمّل العقاب الشديد بسبب البعض الآخر الذين تبين أنه لا عهد لهم.

وقد بعثت هذه التساؤلات العقلانية الخوف في نفوس القادة اليهود، فسألوه عما يجب عليهم فعله. فنصحهم نُعيْم أن يطلبوا سبعين رهينة من المشركين. فإذا كان المشركون جادّين في القيام بهجوم منسّق معهم، فلن يرفضوا الطلب. وأوصاهم أن يقولوا للمشركين إن هؤلاء السبعين سوف يقومون بحراسة بعض الأماكن الهامة، بينما يقومون هم بأنفسهم بمهاجمة المسلمين من الخلف. وبعد هذا الحديث مع اليهود، ذهب نُعيم إلى قادة جيش المشركين وسألهم عما هم صانعون إذا عاد اليهود إلى حلفهم مع النبيّ، أو إذا حاولوا استرضاء المسلمين بطلب رهائن من المشركين ثم سلموهم للمسلمين. وقال لهم إنه من الأهمية بمكان أن يختبروا إخلاص اليهود، فيطلبوا منهم المساهمة في هجوم عام شامل على الفور الآن. وتأثر قادة المشركين بهذه النصيحة وعملوا بها، فأرسلوا رسالة إلى اليهود يطلبون منهم الهجوم فورًا على المسلمين من الخلف، لكي يتمكن جيش الأحزاب من الهجوم من المقدّمة. فأجاب اليهود بأن اليوم التالي هو يوم السبت، وأنهم لا يستطيعون أن يقاتلوا المسلمين في هذا اليوم. وقالوا أيضًا إنهم يعيشون في المدينة بينما يعيش الأحزاب خارجها، فإذا حدث أن انسحب العرب من المعركة، فماذا يكون مآلهم مع المسلمين. ولذلك طلبوا من الأحزاب أن يبعثوا إليهم بسبعين من رجالهم كرهينة حتى يمكنهم في تلك الحال أن يقوموا بدورهم في الهجوم. وبدأ الشك يعمل

في القلوب. ورفض الأحزاب أن يجيبوا اليهود إلى طلبهم، وأدركوا أن لو كان اليهود مخلصين فعلاً في اتفاقهم، فليس هناك ما يستدعي تقديم مثل هذا الطلب. وساورهم الشك في صدق نيّة اليهود، بينما شك اليهود في صدق نيّة الأحزاب. وكما يقال، إن الشك يقضي على الشجاعة، فتخاذل الفريقان، ودبّت الفُرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم، وفقدت جيوش العرب حماسها وحميتها. وعندما جاء المساء، ذهبوا إلى النوم مرهقين بمشاعر الشك والضيق وأشكال الحرج. فذهب الجند والقادة إلى خيامهم يملؤهم الإحباط وتسيطر عليهم الكآبة.

ثم حدثت المعجزة، وجاءت مساعدة السماء إلى المسلمين. بدأت الريح القاصفة تعصف، فقوّضت خيام المشركين، ولم تدع قِدرًا إلا أكفأتها، ولا نارًا إلا أطفأتها، واقتلعت حبال الخيام.

كان العرب يتفاءلون بالنار المشتعلة في المكان، ويتشاءمون من انطفائها. وعندما تصبح النار يوما مطفأة أمام خيمة، فإن سكانها يعتبرون ذلك نذير شُؤم، ويعزمون على التراجع في هذا اليوم، وأن يعودوا بعد ذلك للاشتراك في الهجوم. وكانت الشكوك قد عصفت بالقادة قبل أن تعصف بهم الريح. وعندما حزَم بعض المعسكرين متاعهم للانسحاب، ظن الآخرون أن المسلمين قاموا بهجوم كبير ليلاً. وانتشر هذا الظن بين جموع الأحزاب كما ينتشر الوباء المعدي، وبدأ الجميع يحزم متاعه وينصرف من الميدان. ويُروَى أن أبا سفيان كان نائمًا في خيمته فبلغت مسامعه أخبار الانسحاب المفاجئ لفرق

المشركين، فنهض مرتجفًا، وسارع إلى ركوب جمله الذي كان موثقًا في عقاله، وهمز البعير، ولكن الجمل لم يتحرك. فأشار أصدقاؤه إلى أن الجمل مربوط، وتم حل عقال البعير، وأصبح بإمكانه هو وصحبه أن يخلوا الميدان.

عندما مضى ثلثا الليلة كان قد تم إخلاء المكان تمامًا، واختفى جيش مؤلف من عشرين إلى خمسة وعشرين ألف مقاتل ومرافق تابع، تاركين خلفهم الميدان خاويا. وفي نفس هذا الوقت تلقّى الرسول ﷺ وحيًا يخبره أن العدوّ قد فر نتيجة لما فعله الله تعالى بهم. وأراد الرسول ﷺ أن يستطلع ما حدث، ورغب أن يرسل أحد أتباعه ليمسح الميدان بعينيه ويعرف ما حدث ثم يقدم لـه تقريرًا بالأمر. كان الجوّ باردًا كالثلج، ولا عجب أن أطراف المسلمين قد تجمّدت من شدة البرد، حيث إنهم لم يكونوا يرتدون ما يكفي من الملابس لمقاومة البرد. وسمع بعضهم صوت الرسول ﷺ ينادي، وأرادوا أن يجيبوه ولكنهم لم يستطيعوا؛ فقد منعهم البرد تمامًا من القدرة على النطق، ما عدا حُذيْفة الذي أجاب في صوت جهْوَريّ: "نعم يا رسول الله، ماذا تأمرنا أن نصنع"؟ فنادى مرة أخرى، و لم يجب أحد هذه المرة أيضًا إلا حُذيفة الذي أجاب ثانية. فأمر الرسول ﷺ حُذيفة أن يذهب ويستطلع ميدان المعركة، لأن الله تعالى أخبره أن العدوّ قد ولى الأدبار. فذهب حذيفة قريبًا من الخندق، ومن هناك رأى أنّ العدوّ قد أخلى الميدان، فلم يكن هناك جنود ولا رجال. وعاد حُذيفة إلى الرسول ﷺ فقرأ عليه كلمة الشهادة، وأخبره أنّ العدوّ قد انسحب. وفي الصباح، بدأ المسلمون

يزيلون خيامهم أيضًا، وجمعوا متاعهم ليعودوا أدارجهم إلى المدينـــة. لقد انتهت محنة خطيرة دامت ما يقرب من عشرين يومًا.

بنو قريظة ينالون العقاب

تنفس المسلمون الصعداء في أمان مرة ثانية، ولكنهم كانوا يعيشون مع بني قريظة في بلدة واحدة، وقد خان بنو قريظـــة عهـــدهم مـــع المسلمين، وهذا ما لا يمكن السكوت عليه.

جمع الرسول قواته المنهكة وأخبرهم أنهم لا يجوز لهم الراحة الآن، وأمرهم ألا يُصلّوا العصر إلا في بني قريظة، وأن يهاجموا حصـــونها، ثم أرسل عليًّا رضي الله عنه ليسألهم لماذا نقضوا عهدهم مع المسلمين؟ ولم يبدِ بنو قريظة ندمًا أو أسفًا، أو أيّ ميْل لطلب الصفح، بل إنهم بدلاً من ذلك قاموا بإهانة عليّ رضي الله عنه ورجال الوفد الذين كانوا معه. وبدأوا يســبّون الرسول ﷺ ونساء بيته سبًّا قبيحًا فاحشًا، وقالوا إنهم لا يقيمون وزنًا للرسول، ولم يكن لهم يومًا عهد معه.

وحين عاد عليّ ليطلع الرسول ﷺ على ردّ اليهود، وجـــده هـــو والصحابة متجهين نحو حصونهم، ولدى وصوله عاود اليهود ســبّ الرسول ﷺ وأزواجه وبناته.

وحرصًا على عدم إصابة الرسول ﷺ بالألم والأذى لسماعه سباب اليهود، فقد اقترح عليّ أن يضطلع الصحابة بمعالجة الأمر دون وجود الرسول ﷺ. وفهم رسول الله المراد، وسأل عليًّا ما إذا كان يرغب به عن سماع سبّهم، فأجاب عليّ بالإيجاب. فذكر الرسول ﷺ أن موسى

كان من بني جلدهم وأقرب الأقرباء إليهم، ومع ذلك فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر.

واستمر الرسول ﷺ في تقدمه. ونصب اليهود دفاعاتهم وبدأوا يقاتلون، وانضمت إليهم نساؤهم. كان بعض المسلمين يقفون عند أسفل حائط الحصن، فألقت امرأة يهودية حجرًا ضخمًا عليهم عندما لمحتهم فقُتل أحدُهم ويسمى خلادا. وضُرب الحصار عليهم أيامًا، وفي نهايتها أحس اليهود بالعجز عن الاستمرار تحت الحصار، فأرسل زعماؤهم إلى الرسول ﷺ رسالة يطلبون فيها أن يرسل إليهم أبا لبابة ﵁؛ وهو زعيم من الأوس الذين كانوا في علاقة معهم قديمًا. لقد أرادوا استشارته حول التسوية الممكنة، فأرسل الرسول ﷺ أبا لبابة إلى اليهود، فسألوه عما إذا كان الأصلح لهم هو النّزول والاستسلام وقبول حكم الرسول ﷺ، فقال أبو لبابة إن ذلك هو ما يجب فعله، لكنه في نفس الوقت قام بإمرار أصبعه على عنقه يعطيهم إشارة الموت، وكان ذلك من عند أبي لبابة لا من عند الرسول ﷺ.

لم يكن الرسول قد قال شيئًا لأحد عن هذا الموضوع، ولكن أبا لبابة تصوّر في فكره أن الجريمة التي ارتكبها اليهود لا تستحق إلا عقوبة الموت، فأشار بهذه العلامة متسرعًا، حيث عبر بها عن مصير الموت الذي ينتظرهم. لذلك رفضوا نصيحته المنطوقة، ورفضوا قبول حكم الرسول ﷺ فيهم، ولو كانوا قبلوه فإن أقصى عقاب كان ينتظرهم هو الطرد من المدينة، ولكن حظهم السيء دفعهم لرفض حكم الرسول ﷺ، وأرسلوا يقبلون حكم سعد بن معاذ ﵁، زعيم

حلفائهم من الأوس؛ راضين بأيّ عقاب يعرضه سعد عليهم. ودبّ خلاف بين اليهود، فبدأ بعضهم يقول إن اليهود هم الذين نقضوا الميثاق مع المسلمين، وإن المسلمين أثبتوا أنهم على العكس أمناء وصادقين، وأن دينهم أيضًا صادق. وهؤلاء الذين قالوا ذلك انضموا للمسلمين. كذلك قام زعيم من زعماء اليهود، هو عمرو بن سعدي، يلومهم ويُبكّتهم قائلاً: "لقد نكثتم العهد، ورجعتم في كلمتكم التي قطعتموها على أنفسكم، والطريق المتاح لكم الآن هو الإسلام أو دفع الجزية".

فقالوا: "أبدًا لن نعتنق الإسلام، ولن نعطي الجزية، الموت أحب إلينا من دفع الجزية". فأجاب عمرو، أنه بذلك يكون قد فعل ما عليه، وقد أعذر إليهم فلا لوم عليه، قال ذلك وغادر الحصن.

ورآه محمد بن مسلمة، قائد مفرزة للمسلمين، فسأله من يكون، وعرف هويته فتركه يمضي في سلام، ودعا محمد ابن مسلمة الله قائلاً: "اللهم أعنّي أبدًا على ستر أخطاء الصالحين".

وما كان يعنيه هو أن هذا اليهودي قد أبدى الندم والأسف، ولام قومه على سلوكهم، والواجب الخلقي يحتّم على المسلمين أن يعفوا عن رجال مثله، ويتركوهم يمضون في سلام. وأنه بتخلية سبيله يكون قد فعل عملاً صالحًا، ودعا الله أن يعينه على أعمال مماثلة مرارًا وتكرارًا. ولما علم الرسول ﷺ بما فعل محمد بن مسلمة، لم يلمه على تركه لهذا القائد اليهودي، بل وافقه ورضي عما فعله.

كان بعض الأفراد فقط من اليهود هم الذين فضلوا قبول السلام والنّزول على حكم الرسول ﷺ، وأما الأغلبية من قبيلة بني قريظة ظلوا على رأيهم، فرفضوا حكم الرسول ﷺ وطلبوا بدلاً من ذلك حكم سعد بن معاذ (البخاري، والطبري). وقبِل الرسول ﷺ طلبهم، وأرسل إلى سعد، الذي كان يرقد جريحًا، أن يأتي ويصدر حكمه على اليهود الذين نكثوا الميثاق. وحالما أعلن الرسول ﷺ قراره، أسرع أفراد من قبيلة الأوس الذين كانوا حلفاء لبني قريظة طويلاً إلى سعد، وضغطوا عليه ليصدر حكمًا في مصلحة بني قريظة، وقالوا له إن الخزرج طالما حاولوا إنقاذ حلفائهم من اليهود، وعلى سعد بدوره أن ينقذ حلفاء الأوس قبيلته . وذهب سعد راكبًا إلى بني قريظة يُحيط به رجال قبيلته من جانبيه يحثّونه ألا يعاقب بني قريظة. وكان كل ما رد به سعد عليهم هو أن الشخص الذي أُسند إليه إصدار حكم من الأحكام يحمل أمانة، وأن عليه أن يؤدّي أمانته بشرف وكرامة، وقال إنه سوف يصدر حكمه واضعًا في حسابه كل الاعتبارات، وأيضًا بلا رهب ولا رغب. وعندما بلغ حصن اليهود رأى بني قريظة مطلين عليه مصطفين على أسوار الحصن ينتظرونه، وفي الجانب الآخر وقف المسلمون. واقترب سعد من المسلمين وسألهم: "أتقبلون حكمي"؟ قالوا: "نعم".

حكم سعد يتوافق مع التوراة

توجّه سعد بدوره إلى بني قريظة وسألهم نفس السؤال، فوافقوا كذلك. عند ذلك توجّه سعد على استحياء إلى الجانب الذي يقف فيه

الرسول ﷺ، وسأل ما إذا كان الجمع في هذا الجانب يقبل حكمه، فلما سمع الرسول ﷺ السؤال قال: "نعم". (الطبرى وابن هشام)

عند ذلك أصدر سعد حكمه حسب تعاليم التوراة، التي تقول:

"حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريم الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحيويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم". (سفر التثنية ٢٠: ١٠ – ١٨)

فحسب تعليمات التوراة، لو انتصر اليهود وهُزم الرسول ﷺ، فكل المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً سيلقون مصرعهم. ونعلم من التاريخ أن هذا كان قصد اليهود، وأقل ما كان سيصنعه هؤلاء هو قتل الرجال واستعباد النساء والأطفال، وإتلاف كل ممتلكات المسلمين أو نهبها، فهذه هي التعاليم المدوّنة بسفر التثنية في التعامل مع الأمم المعادية التي تسكن أقطارًا بعيدة.

كانت تربط سعد ببني قريظة علاقة طيبة، وكانت قبيلته في حلف معهم. وعندما رفض اليهود حكم الرسول ﷺ، ورفضوا بذلك الحكم الأخفّ الذي يقضي به الإسلام، قرر أن يُنْزل بهم الحكم البديل، وهو الحكم المكتوب في كتاب موسى عليه السلام.

إن مسئولية هذا الحكم لا يتحمّلها الرسول ﷺ ولا المسلمون، بل يتحمّلها تعليم موسى عليه السلام، ويتحمّلها اليهود الذين عاملوا المسلمين بكل وحشية.

كانت لديهم الفرصة لقبول حكم رحيم، وهو حكم الإسلام الذي كان سيصدره رسول الله، وهو من بعثه الله تعالى رحمة للعالمين. وبدلاً من قبول حكم الإسلام أصرّوا على قبول حكم سعد، ولم يكن لسعد من خيار سوَى أن يُصدر حكمه حسبما ورد في كتاب موسى عليه السلام. وإلى الآن، يقوم المسيحيون دون انقطاع بتشويه سمعة الرسول ﷺ قائلين إنه كان قاسيًا مع اليهود. والسؤال هو: لو كان الرسول قاسيًا مع اليهود، فلم لم يكن قاسيًا مع الشعوب الأخرى أو في المناسبات الأخرى؟

هناك مرات عديدة ألقت شعوب وقبائل بنفسها تحت رحمة حكم رسول الله، ولم يحدث أن ضاع طلبهم للعفو دون جدوَى.

وفي هذه المناسبة أصرّ العدوّ على حكم شخص غير الرسول ﷺ، واختاروه هم بأنفسهم، فقام بدوره كحَكَم بينهم وبين المسلمين، وسأل الرسول ﷺ كما سأل اليهود في العلن أمام الجميع إذا كانوا يقبلون حكمه، أي أنه لم يصدر حكمه إلا بعد موافقة الأطراف عليه

جهارًا. ثم ماذا كان حكمه؟ لم يكن سوى تطبيق لحكم شريعة موسى على المذنبين من اليهود، فلماذا لا يقبلونه؟ ألا يُعدّون أنفسهم أتباعًا لموسى عليه السلام؟ فإذا كان هناك سبب للقسوة، فهو قسوة اليهود على اليهود. لقد رفض اليهود حكم الرسول ﷺ فاستجلبوا بدلاً منه تطبيقًا لشريعتهم الدينية عقوبة لإثمهم.

لو كانت هناك قسوَة تم ارتكابها، فيُسأل عنها موسى عليه السلام إذن الذي سجّل هذه العقوبة للعدوّ المحاصر، وكتب في كتابه أن هذه العقوبة كانت بأمر الربّ، وليس من حق الكُتّاب المسيحيين أن يصبّوا جام غضبهم على نبيّ الإسلام ﷺ، بل عليهم أن يدينوا موسى عليه السلام الذي سجّل هذه العقوبة القاسية، أو لعلهم يدينون الكتاب المقدس الذي سُجّلت فيه هذه العقوبة.

انتهت معركة الخندق، وأعلن الرسول ﷺ أن المشركين لا يغزون المسلمين بعد اليوم، بل يغزوهم المسلمون بدلاً من ذلك. كان المد في طريقه ليتحوّل إلى جزْر، وكان المسلمون في طريقهم إلى الهجوم على القبائل والأحزاب التي طالما هاجمتهم بلا مسوّغ وتحرّشت بهم دون مبرر. ولم يكن كلام الرسول تهديدًا أجوف ، ففي معركة الخندق لم يخسَر الأحزاب شيئًا يُذكر، وكل ما فقدوه هو بضعة رجال. وفي أقل من عام كان من الممكن لهم أن يأتوا لمعاودة الهجوم على المدينة، مع استعداد أحسن وتجهيز أفضل. وبدلاً من جيش تعداده عشرون ألفًا، كان باستطاعتهم رفع العدد في الهجوم الجديد إلى أربعين أو حتى خمسين ألفًا. وهؤلاء لا يصعب عليهم هزيمة جيش من ألف

وخمسمائة. ولكن ها هم المشركون، بعد مُضيّ واحد وعشرين عامًا، وبعد أن بذلوا أقصى ما في وسعهم للقضاء على الإسلام والمسلمين، يهتزّون بعد الفشل المستمر لخططهم. لقد بدأ الشك يساورهم أن يكون دين محمد ﷺ صحيحًا، وأن تكون هذه الأصنام والأوثان القومية مجرد زيف، وأن يكون الله الخالق الذي لا يُرى، والذي يتكلم عنه محمد ﷺ هو الحق.

بدأ الخوف يغزو قلوبهم خشية أن يكون محمد ﷺ على حق، وأن يكونوا هم على باطل، ومع ذلك لم يتجلَّ هذا الخوف على تصرفاتهم. فمن الناحية المادية، أخذ الكافرون يسلكون نفس السلوك الذي عهدوه، وراحوا إلى أوثانهم يتوجّهون إليها بالدعاء كما هي عادتهم، ولكن روحهم الداخلية كانت قد انكسرت. في الظاهر عاشوا حياة المشركين والكافرين، وفي الداخل بدأت قلوبهم تردّد صدى شعار المسلمين أنه لا إله إلا الله.

وكما سبق أن ذكرنا، قال الرسول ﷺ بعد موقعة الخندق: ''الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسيرُ إِلَيْهِمْ''. لقد بلغت درجة تحمّل المسلمين أقصاها، وحان الآن لموجة المد أن تنقلب. (البخاري - كتاب المغازي).

هل أراد رسول الله استمرار الحرب؟

في المعارك التي وقع فيها قتال، كان المسلمون إمّا في المدينة أو خرجوا على مسافة قريبة منها لصد هجوم الكافرين. لم يبدأ

المسلمون هذه المعارك، و لم يُبدوا أبدًا أيّة رغبة في استمرارها بعد أن بدأت، فهم لم يحرصوا بتاتًا على استمرار الحرب.

وعادة عندما تبدأ المعركة بين طرفين، فإنها يمكن أن تنتهي بإحدى طريقتين لا ثالث لهما: إما سلام يُتفق عليه، أو يخضع أحد الطرفين للآخر. وفي المعارك التي وقعت بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، لم يحدث أيّ إلماح إلى السلام، ولا خضع طرف من الأطراف للآخر. صحيح أن القتال كان يتوقف أحيانًا، ولكن لا يمكن القول إن الحرب بينهما قد توقفت في هذه الوقفات المؤقتة. وحسب العرف المعمول به، كان من حق المسلمين أن يهاجموا القبائل المعادية ويجبروهم على الاستسلام، ولكنهم لم يفعلوا ذلك. فعندما كان العدوّ يكفّ عن القتال، كان المسلمون يتوقفون كذلك. كانوا يتوقفون وهم يتصوّرون أن الكفّ عن القتال قد يعقبه كلام عن السلام. ولكن بعدما صار واضحًا أن الحديث عن السلام لا وجود له مع المشركين، ولا يبدو أن لديهم أية نية في الخضوع، فكّر الرسول ﷺ أنه ربما قد حان الوقت لإنهاء الحرب، إما بعقد اتفاق للسلام أو بخضوع طرف للآخر، ولكن لا بد من إنهاء حالة الحرب لكي يحل السلام. ويبدو أنه بعد موقعة الخندق، عقد الرسول ﷺ العزم على تحقيق أحد الأمرين: إما السلام أو الاستسلام. وكان من المستحيل بالطبع أن يستسلم المسلمون للكافرين، فلقد كان وعْد الله لهم هو تمام نصر الإسلام على المشركين الذين عارضوه واضطهدوا المسلمين، وقد أعلن الرسول ﷺ هذا الوعد مرارًا في مكة قبل الهجرة. فهل كان على المسلمين أن

ينادوا بالسلام؟ إن طلب السلام يمكن أن يأتي من الجانب الأقـــوى أو الأضعف، وعندما يطلب الطرف الأضعف السلام، فإنه بذلك يتنازل مضطرًا – سواء بشكل مؤقت أو على الدوام – عن بعضٍ من أرضه أو دخله، أو يقبل مضطرًا أية شروط أخرى يفرضها العــدوّ عليــه. وعندما يعرض الجانب الأقوى سلامًا، فإن هذا يعني أنه لا يهدف إلى القضاء على الطرف الأضعف قضاءً تامًا، بل يعني أنه يريد أن يتركــه ليحتفظ باستقلال كامل أو جزئي، وذلك في مقابل شــروط معينــة يفرضها عليه. وفي المعارك التي نشبت حتى ذلك الوقت بين المشركين والمسلمين، فشل المشركون مرة بعد أخرى في تحقيق أهدافهم، غير أن قوّهم لم تكن قد تحطمت بعد، وكل ما حدث هو أنهــم فشــلوا في محاولاتهم للقضاء على المسلمين. والفشل في القضاء على العدوّ لا يعني الهزيمة، بل يعني أن الهجوم لم ينجح، وقد ينجح إذا تكــرر الهجــوم. وهكذا لم يكن أهل مكة قد تلقوا الضربة القاصمة بعد؛ بل كل مــا حدث هو فشل عدوانهم على المسلمين. ومن الناحية العسكرية، كان المسلمون قطعًا هم الجانب الأضعف. صحيح أنهم صمدوا في الدفاع عن أنفسهم، ولكنهم كانوا لا يزالون يشكلون الأقليــة الأضــعف، الأقلية التي لم تكن قادرة على اتخاذ مبادرة الهجوم، وإن كانــت قــد نجحت في مقاومة هجوم الأكثرية. ولذلك لم يكن المســلمون قــد أسسوا صرح استقلالهم حتى ذلك اليوم، ولو أنهم دعوا إلى الســلام لفُهم من ذلك أن دفاعاتهم قد انهارت، وأنهم أصــبحوا الآن علــى استعداد لقبول ما يمليه عليهم المشركون. لذلك فإن عرضًــا لطلــب

السلام من جانبهم يكون كارثة على الإسلام، وهو يعني إلقاء أنفسهم إلى التهلكة، وقد يبعث الروح من جديد في عدوّ أوْهنته المحاولات الفاشلة المتكررة التي قام بها، وقد تتيح له فرصة لتجديد الآمال وإذكاء الطموحات لديه، وربما ظن الكفار أن المسلمين، رغم نجاحهم في إنقاذ المدينة، إلا أنهم قد صاروا يتشككون في تحقق نصرهم النهائي وتحقيق غلبتهم على المشركين. ولذلك، فلا يمكن أن يصدر الاقتراح بطلب السلام من الجانب المسلم، وإنما يمكن أن يأتي من جانب أهل مكة، وهو الجانب المعتدي، أو من طرف ثالث، إذا كان للطرف الثالث وجود، ولكن لا يوجد طرف ثالث في هذا الصراع، فقد كانت المدينة تقف ضد جميع العرب في الجزيرة العربية. وبذلك فإن المشركين وحدهم هم الذين كان عليهم أن يبادروا المسلمين بالسلام، غير أنه لم تكن هناك علامة واحدة في هذا السبيل، مما يعني أن الحرب بين العرب والمسلمين كان يمكن أن تستمر إلى الأبد. فالمسلمون لا يمكنهم عرض السلام، والعرب لا يريدون عرض السلام، وعلى ذلك فقد بدا أنها حرب أهلية بلا نهاية، على الأقل لمائة سنة قادمة.

كان هناك سبيل وحيد للمسلمين إذا أرادوا وضع نهاية لهذا الصراع، وهم لم يكونوا مستعدين أن يُخضِعوا عقولهم وعقائدهم للعرب، وأن يتنازلوا عن حقهم في الإيمان بما يرونه حقًّا، وأن يمتنعوا عن ممارسة شعائر الدين الذي يؤمنون به وعن الدعوة إليه، وفي نفس الوقت، لم تكن هناك أية بادرة لإحلال السلام من جانب المشركين. كان المسلمون قادرين على دفع هجوم المشركين المتكرر، وهذا يعني

أنه ينبغي لهم أن يدفعوا العرب إلى الاستسلام أو إلى قبول السلام، وهذا هو ما قرر الرسول ﷺ أن يفعله.

فهل كانت الحرب هي ما ابتغاه الرسول ﷺ؟ لا. لم تكن الحرب، بل هو السلام الذي أراد الرسول ﷺ أن يقيمه ويُرسي دعائمه. ولو أنه لم يفعل شيئًا في هذا الوقت، فإن الجزيرة العربية كانت ستظل في قبضة الحرب الأهلية، والخطوة التي اتخذها ﷺ كانت هي الخطوة الوحيدة نحو إحلال السلام. لقد سجّل التاريخ وقوع حروب طويلة عديدة، استغرق بعضها مائة عام، والبعض ثلاثين عاما أو نحوها أو أكثر، وما كانت الحروب الطويلة لتستمر إلا بسبب الافتقار إلى خطوة حازمة يخطوها طرف من الطرفين. والخطوة الحازمة كما قلنا ليس لها إلا أحد وجهين، الاستسلام التام أو التفاوض لإقرار السلام.

فهل كان ينبغي للرسول ﷺ أن يتخذ موقفًا سلبيا؟ هل كان ينبغي له أن ينسحب مع قوته الصغيرة من المسلمين، ويقبع خلف جدران المدينة، تاركًا كل شيء آخر في مهب الريح؟ مستحيل. لقد كان المشركون هم الذين بدأوا بالهجوم، و لم تكن السلبية لتعني انتهاء الحرب بل استمرارها؛ فإن السلبية تعني أن للمشركين أن يهاجموا المدينة متى يحلو ذلك لهم، وأن يتوقفوا عن الهجوم أو يعاودوه كما يشاءون. وتوقف المعركة لبعض الوقت لا يعني انتهاء الحرب، وإنما يعني فقط مناورة استراتيجية.

تعاليم اليهودية والمسيحية عن الحرب

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: هل يجوز القتال من أجل الدين؟ ولنبدأ بمعالجة هذا السؤال أولاً.

إن التعاليم الدينية عن الحرب تتخذ صورًا شتى. وقد ذكرنا فيما سبق تعاليم العهد القديم، التي جاءت في التوراة إلى موسى تأمره بدخول أرض كنعان بالقوة لهزيمة سكانها وإسكان شعبه فيها، (التثنية ٢٠: ١٠ – ١٨)

وعلى الرغم من وجود هذا التعليم في شريعة موسى، وعلى الرغم من تطبيقه عمليًا على يد النبي يوشع والنبي داود وآخرين، فإن اليهود والمسيحيين لا يزالوا يشيدون بأنبيائهم ويعتبرون كتبهم كتبًا سماوية من عند الله تعالى.

وعندما انتهى العهد القديم، وجدنا يسوع يعلم في الإنجيل:

"وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا" (متى ٥: ٣٩).

ولطالما ذكر المسيحيون هذا البيان الصادر عن يسوع، واحتجوا به على أنه كان يعلم ويعظ تعليمًا مضادًا للحرب، ولكنا نجد في أناجيل العهد الجديد فقرات مفادها العكس تمامًا، تقول فقرة منه على سبيل المثال، في إنجيل متّى ١٠: ٣٤:

"لا تظنوا إني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا".

وفي فقرة أخرى يقول:

"فقال لهم: ولكن الآن من لـــه كيس فليأخذه ومِـــزوَد كـــذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفًا" (إنجيل لوقا ٢٢ :٣٦).

هاتان الفقرتان الأخيرتان من الفقرات الثلاث الســـابقة تناقضـــان الأولى، فإذا كان المسيح قد جاء للحرب، فلماذا يدعو إلى إدارة الخد الآخر؟ من الواضح أنه ينبغي إما التسليم بوجود تناقض في الإنجيل، أو أن علينا تأويل التناقض على وجه مناسب.

ولسنا معنيين في هذا المقام بقضية ما إذا كانت إدارة الخد الآخـــر أمرًا قابلاً للتطبيق على وجه الإطلاق، ولكن ما يعنينا هنا أن نشـــير ونؤكد أن الدول المسيحية كلها طوال التاريخ لم تتردد في الذهاب إلى الحرب ولم يديروا الخد الآخر. وعندما نال المسيحيون الملك والسُلطة لأول مرة، فإنهم دخلوا الحروب مهاجمين ومدافعين. وهم الآن قُـــوى مسيْطرة في العالم، ولا زالوا متورطين في الحروب مدافعين ومهاجمين. وفي هذا العصر الحالي نجد أنه إذا انتصر جانب منهم، مجّدتـــه بقيـــة الشعوب المسيحية، واعتبروا انتصاره انتصارًا للحضـــارة المســـيحية، وأصبحت الحضارة المسيحية في كل صورها تعني الهيْمنة والنجـــاح. وعندما تتحارب دولتان مسيحيتان، فإن كلاً منهما تدّعي أنها تحمـــى المثل المسيحية، ويتم تمجيد الدولة المنتصرة باعتبارها الدولة المســـيحية الحقيقية. ومن الواضح أنه منذ زمن المسيح وإلى عصرنا هذا، ظلـــت المسيحية تخوض غمار الحروب، وتشير كل الشواهد إلى أنها ســـوف تظل على نفس الحال.

وإذن فالفتوَى العملية للمسيحية هي أن الحرب تُعبر عن التوجيه الحقيقي لتعاليم العهد الجديد، وأن موضوع إدارة الخد الآخر هذا، لم يكن إلا تعليمًا انتهازيًا أملاه العجز التام للمسيحيين الأوائل، أو أن المقصود به هو أن يُطبّق على الحالات الفردية، لا على الدول ولا على الشعوب.

وثانيًا، حتى لو افترضنا أن المسيح قد أمر بالسلام لا الحرب، فلا يعني هذا أن من لا يتّبعون تعاليمه لم يكونوا قديسين أو شرفاء. فقد دأبت المسيحية دائمًا وأبدًا على احترام أعمدة الحرب، مثل موسى وداود ويوشع. وليس هذا فقط، بل إن الكنيسة نفسها قد كرّمت الأبطال القوميين الذين دخلوا الحروب، ونصّبتهم قدّيسين على يد البابوات.

تعليم القرآن المجيد عن الحرب والسلام

يختلف القرآن المجيد في تعاليمه عن تعاليم التوراة والإنجيل. إنه وسط بين الاثنين؛ فهو لا يأمر بالعدوان كما جاء في التوراة، ولا هو يفعل كما تفعل المسيحية هذه الأيام فيأمر بأمرين متناقضين: أي يطلب منا أن ندير الخد الآخر، وفي نفس الوقت يأمرنا أن نبيع الملابس لشراء السيوف. إنّ تعاليم الإسلام تطابق الفطرة الطبيعية للإنسان وتتناسب معها، وتدعو لنشر السلام بالطريقة الوحيدة الممكنة.

يحرّم الإسلام الاعتداء على الناس، ولكنه يحث على القتال إذا كان القعود عنه يعرّض السلام للخطر ويشجّع الحرب. وإذا كان القعود عن القتال يؤدّي إلى الاستئصال التام لحرية الاعتقاد وحرية البحث عن الحقيقة، فإن واجبنا أن نقاتل.

هذا هو التعليم الذي يمكن أن يُبنى عليه سلام دائم، وهذا هو التعليم الذي بَنى عليه الرسول ﷺ سياساته الخاصة وممارساته العملية. لقد عانى ﷺ باستمرار وبصبر في مكة، ولكنه لم يقاتل العدوان القاسي الذي كان هو ضحية بريئة له. ولما هاجر إلى المدينة، وخرج العدو لاستئصال شأفة الإسلام، كان قتال العدو حينئذ هو العمل الذي لا بد منه، من أجل الدفاع عن الحق وحرية الفكر والعقيدة.

وسنعرض في ما يلي للآيات القرآنية التي تشتمل على موضوع الحرب.

أولاً: في سورة الحج: ٤٠-٤٢ نجد ما يلي:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾

تقول الآيات إن ضحايا العدوان قد سمح لهم بالقتال، وأن الله تعالى قدير على أن يعين هؤلاء الضحايا، الذين طُردوا من بيوتهم بسبب

عقائدهم. وهذا التصريح لهم بالقتال هو فعل حكيم، فلو لم يدفع الله تعالى الظلم والقسوة، بواسطة المخلصين من عباده الصالحين، فلن توجد في العالم حرية للإيمان ولا للعبادة، ولذا فلا بد أن يعين الله ﷻ أولئك الذين يعملون على إقرار حرية الفكر وحرية العبادة. ويعني ذلك بالتالي أن القتال مسموح به عندما تطول معاناة الناس من عدوان ظالم، حين لا يكون لدى المعتدي سبب للعدوان، ويبتغي بعدوانه التدخّل في اختيار الناس لدينهم. وعليهم إذا تقلّدوا السُلطة أن يقيموا دعائم احترام حرية الدين والعقيدة، وأن يحموا كل الأديان وجميع أماكن العبادة. ولا يجوز لهم استخدام سُلطتهم أو قوّتهم من أجل مجدهم الخاص، ولكن من أجل مصالح الفقراء، وتقدّم البلد كلها، وتعميم السلام على الجميع. وهذه التعاليم بقدر ما هي واضحة ودقيقة فهي رائعة، ولا غبار عليها. وإنها لتعلن للعالم حقيقة أن المسلمين الأولين ذهبوا إلى الحرب حيث لم يكن أمامهم من سبيل سوى ذلك، وحيث حرّم الإسلام عليهم الحرب العدوانية. لقد وعدهم الله تعالى بالنصر السياسي والسُلطة، ولكنه ﷺ حذّرهم من استخدام هذه السُلطة لتعظيم أنفسهم واستعلائهم على الناس، بل لتحسين حالة المساكين وإشاعة السلام والتقدم.

ثانيًا: جاء في سورة البقرة الآيات التالية من ١٩١ إلى ١٩٤:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۞ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

والمعنى: إن القتال يكون هدفه التماس رضوان الله تعالى، وليس بغرض إرضاء رغبة الانتقام أو تعظيم شأن النفس، وينبغي ألا يقوم القتال على أساس العدوان، لأن الله لا يرضى بالاعتداء على الناس أو العدوان على البريء. والقتال يكون فقط بين المتقاتلين، فالتعدّي على الأفراد ممنوع بأمر الإسلام. والعُدوان على الدين يجب أن يُقابَل بمقاومة فعّالة، لأن عدوانًا من هذا القبيل لهو أخطر من سفك الدماء. وعلى المسلمين ألا يقاتلوا أحدًا قريبًا من المسجد الحرام إلا إذا بدأ العدوّ بالهجوم، فالقتال قريبًا من المسجد الحرام يتعارض مع الحق العام في الحج، ولكن إذا بدأ العدوّ بالهجوم فللمسلمين حقّ ردّه، فهذا هو الجزاء العادل للعدوان. أما إذا توقف العدوّ فعلى المسلمين التوقف كذلك، بل ونسيان الماضي وغفرانه. ويظل القتال مشروعًا حتى ينتهي الاضطهاد الديني وتستقر أعمدة الحرية الدينية، لأن الحساب على أمر الدين متروك لله ﷻ. إن استعمال القوّة أو الإكراه في أمور الدين خطأ فادح، وإذا انتهى الكافرون عن ذلك، وأطلقوا الحرية الدينية، فعلى المسلمين الكفّ عن قتال الكفار. ولا يُرفع السلاح إلا على الذين يرفعونه ويقصدون العدوان، ولكن عندما يتوقف العدوان فإن القتال يجب أن يتوقف أيضًا بشكل تام.

ويمكننا أن نقول إن الآيات ترشد إلى القواعد التالية:

أ- تُشنّ الحرب ابتغاء وجه الله تعالى، وليس التماسًا لأية دوافع نفسية، ولا للاستكبار في الأرض، ولا للاستكثار من أية فوائد أخرى.

ب- يجوز لنا أن نحارب الذين يبدأوننا بالهجوم ولا سواهم.

ج- ويجوز لنا أن نقاتل الذين يرفعون علينا السلاح، من المقاتلين وحدهم. ولا يجوز لنا قتال من لا يساهم في المعركة.

د- وحتى بعد أن يبدأ العدوّ الهجوم، فإن علينا الحفاظ على إبقاء مجال الحرب في أضيق الحدود، فمن الخطأ تَوسيع رقعة القتال، سواء من حيث المساحة على الأرض أو بالنسبة لنوعية الأسلحة المستخدمة.

هـ- ينبغي ألا نقاتل سوى الجيش النظامي الذي أخرجه العدو للقتال، ولا يجوز مقاتلة الآخرين الذين لا يقاتلون في صفه.

و- أثناء الحرب يجب المحافظة على حُرمة كل الطقوس والشعائر الدينية، وأماكن وأزمنة تأديتها. وإذا حافظ العدوّ على الأماكن التي تقام فيها المناسك الدينية، فإن على المسلمين أيضًا أن يكفّوا عن القتال في هذه الأماكن.

ز- إذا استخدم العدوّ أماكن العبادة كقواعد للانطلاق في هجومه، فإنه يمكن للمسلمين رد هذا الهجوم، ولا لوم عليهم حين يفعلون. ولا يجوز القتال حتى في جوار الأماكن المقدسة، فمن المحظور بشكل مطلق أن تهاجم الأماكن المقدسة أو تهدم أو تخرّب أو يوجّه إليها أي فعل يضرّ بها. وإذا اتخذ العدو مكانًا مقدسًا كقاعدة لعملياته فإن ذلك يمكن أن يستجلب ردًّا مضادًا، وفي هذه الحالة فإن مسؤولية أيّ تلف يصيب المكان ستقع على العدوّ لا على المسلمين.

ح- إذا أدرك العدو خطأه في اتخاذ مكان مقدّس كقاعدة لعدوانه، وتنبّه للخطر الذي ينتج من ذلك فابتعد عن ذلك المكان المقدس، فعلى المسلمين أن يأخذوا ذلك التغيير في الاعتبار. ولا يجوز للمسلمين أن يهاجموا ذلك المكان لمجرّد أنّ العدوّ قد بدأ هجومه منه. ولكن حرصًا على قداسة المكان، ينبغي للمسلمين تغيير جبهة القتال بعيدًا عن ذلك المكان المقدس، بمجرد أن يبتعد عنه العدوّ.

ط- يستمر القتال حتى ينتهي التدخل بالجبر والإكراه في الدين وفي الحرية الدينية، وعندما تتحقق حرية الدين، وعندما لا يُسمح بالإكراه في الدين، ويعلن العدوّ ذلك ويبدأ في الالتزام به والسلوك بمقتضاه؛ عند ذلك تنتهي الحرب معه، رغم أن العدوّ هو الذي بدأها.

ثالثًا: في سورة الأنفال، وفي الآيات ٣٩ إلى ٤١، نجد لدينا ما يلي:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ۝ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

ومعنى ذلك أن الحرب تكون مفروضة على المسلمين، ولكن إذا توقف العدوّ وانتهى عنها، فعلى المسلمين فعل الشيء نفسه، وعليهم غفران الماضي. ولكن إذا لم ينته العدوّ، وظل يكرر الهجوم فعليه إذن أن يتذكر مصير أعداء الأنبياء السابقين. ويحق للمسلمين القتال حتى ينتهي الاضطهاد الديني، أو طالما أن الدين ليس متروكًا إلى الله تعالى، أو طالما أن العدوّ لم يتوقف عن التدخل والإكراه في الدين. فإذا انتهى

المعتدي فعلى المسلمين الانتهاء كذلك، وليس لهم حق الاستمرار في القتال بسبب بطلان عقائد العدوّ، إن الله يعلم جيدًا قيمة العقائد ووزن الأعمال وسوف يجزي عليها بفضله. وليس للمسلمين الحق في التحرّش بدين قوم آخر مهما بدت عقائد هذا الدين زائفة. وإذا استمر العدوّ في الحرب بعد عرض السلام عليه، فعلى المسلمين أن يكونوا على يقين من النصر مهما كان عددهم قليلاً، لأن الله سوف يعينهم، ومن أحسن من الله عونًا ونصرًا؟

لقد نزلت هذه الآيات في أيام معركة بدر، التي كانت أول معركة منظمة بين المسلمين وبين العدوّ، وفيها كان المسلمون ضحايا هجوم لا مبرر له. لقد اختار العدوّ تدمير سلام المدينة والمنطقة المحيطة بها، ورغم ذلك كان النصر من نصيب المسلمين، ولقي القادة الكبار من رجال العدوّ مصرعهم. وبينما بدا أن الانتقام من عدوان كهذا هو أمر طبيعي وعادل وضروري، إذا بالمسلمين يتلقون أمر الله تعالى بأن يوقفوا القتال حالما يوقفه العدوّ، وكل ما على العدوّ أن يلتزم به هو منح حرية الاعتقاد والعبادة.

رابعًا: في سورة الأنفال أيضًا، وفي الآيات ٦٢، ٦٣ نقرأ قوله تعالى:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾

والمعنى أنه لو مال الكافرون إلى إنهاء القتال قبل موقعة ما أو بعدها وعرضوا السلام، فالواجب على المسلمين أن يقبلوا عرض السلام، حتى مع وجود خطر احتمال المخادعة. فعليهم أن يضعوا ثقتهم في الله ربهم، لأن الخيانة لن تجدي الكافرين نفعًا ضد المسلمين الذين يتوكلون على الله. إن انتصاراهم ليست من عند أنفسهم بل من عند الله تعالى الذي يقف إلى جانب رسوله وأصحابه، وسوف يساندهم ضد أي خداع أو خيانة للعدوّ. ولذلك لا بد من قبول عرض السلام، ولا يجوز رفضه بحجة احتمال أن يكون مجرد حيلة يلتمس بها العدوّ كسب الوقت، أو كسب فرصة لتنظيم صفوفه واستئناف الهجوم.

والتركيز على السلام في هذه الآيات ليس بلا معنى، إنه يستبق السلام الذي وقّعه الرسول ﷺ في الحديبية، وقد أخبر الله تعالى رسوله هنا أنه سيأتي الوقت الذي يطالب العدوّ فيه بالسلام، فلا يجوز رفض السلام على خلفية أن العدوّ كان هو المعتدي، وأنه قد أصرّ على عدوانه، أو أنه غير جدير بالثقة. إن الصراط المستقيم الذي يقرّه الإسلام يُلزم المسلم أن يقبل عرض السلام، وكل من التقوَى والحكمة السياسية يحبّذان هذا القبول.

خامسًا: في سورة النساء والآية ٩٥ نقرأ قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أي عندما يذهب المسلمون للحرب فعليهم واجب التحقق؛ وطريقه هو أن يوَضّحوا للعدوّ عبثيّة الحرب وسوء مآلها، وأنه مع ذلك لا يزال يصر عليها. وحتى في هذه الظروف فإن عليهم ألا يرفضوا عرض السلام لو جاءهم من طرف فرد أو مجموعة، وليس لهم أن يعتذروا بأن العرض غير صادق. ولو رفض المسلمون عرض السلام فلن يكون قتالهم حينذاك في سبيل الله، بل لأجل أنفسهم ولأجل المكاسب الدنيوية. وعليهم أن يعلموا أن المغانم الدنيوية تأتي من عند الله تعالى، تمامًا كما تأتي من لدنه الهداية الربانية.

إن القتل يجب ألا يكون هدفًا، فإن من يُراد قتله اليوم قد يهتدي غدًا. وهل كان للمسلمين أنفسهم أن يصبحوا مسلمين لو لم يكن الله تعالى قد أبقاهم أحياء؟ لذلك فعلى المسلمين أن يمتنعوا عن القتل، لأن النفس التي يبقون عليها قد تتحوّل إلى نفس مهتدية، والله تعالى وحده هو الذي يعلم تمامًا ماذا يفعل الناس وما هي غاياتهم وما هي نيّاتهم ودوافعهم إلى ما يفعلون.

إن الآيات تعلمنا أنه حتى بعد بدء الحرب فإن واجب المسلمين أن يتأكدوا في أنفسهم تمامًا أن العدوّ يجنح للعدوان، فغالبًا ما يحدث أن تنعدم نيّة العدوان، ولكن شروع العدوّ في الاستعدادات للحرب تبعث الخوف والانزعاج.

وعلى المسلمين ألا يخرجوا للحرب ما لم يتحقّقوا أن العدوّ قد خطط للعدوان والهجوم، وإذا تبين أن الاستعدادات كانت للدفاع عن النفس، أو قال العدوّ ذلك، فعلى المسلمين التوَقف عن الحرب وقبول

زعم العدوّ. وليس للمسلمين أن يحتجّوا بأنه لا سبب للاستعدادات سوى العدوان، فربما نوَى العدوان ثم عدل عن نيته. ألا تتغير النيّات وتتحوّل المقاصد باستمرار؟ ألم يحدث مرارًا أن أعداء الإسلام قد صاروا من أتباعه؟

سادسًا: يقول القرآن المجيد في عدم انتهاك المعاهدات:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤)

المشركون الذين دخلوا في اتفاق سلام مع المسلمين، وحافظوا على عهدهم، ولم يساعدوا عدوًّا ضدهم، فمن حقهم أن ينالوا نفس المعاملة من المسلمين، فإن من مستلزمات التقوَى على المسلمين أن يفوا من جانبهم بما عليهم في الميثاق نصًّا وروحًا.

سابعًا: يأمر القرآن المجيد بما يلي فيما يختص بالعدوّ الذي يرغب في فهم رسالة الإسلام رغم أنه في حرب مع المسلمين:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦)

أي أن على المسلمين واجب منح اللجوء إليهم لمدة مناسبة، تكفي لغرض الشرح والإيضاح، إذا ما طلب اللجوء إلى المسلمين أحدُ أفراد العدوّ المحارب، يبتغي أن يسمع رسالة الإسلام للدراسة والتمعّن.

ثامنًا: ويقول القرآن المجيد عن أسرى الحرب:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٨)

أي أنه لا يجوز أسر أحد، إلا من المقاتلين الذين يشتركون فعلاً في ميدان القتال، فلم يُشرّع الله تعالى لأحد من الأنبياء أن يتّخذ أسرى إلا من الأعداء المقاتلين الذين قاموا بالعدوان وسفكوا الكثير من الدماء. وقد حرّم الإسلام خطف الأفراد من القبائل المعادية وهي العادة التي كانت منتشرة قبل الإسلام، وظل غير المسلمين يمارسونها بعده، فليس من الجائز شرعًا عند الله تعالى أن يؤخذ أسير دون حرب وممارسة قتال فعلي.

تاسعًا: وضع القرآن المجيد قواعد إطلاق سراح الأسرى كما يلي:

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾. (محمد: ٥)

إن الوضع الأفضل في الإسلام هو إطلاق سراح الأسير دون فدية، ولما كان هذا غير ممكن في كل حالة، فلذلك نص الله تعالى على السماح بقبول الفدية.

عاشرًا: هناك نص يختص بأسرى الحرب الذين لا يستطيعون أن يدفعوا الفدية، وليس لهم وليّ يستطيع أو يوافق على أن يدفع الفدية. وغالبًا ما يدفع أقارب الأسير فديته لإطلاق سراحه، ولكن يحدث أحيانًا أن يُفضّل بعضهم ترك القريب أسيرًا، ربما ليقوم باختلاس أمواله في غيابه، وقد فتح القرآن المجيد السبيل أمام هؤلاء لنوال حريتهم. يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور: ٣٤)

أي أن أولئك الذين لا يستحقّون أن يُطلَقوا دون فدية، ولكن ليس لهم أحد يدفع نيابة عنهم، فبإمكانهم أن ينالوا حريتهم إذا وقّعوا على كتاب يتعهّدون فيه بالدفع إذا سُمح لهم بالعمل والكسب، وذلك إذا كانت لديهم الحرفة الملائمة والقدرة على العمل والكسب. فإذا تبين أهليّتهم وإمكاناتهم في العمل والكسب، يمكن للمسلمين أن يساعدوهم على ذلك بإمدادهم بما يستطيعون من عناصر العمل والربح. والأفراد المسلمون القادرون ماليًّا على المساعدة فعليهم أن يدفعوا عنهم، أو يتم إنشاء اكتتاب عام يشترك فيه المتبرعون لمساعدة هؤلاء البائسين ليقفوا على أقدامهم.

لقد عرضنا فيما سبق الآيات القرآنية التي تحتوي على تعاليم الحرب والسلام في الإسلام، وهي تخبرنا عن الظروف والشروط التي بها ندخل الحرب الدفاعية، والحدود التي يجب على المسلمين مراعاتها عندما يضطرون إلى خوض الحرب.

السنة النبوية حول الحرب

إن تعاليم الإسلام لا يحتويها القرآن المجيد وحده، بل تتجلى أيضًا في سنة الرسول ﷺ وقدوته، وفي سيرته وحياته. فما فعله وما علّمه وما أمر به في وقائع موثّقة معينة، يُعتبر أيضًا جزءًا أساسيًا من تعاليم

الإسلام، ونذكر فيما يلي ما تفيده بعض أقوال الرسول ﷺ في موضوع الحرب والسلام.

١- يحرم على المسلمين جميعا أن يمثلوا بجثث القتلى (صحيح مسلم).

٢- يحرم على المسلمين أن يلجئوا إلى الغدر والخيانة (مسلم).

"اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا".

٣- لا يجوز قتل النساء ولا الأطفال، وقد استنكر رسول الله قتل النساء والصبيان (مسلم).

٤- لا يجوز التدخّل في عمل الرهبان والقسس والعاملين على إقامة الشعائر والقادة الدينيين (الطحاوي).

٥- لا يجوز قتل الشيوخ والعجزة والأطفال والنساء، ويجب أن يكون نصب أعيننا دائمًا أن نتيح الفرصة لإحلال السلام (أبو داود).

٦- عندما يدخل المسلمون أرض العدوّ يجب ألا يُرَوّعوا سكان البلد، ولا يجوز أن يسمحوا بأية إساءة في معاملة الناس عامة (مسلم).

٧- لا يجوز للجيش المسلم أن يضرب معسكره في مكان يتسبب في إزعاج الجمهور العام. وعندما يتحرك على الطريق فلا يجوز له سد الطرق أو أن يسبب إزعاجًا لعابري هذه السبل.

٨- لا يجوز تشويه الوجوه (البخاري ومسلم).

٩- عند إيقاع القصاص بالعدوّ فعلى المسلمين تكبيده أقل خسائر ممكنة (أبو داود).

١٠- يجب الحفاظ على بقاء الأقارب الأسرى معًا، وعدم التفريق بينهم عندما يوضع أسرى الحرب تحت الحراسة (أبو داود).

١١- يجب أن يحيا الأسير في ظروف مريحة، ويجب أن يهتم المسلمون بأَسْراهم فيرعوا راحة الأسرى أكثر مما يرعون راحتهم هم (الترمذي).

١٢- يجب استقبال الوفود والرسل من البلاد الأخرى بحفاوَة بالغة، ويجب تجاهل ما يصدر عنهم من فظاظة وأخطاء (أبو داود كتاب الجهاد).

١٣- أي سوء معاملة تحدث من مسلم نحو أسير، فكفارتها إطلاق سراح هذا الأسير، دون أن يدفع فدية عن نفسه. "من لطم مملوكًا فكفّارته عتقه".

١٤- إذا وُضع أسير حرب تحت رعاية أحد المسلمين، فعليه أن يُطعمه من نفس طعامه ويكسوه من نفس ثيابه (البخاري).

ولقد بلغ من إصرار الرسول ﷺ على هذه القواعد السلوكية للجيش المقاتل أنه أعلن لمن لم يُراعِ هذه الوصايا أنه لا يقاتل في سبيل الله، بل من أجل نفسه الأمّارة (أبو داود).

وقد أصدر أبو بكر ﵁، الخليفة الراشد الأول للإسلام، بعض التعليمات في موضوع الحرب والسلام، وأصبحت جزءًا من التعاليم التي يلتزم بها المسلم، ونذكر منها:

١٥- المنشآت العامة والأشجار المثمرة وحقول المزروعات لا يجوز إتلافها (الموطأ).

ومن أقوال الرسول ﷺ وتعليمات الخليفة الأول للإسلام ﵁ يتضح أن الإسلام قد شرّع وشيّد أُسسًا لها آثارها في منع أو إيقاف

الحرب، أو تقليل ويْلاتها وبشاعتها. وكما سبق أن ذكرنا فإنّ الأسس التي أمر بها الإسلام ليست مجرد مُثُل عليا للتقوَى وسننها فقط، بل إن لهذه الأسس تجلياتها العملية في أسوَة الرسول ﷺ وخلفاء الإسلام الأوّلين. وكما يعلم العالم كله، فإن الرسول ﷺ لم يكتف بتلقين هذه الأسس، بل سلك بموجبها، وعمل بمقتضاها، وأصرّ على رعايتها حق رعايتها.

وإذا نظرنا إلى عصرنا الحاضر، فلن نجد تعليمًا آخر قدّم حلاًّ لمشكلة الحرب والسلام. فتعاليم موسى عليه السلام بعيدة عن مفاهيمنا للعدالة والإنصاف، ولا يمكن تطبيقها في أيامنا هذه. وأما تعليم المسيح عليه السلام فليس عمليًا على الإطلاق، ولم يكن عمليًا في يوم من الأيام، ولم يحاول المسيحيون في تاريخهم أن يضعوه يومًا قط موضع التطبيق. إن تعليم الإسلام هو التعليم العملي، وهو التعليم الوحيد الذي تم التبشير به كما تم تطبيقه أيضًا بيد أنصاره المخلصين، بالممارسة العملية التي يمكنها فعلاً حفظ السلام في هذا العالم. وفي هذا العصر يقوم غاندي بتقديم تعليم جليّ يقول: "إننا حتى لو فُرض علينا القتال والحرب، فليس علينا الذهاب إليه، ويجب ألا نقاتل". ولكن هذا التعليم لم يوضع موضع الاختبار في أيّ وقت خلال التاريخ، إنه لم يدخل إلى بوتقة التجربة لتثبت جدارته، فمن المحال أن نحدد قيمة هذا النهج إذن بلغة الحرب والسلام.

لقد عاش السيد غاندي طويلاً ليرى اتحاد الولايات الهندية وهي تنال استقلالها السياسي، ولم يحدث أن قامت حكومة الاتحاد بتسريح

الجيش، ولا أية قوات هندية مسلحة، بل كل ما فعلته هو وضع الخطط لصبغها بصبغة هندية، بل إن لها خططًا في إعادة تعيين الضباط الهنود الذين كانت السلطات البريطانية قد فصلتهم خلال هجوم اليابان على بورما والهند في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الحديثة، والذين كانوا قد قاموا بتشكيل الجيش الهندي الوطني. ولقد رفع السيد غاندي صوته داعيًا في مناسبات عدة إلى التقليل من شأن جرائم العنف، وحث على إطلاق سراح الذين اقترفوا جرائم العنف، وهذا يدل على أن التعليم الذي يدعو إليه لا يمكن أن يطبق، والسيد غاندي يعرف ذلك جيدًا، كما يعرفه أتباعه كذلك. ولا يوجد مثال عملي واحد يمكن عرضه على العالم ليرى كيف يمكن تطبيق سياسة اللاعنف عندما ينشأ نزاع مسلح بين أمة وأمة أو بين دولة ودولة، أو كيف أن اللاعنف يمكنه إيقاف أو منع الحرب.

إن الدعوة إلى طريقة لإيقاف الحرب، مع عدم القدرة بتاتًا على تقديم مثال عملي على نجاح هذه الطريقة يدل على أن هذه الطريقة غير عملية. ويبدو لنا واضحًا إذن أن التجربة الإنسانية والحكمة الإنسانية تشيران إلى طريقة وحيدة فقط لمنع وإيقاف الحرب، هذه الطريقة هي التي جاءت بها تعاليم الإسلام ووُضعت في حيز التطبيق العملي على يد نبيّ الإسلام ﷺ.

هجوم واعتداءات متفرّقة للكافرين

عاد الأحزاب من معركة الخندق منكسرين محبطين، ولكن لم يكونوا قد فقدوا قدرتهم بعد على مضايقة المسلمين والتحرّش بهم، فمع أنهم كانوا منكسرين إلا أنهم كانوا يدركون أنهم لا زالوا أغلبية مُسَيطرة. وقد كانوا يستطيعون بسهولة اضطهاد الأفراد المسلمين، فكانوا يضربونهم ويقتلونهم. ولقد أرادوا التنفيس عن إحساسهم بالعجز أمام المسلمين بهذه الإساءات والاضطهادات التي صبّوها على الأفراد هنا وهناك. وبعد مرور وقت قصير على معركة الخندق، راحوا يعتدون على المسلمين حول المدينة، فأغار رجال من فزارة يركبون الإبل على مسلم قرب المدينة، وساقوا الإبل التي وجدوها ترعَى في المكان، وصحبوا معهم امرأة أسيرة وانطلقوا بالغنيمة. واحتالت المرأة لنفسها وتمكنت من الهروب، ولكن رجال فزارة نجحوا في الفرار بعدد من الإبل. وبعد ذلك بشهر قام رجال من قبيلة غطفان بالهجوم من جهة الشمال في محاولة لسلب قطعان إبل المسلمين . وأرسل الرسول ﷺ محمد بن مسلمة مع عشرة راكبين من أصحابه للاستطلاع ولحماية قطعان الماشية، ولكن العدوّ كمن لهم على الطريق وهاجمهم هجومًا قاتلاً وتركهم جميعًا صرعى إلا محمد بن مسلمة الذي سقط مغمى عليه، ثم أفاق واستجمع نفسه وقواه وعاد إلى رسول الله ليخبره بما حدث.

وبعد هذه الحادثة بأيام قلائل، هوجم مبعوث من رسول الله إلى عاصمة الروم وسرقوه، وكان الفاعلون رجال من قبيلة جذام. وبعد

ذلك بشهر هاجم بنو فزارة قافلة للمسلمين وفرّوا بغنائم جمة، ومن المحتمل ألا يكون الدافع إلى هذا الهجوم هو العداء الديني، فبنو فزارة كانوا قبيلة من قطاع الطرق المتمرّسين بأعمال القتل والسلب.

أما يهود خيبر، وهم المحرّض الأساسي على معركة الخندق، فقد عقدوا العزم على الانتقام للهزيمة الساحقة التي لحقت بهم في هذه الموقعة، فجاسوا خلال مضارب القبائل العربية يثيرونهم على الإسلام، وراحوا إلى قواد الجيوش الرومانية يحرّضونهم على محاربة المسلمين. وهكذا بعد أن فشل المشركون العرب وقادتهم في إحراز نجاح حاسم بالهجوم المباشر على المسلمين، راحوا يتآمرون مع اليهود ليجعلوا حياة المسلمين جحيمًا لا يطاق.

كان الرسول ﷺ حتى هذه اللحظة يجهز ويدبر أمره من أجل الإعداد لمعركة حاسمة، فقد يؤدي ذلك بالعرب إلى طلب السلام، وينتهي بذلك الصراع في الجزيرة العربية.

خروج رسول الله ﷺ إلى مكة في ألف وخمسمائة من أصحابه

رأى الرسول ﷺ خلال تلك الأيام رؤيا ذكرها القرآن المجيد كما يلي:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٨)

ويعني هذا أن الله ﷻ قضى أن يدخل المسلمون المسجد الحرام بسلام، فيكون البعض منهم حليقًا والبعض مقصّرًا شعره (العلامة الخارجية للحجيج والمعتمرين) ولا ينتابهم الخوف. غير أن المسلمين لم يعلموا على وجه التحديد كيف يتم هذا. وبالإضافة إلى ذلك، فقبل أن يؤدّي المسلمون شعائر الحج في سلام، قضى سبحانه أن يجعل لهم نصرًا قريبًا.

كانت الآية الكريمة تنبئ بالنصر المبين للمسلمين، وهو مسيرهم الآمن إلى مكة، وفتح البلد الحرام بدون استخدام السلاح. ولكن الرسول ﷺ فهم الرؤيا على أنها أمر من الله تعالى أن يقوم من فوره مع المسلمين ليطوف بالكعبة. وقد صار هذا الخطأ في تفسير الرؤيا هو الفرصة التي بها سيمنح الله المسلمين النصر القريب الموعود في الرؤيا.

وهكذا خطط الرسول ﷺ للمسير إلى الكعبة، فأعلن الرؤيا وتفسيره لها للمسلمين، وطلب منهم الاستعداد؛ وأخبرهم أنهم سيذهبون من أجل الطواف حول الكعبة فقط، وليس من أجل أية اشتباكات مع العدو. وأخيرًا خرجوا في شهر فبراير/شباط* عام ٦٢٨ ميلادية، فكانوا ألفًا وخمسمائة[۞] حاج يقودهم الرسول ﷺ،

* *أي في ذي القعدة من العام السادس للهجرة. (المترجم)*

[۞] في هذه العُمرة التي تم التخطيط لها بعد عام من معركة الخندق، لم يصحب رسولَ الله ﷺ سوى ١٥٠٠ فقط من أصحابه، وعلى ذلك فلا بد أن عدد المسلمين المقاتلين في غزوة الخندق كان أقل من هذا العدد ولا يمكن أن يكون أكثر منه. وقد أخطأ المؤرخون الذين ذكروا أن عدد المقاتلين المسلمين في الخندق كان ٣٠٠٠ أو نحوهم، فالمعقول إذن أن يكون الرقم ١٢٠٠مقاتل.

واتخذوا سبيلهم في رحلة إلى مكة، يتقدمهم على مسافة منهم حــرس راكب للاستطلاع، يتكوّن من عشرين رجلاً لينذرهم إذا تربّص بهم العدوّ ليباغتهم بالهجوم.

ولم يلبث أهل مكة أن علموا بأخبار هذه القافلة. كان الطــواف بالكعبة حقًّا عامًّا للعرب حسبما أرسته التقاليد، ولن يكون من اللائق على الإطلاق أن ينكر العرب هذا الحق على المسلمين، خاصة وقــد أعلنوا بشكل واضح أن غايتهم من مسيرتهم هذه أن يطوفوا بالكعبــة ليس إلا، ومنَع الرسول ﷺ كل مظهر من مظاهر استعراض القوة، فلا تنازع ولا جدال ولا أية مطالبات. وعلى الرغم من ذلك فإن أهــل مكة بدأوا يستعدون كما لو كان الأمر نزاعًــا مســلحًا، ونصــبوا الدفاعات على كل جوانب مكة، واستصرخوا القبائل المحيطة للعون، وبدوا مصممين على القتال.

وعندما بلغ الرسول ﷺ مكانًا قريبًا من مكة، علم أن قريشًا قــد أعدت للقتال، وارتدوا جلود النمــور، وصــحبوا معهــم النســاء والأطفال، وأقسموا بالله في عزم أكيد ألا يدعوا المسلمين يمــرّون إلى مكة. وكان ارتداء جلود النمور رمزًا للعزم المستميت على القتال. ولم تلبث أن التقت فرقة من الفرق الاستطلاعية لأهل مكة مع المسلمين، وعند ذلك توقف المسلمون، فلم يكن لهم أن يتقدموا خطوة بعد هذا إلا إذا امتشقوا سيوفهم. غير أن الرسول ﷺ كان قد عقد العــزم ألا يفعل شيئًا من هذا القبيل، واستخدم دليلاً ماهرًا ليدل قافلة المسلمين على طريق بديل خلال الصحراء. وبقيادة هذا الدليل، بلغ الرسول ﷺ

وصحبه ماء الحديبية، وهي بقعة شديدة القرب من مكـــة، وعنـــدها بركت ناقة الرسول السريعة، ورفضت التحرك. وظن أحد الصـــحابة أن الناقة قد تعبت من طول المسير، فقال للرسول ﷺ: "لقد خـــلأت القصواء يارسول الله". فقال ﷺ: "ماخلأت القصواء، ومـــا ذاك لهـــا بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. والذي نفسي بيـــده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها". (السـيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣)

كان جيش مكة في هذا الوقت قد خرج من مكة، وكان قد ابتعد على مسافة منها على الطريق الرئيسي المؤدّي للمدينة، كي يتصـــدّى للمسلمين. ولو كان الرسول ﷺ يريد أن يحتل مكة، لترك أصـــحابه الألف والخمسمائة يدخلونها ويستولون عليها دون مقاومة، ولكنـــه كان يريد أن يطوف بالبيت فقط، إذا رضيت مكة بذلك. فهو لـــن يخوض حربًا مع مكة إلا إذا بدأها أهل مكة، وهكذا تـــرك الطريـــق الرئيسي وعسكر عند الحديبية.

وسريعًا ما وصلت الأخبار إلى قادة مكة، الذين أمـــروا رجـــالهم بالانسحاب والمرابطة قريبًا من البلدة، وأرسلوا سيدًا من سادهم، وهو بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي، للتفاوض مع الرسول ﷺ. وأوضح رسول الله لبُديْل أنه والمسلمين لا يريدون إلا الطواف بالبيت، ولكن إذا أرادت مكة القتال، فإن المسلمين على استعداد لذلك. وبعده أرسلوا عـــروة بن مسعود الثقفي – الذي كان زوجًا لابنة لأبي سفيان – بالشـــيء نفسه. كان عروة رجلاً فظًّا، سلك على نحوٍ غاية في الجلافة، وقال إنه

لا يرى في المسلمين أحدًا من كرام الناس، بل يرى أوْباشًا خليقًا بهم أن يفروا ويتركوا الرسول ﷺ. وقال إن أهل مكة لن يدعوهم يدخلون مكة. ثم جاء بعده العديد من أهل مكة، وتفاوضوا أكثر وأكثر، وكان آخر ما عرضوه على المسلمين أن عليهم على الأقل أن يعودوا أدراجهم هذا العام، فلن يدعوهم يطوفون هذه المرة، لأن أهل مكة سيشعرون بالعار والمهانة إذا سمحوا للمسلمين بدخول مكة والطواف بالكعبة هذا العام، ولكنهم قد يسمحوا لهم بذلك إذا عادوا في العام التالي.

وقد احتجت بعض القبائل المتحالفة مع أهل مكة عليهم، وطلبوا من القادة السماح للمسلمين بالطواف، لأن كل ما أرادوه هو حق الطواف، فلماذا يحرمون حتى من هذا؟ ولكن أهل مكة ظلوا على عنادهم وصلابتهم، وعند ذلك هدّد قادة القبائل بالانفصال عن جيش مكة، ما دام أهل مكة لا يريدون السلام. وخشي أهل مكة أن يُنفّذ قادة القبائل تهديداتهم، فسعوا إلى الوصول إلى تسوية مع المسلمين. وما أن علم الرسول ﷺ بذلك حتى أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي أصبح الخليفة الراشد الثالث في الإسلام، إلى أهل مكة، وكان له أقرباء عديدون فيهم، فجاءوا وأحاطوا به وعرضوا عليه أن يطوف هو بالبيت إن أراد، ولكنهم لن يدعوا الرسول يفعل ذلك حتى العام القادم. ورفض عثمان أن يطوف هو إلا أن يكون في صحبة حبيبه وقائده ﷺ. وطال التفاوض بين عثمان وبينهم، وانتشرت إشاعة مغرضة أنه قُتل، وبلغت الإشاعة آذان الرسول ﷺ. وعند ذلك جمع

رسول الله أصحابه وأخبرهم أن احترام الرسل أمر معمول به في كـــل الأمم، وأنه سمع بأن أهل مكة قتلوا عثمان، فلو كان هذا صـــحيحًا فعليهم أن يدخلوا مكة مهما ترتب على ذلك. وهكذا كان لا بد أن تتغير نيّة الرسول ﷺ في دخول مكة بسلام بعد أن تغيرت الظـــروف. وتابع الرسول ﷺ حديثه فقال لهم إن أولئك الذين عاهدوا الله تعـــالى إذا لقوا الذين كفروا زحفًا ألا يولوهم الأدبار، علـــيهم أن يتقـــدموا ليبايعوه على ألا يفروا. وما أن أنهى الرسول ﷺ حديثه، حتى نهـــض الألف والخمسمائة صحابي وقفزوا مسرعين إلى يد الرسول يصافحونها ويبايعونه على ألا يفروا، فإما النصر أو الشهادة. وكان لهـــذه البيْعـــة أهمية خاصة في تاريخ الإسلام الباكر، وهي تسمى بيْعة الشجرة ، لأن الرسول ﷺ كان يجلس تحت شجرة عندما بايعه المسلمون وكـــذلك تُسمى أيضًا بيْعة الرضوان، وكل من اشترك في هذه البيْعة ظل فخورًا بها إلى آخر أيام حياته. و لم يحدث أن تـــردّد واحـــد مـــن الألـــف والخمسمائة في المبايعة، ولا تراجع أحد. لقد وعدوا جميعًا أنـــه إن لم يعد مبعوث الرسول ﷺ، وإن كان قد قتل، فسوف يتقدّمون، فإمّـــا فتحوا مكة ونالوها قبل الغسق أو قتلوا جميعا دون هدفهم. و لم تكـــن البيْعة قد انتهت عندما عاد عثمان رضي الله عنه وأبلغ الرسول ﷺ أن أهل مكة لن يتركوا المسلمين يطوفون بالكعبة حتى العام القادم، وأنهم قد عينوا وفدًا لتوقيع عهد مع المسلمين.

و لم يلبث أن جاء إلى الرسول ﷺ بعد ذلك سُهَيْل بن عمرو، على رأس وفد مكة، ووصلوا إلى اتفاق على شروط المعاهدة وتم تسجيلها.

صلح الحديبية

وفيما يلي نص هذا الصلح:

باسْمِكَ اللَّهُمَّ. هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ. وَإِنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً وَإِنَّهُ لا إِسْلالَ وَلا إِغْلالَ. وَكَانَ فِي شَرْطِهِمْ حِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ. فَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ فَقَالُوا نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَهْدِهِ وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ. وَأَنَّكَ تَرْجِعُ عَنَّا عَامَنَا هَذَا فَلا تَدْخُلْ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَامُ قَابِلٍ خَرَجْنَا عَنْكَ فَتَدْخُلُهَا بِأَصْحَابِكَ وَأَقَمْتَ فِيهِمْ ثَلاثًا مَعَكَ سِلاحُ الرَّاكِبِ، لا تَدْخُلْهَا بِغَيْرِ السُّيُوفِ فِي الْقُرُبِ. (مسند أحمد)

وحدث أثناء التوقيع أمران هامّان، ففي بداية الأمر وبعد تحديد الشروط، بدأ الرسول ﷺ في إملاء الكتاب، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم. فاعترض سُهيل وقال إنهم يعرفون الله، ولكنهم لا يعرفون ما الرحمن وما الرحيم، وإن هذا اتفاق بين طرفين فيجب إذن احترام عقائد الطرفين. ووافق الرسول ﷺ على الفور وقال لكاتبه: "اكتب باسمك اللهم". واستمر الرسول ﷺ في إملاء شروط الاتفاق. كانت جملة الافتتاح هي: "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة"،

فاعترض سُهيل ثانية وقال: "لو نعرف أنك رسول الله ما قاتلناك". ووافق الرسول ﷺ على الاعتراض أيضًا، وبدلاً من "محمد رسول الله"، أمر بأن يُكتب: "محمد بن عبد الله". وأحس الصحابة بالاضطراب وهم يرون رسول الله يوافق على كل مقترحات وشروط أهل مكة المجحفة، وبدأت دماؤهم تغلي في العروق، وكان عمر ﷺ أكثر المنفعلين جميعًا، فذهب إلى الرسول ﷺ وسأله: "يا رسول الله ألسنا على الحق"؟ فأجاب ﷺ: "بلى، إنّا على الحق". فقال عمر: "ألم يخبرنا الله أننا سنطوف بالكعبة"؟ فأجاب رسول الله بالإيجاب، فسأل عمر: "فلم نعطي الدنية في ديننا؟ وما هذا الاتفاق"؟

وأجاب الرسول ﷺ موافقًا أن الله تعالى وعدهم بطواف الكعبة في أمن وسلام، ولكنه سبحانه لم يقل إن هذا سوف يتم هذا العام، وأنه قد أوّل الرؤيا بما يفيد أن الطواف ربما يتم هذا العام، ولكنه يمكن أن يخطئ في تأويل الرؤيا.

وسكت عمر ﷺ.

ولكن الصحابة الآخرين قدموا اعتراضات جديدة، وسأل بعضهم لماذا وافق على رد كل شاب يتحوّل للإسلام إلى وليّه في مكة، بينما لم يحصل على نفس الشرط للمسلم الذي يرجع إلى الكافرين؟

فشرح الرسول ﷺ لهم أنه لا خطورة عليهم من ذلك، فكل من يصبح مسلمًا يكون كذلك لأنه يقبل الإسلام عقيدة وشرعة، وليس لأنه سينضم لحزب ويتبنى عاداته وتقاليده، ورجل مثل هذا سيشع منه نور الإسلام ورسالته حيثما حل، وسيعمل كأداة لانتشار هذا الدين.

ولكن رجلاً يطرح عنه ثوب الإسلام، هو شخص لا قيمة له ولا فائدة للإسلام منه، فإذا لم يتمسك بكل ما عليه المسلمون بقوّة فهو ليس منهم، ومن الأفضل أن يذهب عنهم حيث يشاء. ولقد أقنع هذا الرد أولئك الذي تشككوا في حكمة النهج الذي اتبعه الرسول ﷺ. وهو اليوم كفيل بإقناع أولئك الذين يظنون أن عقوبة المرتد هي الموت، فلو كان الأمر في عقوبة الردّة عن الإسلام كذلك، لأصرّ الرسول ﷺ على إعادة المرتد إليه كي يقيم عليه حد الإسلام الذي يدّعونه.

عندما تمت كتابة الاتفاق وتم التوقيع عليه، حدثت حادثة كان من شأنها اختبار نيّات الأطراف الموقعة على الاتفاق، فإن أبا جندل، ابن سُهيل بن عمرو، أي أنه ابن السفير المكّي المفوّض الذي وقع معه العهد، مثُل أمام الرسول ﷺ يرسف في قيوده، جريحًا منهكًا، قد جاء زاحفًا من محبسه هاربًا، وسقط عند أقدام الرسول ﷺ قائلاً:

"يا نبيّ الله إنني مسلم من صميم قلبي، ولقد عانيت العذاب على يد أبي بسبب إيماني. إن أبي معك هنا، ولذلك هربت وتدبّرت أمري حتى جئت إليك". فقال سُهيل: "هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده". فقال الرسول ﷺ: "إنا لم نقض الكتاب بعد". فقال سُهيل: "فوا الله إذن لا أقاضيك على شيء أبدًا". فقال الرسول ﷺ: "فأجزه لي". فقال سُهيل: "ما أنا بمجيزه لك". قال: ''بلى فافعل''. قال: "ما أنا بفاعل". وضرب سُهيل أبا جندل في وجهه، وأخذ بتلابيبه وجرّه ليرده إلى المشركين. وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: "يا معشر

المسلمين، أأرد إلى المشركين ليفتنوني عن ديني"؟ فقال رسول الله: "يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا. إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم".

بعد توقيع الميثاق، رجع الرسول ﷺ إلى المدينة. وبعد العودة بقليل، جاء شاب مسلم من مكة هو أبو بصير، ولكن الرسول ﷺ ردّه إلى مكة حسب شروط المعاهدة، وفي طريق عودته قاتل حارسيْه فقتل أحدهما وفر الآخر. وذهب أهل مكة إلى الرسول ﷺ واشتكوا إليه طالبين أن يردّه إليهم. فقال الرسول ﷺ إنه سلمه إليهم، ولكنه فرّ منهم، وليس من واجب المسلمين أن يبحثوا عنه ويقبضوا عليه ويعيدوا تسليمه إليهم. وبعد عدة أيام فرّت امرأة مسلمة إلى المدينة، فجاء أقرباؤها وطالبوا بعودتها، فقال لهم الرسول ﷺ إن الميثاق يشمل الرجال لا النساء، ولذلك رفض إعادة المرأة.

رسائل رسول الله ﷺ إلى مختلف الملوك

عندما استقر الرسول ﷺ في المدينة بعد عودته من الحديبية، وضع ﷺ خطة أخرى لنشر رسالته، وهي أن يرسل إلى ملوك العالم. وعندما ذكر ذلك لأصحابه قال له الذين يعرفون عادات ومراسيم القصور الملكية إن هؤلاء الناس لا يقبلون كتابًا إلا مختومًا، وبناء عليه اتخذ الرسول خاتمًا منقوشًا عليه: محمد رسول الله.

واحترامًا للفظ الجلالة، كانت كلمة "الله" في القمة، وتحتها كلمة "رسول" وأخيرًا "محمد". وفي المحرم من عام ٦٢٨ ميلادية، أي العام السابع من الهجرة، أرسل الرسول ﷺ رسله إلى عواصم مختلفة، كل منهم يحمل كتابًا منه يدعو الحكام إلى قبول الإسلام.

ذهب الرسل إلى هرقل، عظيم الروم وإلى ملوك الفُرس والحبشة ومصر (كان ملك مصر حينئذ واليًا لقيصر على مصر)، وذهبوا إلى ملوك آخرين كذلك. وحمل دحْيَة الكلبى الرسالة المرسلة إلى قيصر، وكان الرسول ﷺ قد أمره أن يدفع الكتاب إلى حاكم بُصرَى ليدفعه إلى قيصر. وعندما قابل دحية الحاكم المذكور، تصادف أن كان قيصر بالشام في جولة بالإمبراطورية. فقدّم حاكم بُصرى دحية نفسه فورا إلى هرقل. وعندما دخل دحية إلى بلاط الملك قيل له إن كل من يتم استقباله أمام الجمهور ينبغي عليه أن يسجد لقيصر. فرفض دحية قائلاً إن المسلمين لا ينحنون أمام أيّ إنسان. وهكذا جلس دحية أمام القيصر دون أن يؤدي له طقوس الخضوع المفروضة. وتناول قيصر الرسالة وقرأها بواسطة مترجمه، وسأل إن كانت هناك قافلة عربية، وقال إنه يرغب في سؤال رجل من العرب حول هذا الرسول العربي الذي أرسل إليه دعوة لقبول الإسلام.

وحدث أن أبا سفيان كان في المدينة مع قافلة للتجارة بالشام، فأخذه بعض العاملين في بلاط قيصر مع نفر من أصحابه إلى هرقل. وأمره هرقل أن يقف أمام أصحابه من العرب، وأمرهم أن يصححوا

مقالته إن كذب أو خالف الحقيقة. ثم أخذ هرقل يسأل أبا ســـفيان، وجرت المحاورة بينهما كما سجلته صحائف التاريخ على النحو التالي:

هرقل: هل تعرف هذا الشخص الذي يدعي أنه رسول الله والذي قد بعث إلي رسالة؟ وكيف نسبه فيكم؟

فأجاب أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، وهو من أقاربي

هرقل: فهل قال هذا القول أحد من العرب قبله قط؟

أبو سفيان: لا

هرقل: فهل تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

أبو سفيان: لا

هرقل: فهل كان من آبائه مِن مَلِكٍ؟

أبو سفيان: لا

هرقل: كيف ترون مقدرته على الحكم؟

أبو سفيان: لم نجد أي غبار على مقدرته على الحكم

هرقل: فأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟

أبو سفيان: بل معظمهم من الضعفاء والمتواضعين والشباب

هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟

أبو سفيان: بل يزيدون

هرقل: فهل يرتدّ أحد منهم سخْطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

أبو سفيان: لا

هرقل: فهل يغدر؟

أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها

هرقل: فهل قاتلتموه؟

أبو سفيان: نعم

هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟

أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. ففي معركة بدر – التي لم أحضرها أنا – استطاع أن يتغلب علينا. أما في أُحُد – التي كنت أنا قائد جيشنا فيها – فنلنا منه، إذ بقرنا بطونهم وقطعنا آذانهم وأنوفهم.

هرقل: ماذا يأمركم؟

أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يعبده آباؤكم من الأصنام. ويأمرنا أن نعبد الله وحده، وأن نقول الصدق، ونتجنب السيئات. ويحثنا على الإحسان والوفاء بالوعد وأداء الأمانة.

فلما انتهت هذه المكالمة الممتعة قال هرقل للترجمان قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأْتَسي بقولٍ قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه مِن ملِك فذكرت أن لا قلت: فلو كان من آبائه مِن ملِك قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أنّ ضعفاءهم

اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخْطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين. (انظر البخاري، كتاب بدء الوحي)

وأزعج هذا الحديث حاشية الملك، وبدأوا يلومونه لإطرائه إمام طائفة أخرى غيرهم، وارتفعت الأصوات المعترضة واللغط، فأمر هرقل الضباط بإخراج أبي سفيان وأصحابه.

كان نص كتاب الرسول ﷺ كما جاء في التاريخ المدوّن كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون". (البخاري، كتاب بدء الوحي)

كانت الدعوة إلى الإسلام المدوّنة في كتاب الرسول ﷺ إلى قيصر، دعوة إلى الإيمان أن الله واحد وأن محمدًا هو رسوله، وعندما قال الخطاب إن هرقل سينال أجره مرتين لو آمن وأصبح مسلمًا، فإنما

يرجع ذلك إلى حقيقة أن تعليم الإسلام يحتوي على الإيمان بعيسى ومحمد كليهما.

ويُروَى أن بعض الحاشية اقترحوا على الملك تمزيق الخطاب ورميه بعيدًا حالًما قدم الكتاب بين يديه، فقد كان الخطاب إهانة للإمبراطور حسبما قالوا، فلم يوصف الإمبراطور بصفته كإمبراطور، ولكن على أنه مجرد "صاحب الروم" أي عظيم الروم. وردّ الإمبراطور بأنه مهما يكن، فليس من الحكمة تمزيق الكتاب بدون قراءته. وأضاف أيضًا أن مخاطبته باعتباره عظيم الروم ليست خطأ، فإن عظيم الكون كله هو الله، وأيّ إمبراطور فليس إلا مجرد كبير القوم.

وعندما علم الرسول ﷺ بالطريقة التي استقبل بها هرقل كتابه بدا راضيًا وسعيدًا، وقال إن مُلكه سوف يستمر بسبب الاستقبال الذي تلقّى به كتابه، وأن نسله سيستمر طويلاً في حكم الإمبراطورية. وهو ما حدث فعلاً، ففي الحروب التي تلت ذلك، خرج من يد الروم جزء كبير من إمبراطورية الروم تحقيقًا لنبوءة أخرى من نبوءات الرسول ﷺ. وبعد ستمائة سنة من هذا الحادث كانت أسرة هرقل لا تزال باقية تحكم في القسطنطينية، وكان خطاب الرسول ﷺ محفوظًا لا يزال في أرشيف الدولة لوقت طويل. وحدث أن قام سفير أحد الملوك المسلمين وهو الناصر قلاوون، بزيارة إلى البلاط الروماني، وهناك أرُوه الخطاب مودعًا في حافظة. وقال له الإمبراطور الرومي الذي أراه الخطاب، إن جدّه الأول قد تلقاه من نبيّهم، وأنه قد تم الاحتفاظ به بكل عناية.

كتاب رسول الله إلى ملك الفرس

تم إرسال كتاب إلى ملك الفُرس مع عبد الله بن حذافة السهمي، وكان نصه كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك". (الزرقاني والخميس)

قال عبد الله بن حذافة إنه حين بلغ بلاط كسرى، التمس تسليم الكتاب إلى الملك. وتسلم الملك الكتاب، وأمر المترجم أن يقرأ ما فيه وأن يشرح محتواه. وما أن سمع بالأمر حتى سخط، واستعاد الكتاب ومزّقه إربًا. وأبلغ عبد الله بن حذافة الرسول ﷺ بالخبر، وما أن سمع الرسول ﷺ القصة حتى قال: "مزّق الله ملكه".

كانت نوبة الغرور التي انتابت كسرى في هذه المناسبة نتيجة للدعاية المدمّرة التي كان يقوم بها اليهود ضد الإسلام، وهم أولئك الذين هاجروا من أراضي الدولة الرومانية إلى الأراضي الإيرانية. فقد ساهم هؤلاء اللاجئون اليهود في تدبير المكائد ضد الروم مدعومين من الفُرْس، وأصبحوا من أجل ذلك مقرّبين لدى البلاط الفارسي. لذلك، كان قلب الإمبراطور كسرى مليئًا بالحنق على الرسول ﷺ، وبدا له أن الروايات التي حملها إليه اليهود صحيحة، وقد أكّدها ذلك

الكتاب. وظن أن الرسول ﷺ كان مغامرًا عدوانيًا يحمل الشـر نحـو أرض فارس. فأرسل لفوره إلى حاكم اليمن يقول له إن واحدًا مـن قريش في الجزيرة العربية قد أعلن نفسه نبيًّا، وإن دعواه قد تجـاوزت الحدود. وطلب من الحاكم أن يرسل إليه رجلين قويين ليقبضا علـى هذا القرشي، ويصحباه إلى البلاط الفارسي. وقام "باذان" الذي كان يحكم اليمن باسم كسرى، فأرسل أحد قواد جيشه في صـحبة قـوة راكبة إلى الرسول ﷺ، وأرسل معهم خطابًا يقول فيه للرسول ﷺ إنه يجب عليه حالما استلم الخطاب أن يرافق الرسولين لفوره حتى الـبلاط الفارسي. وكانت رحلة الشخصين قد قصدت مكة ولكنهما علمـا عند الطائف أن الرسول ﷺ يعيش في المدينة. وعند وصـولهما إليهـا أخبر قائد الوفد رسول الله أن باذان حاكم اليمن قد تلقى أمرًا مـن كسرى أن يُعدّ عدّة للقبض على النبيّ وإحضاره إلى أرض فارس، وأنه لو رفض الطاعة فإنه هو وشعبه سيتم القضاء علـيهم، وسـتتحول ديارهم إلى خراب يباب. وأصر الوفـد الـيمني دون أي شـفقة أن يطيعهم الرسول ليقودوه إلى أرض فارس. واستمع الرسول ﷺ لهما ثم اقترح أن يلقياه في الغد. وخلال الليل دعا الله تعالى، فأخبره سـبحانه بأن عجرفة كسرى قد كلفته حياته. وقال الوحي إن الله تعـالى قـد حرّك قلب ابن كسرى ضد أبيه، وسيقتل هذا الابن أباه في يوم الاثنين ١٠ جمادى الأولى من ذلك العام. وقالت رواية إن الوحي كان: "لقد قتل الابن الأب في نفس الليلة". ويحتمل أن تلك الليلة نفسها كانـت ليلة ١٠ جمادى الأولى. وفي الصباح أرسل الرسـول ﷺ إلى الوفـد

اليمني وأبلغهما بما أُوحي إليه ليلاً، ثم زوّدهما بكتاب إلى باذان قال فيه إن كسرى سيتم قتله في يوم كذا من شهر كذا. وعندما تلقّى حاكم اليمن الرسالة قال: "لو كان هذا الرجل نبيًّا حقًّا فسيكون ما قال، وإن لم يكن فليساعده الرب هو وبلده كلها". ولم يمض قليل زمن حتى رسا قارب على شاطئ اليمن يحمل رسالة إلى حاكم اليمن من إمبراطور الفُرس، وكان يحمل خاتمًا مختلفًا عن خاتم كسرى، فاستنتج من ذلك أن نبوءة النبيّ العربي قد تحققت وثبتت صحتها، فالخاتم الجديد يعني ملكًا جديدًا. وفتح باذان الكتاب وقرأ ما يلي:

"من كسرى شيرويه إلى باذان حاكم اليمن، لقد قتلت أبي لأن حكمه أصبح فاسدًا وظالمًا، وعامل الرعية بوحشية. وعليه حالما يتلقى الرسالة أن يجمع قادته وأن يطلب إليهم توكيد ولائهم لي، وأما بالنسبة لما أمر به أبي من القبض على النبيّ العربي، فلتعتبر هذه الأوامر ملغاة". (الطبرى ج ٣ ص ١٥٧٢ — ١٥٧٤، وابن هشام ص ٤٦)

لقد بلغ من تأثر باذان بهذه الأحداث أنه آمن في الحال ومعه بعض أصدقائه، وأبلغوا الرسول ﷺ بذلك.

كتاب رسول الله إلى النجاشي

حمل عمرو بن أمية الضمري كتاب الرسول ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، وكان كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي

لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل. وقد بلّغت ونصحت، فاقبل نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى". (الزرقاني)

عندما وصل هذا الكتاب إلى النجاشي أظهر تقديرًا واحترامًا عظيمين له، ووضعه بين عينيه، ونزل عن عرشه ووضعه في حق من عاج وهو يقول: "طالما كان هذا الكتاب محفوظًا فإن الله سيحفظ ملكي". ولقد ثبت صدق قوله، فلألف سنة قادمة جرى المسلمون على غير عادتهم إزاء هذه المملكة، لقد ذهبت جيوشهم إلى كل اتجاه، ومروا بالحبشة على كل جانب، ولكنهم لم يمسوا مملكة النجاشي الصغيرة هذه. لقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية، وفقد كسرَى مُلكه، واختفت ممالك في الهند والصين، ولكن هذه المملكة الصغيرة بقيَت مصونة لأن حاكمها استقبل اللاجئين المسلمين الأولين وشملهم بالحماية، وأظهر الاحترام والتبجيل لكتاب رسول الله إليه، وبهذه الطريقة ردّ المسلمون على الشهامة التي أبداها النجاشي.

قارن ذلك بالمعاملة التي لقيتها مملكة النجاشي المسيحية من أحد الشعوب المسيحية الأخرى باسم المدنية والحضارة في عصرنا هذا، لقد

دكوا مدنهم بالقنابل من الجو وحطموها، واضطرت العائلة المالكة إلى اللجوء خارج البلاد عدة سنوات.

لقد عومل نفس الشعب معاملتين مختلفتين من شعبين مختلفين، لقد حفظ المسلمون الحبشة مصونة وآمنة بسبب نخوة الشهامة لدى أحد حكامها، وهاجم شعب مسيحي أوربي هذا البلد وسلبه ونهبه تحت شعار الحضارة. وهذه المقارنة تُظهر إلى أيّ مدى تُثبت تعاليم الرسول ﷺ وقدوته أنها نافعة وراسخة التأثير.

لقد شعر المسلمون بالامتنان نحو مملكة مسيحية جعلت المسلمين في أمان معها، وقام شعب مسيحي طمّاع بالعدوان على هذه المملكة دون أن يبالي بأنها كانت بلدًا مسيحيًّا.

كتاب رسول الله إلى حاكم مصر (المقوقس)

حمل حاطب ابن أبي بلتعة كتاب الرسول ﷺ إلى المقوْقس، وكان نصه تمامًا كما كان كتابه إلى هرقل إمبراطور الروم. وبينما قال كتابه إلى إمبراطور الروم إن إثم إنكار الرومان سيتحمله هو على نفسه، فإن كتابه إلى المقوقس قال إن إثم إنكار القبط سيقع على المقوقس الحاكم، وكان الكتاب كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

أَنْ لا نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾". (السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٥)

عندما وصل حاطب إلى مصر، لم يجد المقوقس في العاصمة، فتبعه إلى الإسكندرية حيث كان له بلاط قريب من البحر. ذهب حاطب على قارب، وكان القصر مدجّجًا بالحرس، عند ذلك رفع حاطب يده بالكتاب على مسافة منهم وبدأ يصيح عاليًا، فأمر المقوقس أن يقرّبوه منه، وأمره أن يحضر الكتاب. وقرأ المقوقس الكتاب ثم قال: "لو كان هذا الرجل صادقًا فلم لم يستنْزل الهلاك على أعدائه"؟ فأجاب حاطب: "أنت تؤمن بالمسيح، ولقد أُسيئت معاملته على يد شعبه، ولكن هل دعا عليهم بالهلاك"؟ عند ذلك أعطى المقوقس إلى حاطب هدية وقال له: "لقد كانت كلمتك تمثيلاً حكيمًا من رجل حكيم أجاد في الإجابة على السؤال الموجّه إليه". عند ذلك أكمل حاطب حديثه: "إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فلا تستكبر، آمن برسول الله هذا، وبالله ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبيّ أدرك قومًا فهُم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه. وأنت ممن أدركه هذا الرسول، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به".

عندما سمع المقوقس ذلك أشار إلى أنه سمع تعاليم الإسلام، فوجد أن هذا النبيّ لا يأمر بإثم ولا ينهَى عن خير، وأنه بحث في أمره فلم

يجده بالساحر ولا بالكاهن، وأنه سمع ببعض نبوءاته التي تحققت. ثم أرسل يطلب حقًّا من عاج فوضع فيها الكتاب، وختمه ودفعه إلى خادمة عنده وأمرها بحفظه في مكان آمن. وكتب ردًّا على الرسول ﷺ حفظ التاريخ نصه وهو كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من المقوقس ملك القبط إلى محمد بن عبد الله، سلام عليك، وبعد. فلقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرتَ فيه وما تدعو إليه وقد علمتُ أن نبيًّا بقيَ وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسولك وأعطيتُه ألف دينار وخمسًا من الخيل هدية، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، إحداهما مارية والأخرى سيرين. وأهديتك أيضًا عشرين ثوبًا من نسيج مصر من أحسن ما فيها، وأهديتك بغلة لتركبها والسلام عليك". (الزرقاني والطبري)

يتضح من هذا الخطاب أن المقوقس لم يعتنق الإسلام، رغم أنه تلقّى كتاب الرسول ﷺ إليه باحترام.

كتاب رسول الله إلى عظيم البحرين

وأرسل الرسول ﷺ أيضًا إلى عظيم البحرين المنذر بن ساوى التيمي، مع الصحابي العلاء بن الحضرمي. ولقد فقد التاريخ نَص هذا الكتاب، غير أنه عندما وصل الكتاب إلى هذا الزعيم دخل في الإسلام، وأرسل إلى الرسول ﷺ يقول إنه هو وكثير من أصدقائه قد قرروا الانضمام لصف الإسلام، وأن هناك البعض ممن قرروا أن يظلوا

خارجه على أية حال. وأضاف أن بأرضه يهودًا ومجوسًا، وسأله ماذا يفعل معهم؟؟

ورد الرسول ﷺ عليه في كتاب قائلاً:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد: فإني أذكّرك الله عز وجل، فإن من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنّ من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي. وإنّ رسلي قد أثنوا عليك خيرًا، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية". (زاد المعاد)

وأرسل الرسول ﷺ كذلك إلى ملك عُمان، وزعيم اليمن، وملك غسّان، وسيد بني فهد، وهي قبيلة من اليمن، وسيد همدان، وهي قبيلة يمنية أخرى، وسيد قبيلة بني عليم، وسيد قبيلة الحضرمي، وأكثرهم أصبحوا مسلمين.

تدل هذه الرسائل على مدى اكتمال ثقة الرسول بالله ﷻ، وتدل أيضًا منذ البدايات الأولى على يقين الرسول ﷺ أنه لم يُرسَل لقوم معينين، بل للناس كافة في الأرض كلها. صحيح أن الرسائل استُقبلت بطرق مختلفة من طرف الذين خوطبوا بها، فبعضهم أسلم لفوْره والبعض عامل الكتب باحترام شديد ولكنه لم يقبل الإسلام، وبقي آخرون عاملوها بلطف عادي وآخرون أظهروا الاحتقار والغطرسة.

ولكن من الصحيح أيضًا، والتاريخ شاهد على ذلـــك، أن الـــذين تلقوا هذه الرسائل هم وشعوبهم قد لقوا نفس المصير الـــذي لقيَتـــه الرسائل عندهم، وقد عاملهم الله بنفس معاملتهم لخطابات الرســـول ﷺ.

سقوط خيبر

وكما سبق أن قلنا، فإن اليهود وخصوم الإسلام الآخرين كـــانوا الآن مشغولين جدًّا في استثارة القبائل ضد المسلمين، وقـــد تكوّنـــت لديهم دلائل مقنعة أن الجزيرة العربية لن تصمد طويلاً أمام تنامي قوة الإسلام، وأن قبائل العرب لم تعد قادرة على مهاجمة المدينة متحـــدة وفي وقت واحد. لذا لجأ اليهود إلى الكيْد مع القبائل المسيحية علـــى جنوب جبهة إمبراطورية الروم، وفي نفس الوقت بدأوا يكتبـــون إلى إخوانهم في الدين في العراق ضد الرسول ﷺ. لقد التمسوا بالـــدأب على المراسلة الحاقدة الخبيثة أن يثيروا كسرى الفُرس ضد الإســـلام، ولقد ثار كسرى فعلاً ضده نتيجة لمؤامراتهم وحيَلهم، حتى إنه أرسل إلى عامله على اليمن أن يلقي القبض على الرسول ﷺ.

ولقد بقي الرسول ﷺ آمنًا بسبب التدخل الإلهي والرحمة الإلهيـــة، ولقيت خطة إمبراطور الفرس الخيبة والفشل. ومن البيّن الواضح أنـــه لولا العوْن الإلهي العظيم الذي رافق الرسول ﷺ خلال قيامه برســـالته النبوية، لكانت حركة الإسلام الغضّة الناشئة خليقة أن يتم قصـــمها وتقويضها وهي في مهدها تحت ضغط العداء والكراهية والمعارضة من طرف أباطرة الروم والفرس. فعندما أصدر كسرى أمره بالقبض على

الرسول ﷺ، حدث عندئذ أن عُزل الإمبراطور ولقي مصرعه على يد ابنه قبل أن يأخذ التنفيذ مجراه، وتم إلغاء الأمر الصادر، وكان ذلك الإلغاء على يد حاكم مختلف، وأدّى التأثير المعجز لهذا الحدث على حاكم اليمن وقادته أن تحوّلت مقاطعة اليمن إلى جزء من إمبراطورية الإسلام.

ولا ننسى أن المكائد التي ظل اليهود يرسمون خططها في المدينة ضد المسلمين ومدينتهم، جعلت من الضروري إجلاءهم عنها، وإلا فقد كان تزايد زخم هذه المكائد مهدّدًا بوصولها لحد خطير، يؤدّي إلى سفك الدماء وتزايد أشكال العنف. لذلك فبعد عودة الرسول من الحديبية، انتظر خمسة أشهر ثم قرر إقصاءهم من خيبر، فقد كانت خيبر على مسافة قليلة من المدينة ومن هنا وجد اليهود أنه من السهل اليسير عليهم الاستمرار في الكيد والتآمر ضد المسلمين. ولهذا سار الرسول ﷺ إليهم في وقت ما من آب/أغسطس (٦٢٨ بعد الميلاد) ومعه ١٦٠٠ رجل، وكانت خيبر جيّدة التحصين كما أسلفنا حيث كانت تحيطها عدة أراض صخرية، على كل منها أقيم حصن صغير، و لم يكن من السهل على قوة صغيرة كتلك التي صاحبت الرسول ﷺ أن تفتح مكانًا كهذا. وبعد قتال محدود سقطت القوات الصغيرة المرصودة في ضواحي خيبر، ولكن اليهود قاموا بتجميع قواهم في المدينة الحصينة، وفشلت محاولات الهجوم عليهم. وتلقى الرسول ﷺ وحيًا في يوم من الأيام أنه تعالى سيفتح على عليّ بن أبي طالب ﷺ.

وفي الصباح التالي أعلن الرسول ﷺ ذلك على المسلمين، ودعا بالراية السوداء وقال: "اليوم أعطي الراية لرجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله والمؤمنون، يفتح الله خيبر على يديه". وهكذا دعا الرسول ﷺ عليًّا ودفع إليه الراية. ولم ينتظر عليّ، بل قاد رجاله وهاجم قوات الحصن لفوره.

وبالرغم من أن اليهود قد جمعوا حشود قواتهم داخل هذا الحصن، فإن عليًّا وصحبه قاموا بفتح الحصن قبل حلول الظلام، وتم توقيع اتفاق السلام، وكانت الشروط هي أن يغادر خيبر كل اليهود وأزواجهم وأطفالهم، إلى مكان آخر بعيد عن المدينة. وأن كل ما يملكون قد صار مآله إلى أيدي المسلمين. وأن هذا العهد لا يحمي من أخفى شيئًا من ممتلكاته أو كنوزه، أو كذب على المسلمين بشأن مكانها، وسيتم عقابه لنقض الميثاق.

وخلال حصار خيبر، حدث أحداث ثلاثة لها أهمية خاصة، يدل واحد منها على آية من آيات الله، ويدل الاثنان الآخران على مدى رقي المستوى الروحي والخلقي لرسول الله.

كان الرسول ﷺ قد تزوج صفية بنت حُيي بن أخطب، وهي أرملة رجل يُسمى كنانة، وكان أبوها أحد زعماء خيبر. وبعد أن قُتل زوجها في معارك خيبر وانتهاء عدتها، أتى بها الرسول ﷺ فرأى على وجهها أثر صفعة، فسألها عنها. وردّت عليه قائلة إنها رأت قبل ذلك أن القمر وقع في حجرها، فذكرت ذلك لأمها، فلطمت وجهها وقالت إنك لتمدّين عنقك لأن تكوني زوجة لملك العرب، فلم يزل

الأثر في وجهها إلى أن تزوّجها رسول الله ﷺ (الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني).

كان القمر هو الشعار القومي للعرب، وسقوط القمر في الحضن يعني اتصالاً حميمًا مع ملك العرب، وانشقاق القمر وسقوطه إلى الأرض يعني انشقاق الدولة أو سقوطها. إن رؤيا السيدة صفية تدل على صدق الرسول ﷺ، وتدل على تفاعلات خاصة بهذه السيدة بشأن الإسلام في نفسها، وضد الاتجاه العام المتحامل لقومها والمتحيّز ضد النبي، وتدل على أن الله تعالى يوحي بأمور من المستقبل لعبده في المنام، وينال المؤمنون من هذه النعمة نصيبًا يفوق نصيب الكافرين. وكانت السيدة صفية يهودية حين رأت هذه الرؤيا، وحدث أن زوجها قُتل خلال حصار خيبر التي كانت عقابًا لليهود على خرقهم العهود. ووقعت السيدة صفية في الأسر، وعند توزيع الأسرى على الصحابة، وقعت السيدة صفية في سهم أحد الصحابة. ولما عرف أنها أرملة أحد الزعماء وابنة زعيم خيبر، وجد أن من التكريم لها أن تعيش في بيت الرسول، واختار الرسول ﷺ أن يكرمها بزواجها، فوافقت السيدة صفية. وبهذه الطريقة تحققت رؤياها.

أما الحادثتان الأخريان، ففي إحداهما، أن راعيًا أسلم قبل استسلام الحصن وكان يرعى غنمًا لأحد زعماء اليهود، وقال للرسول ﷺ بعد إسلامه إنه لا يستطيع العودة إلى أهله بعد الآن، وسأل: ماذا يفعل بالماعز وبالغنم التي هي لسيده العجوز؟، فأمره الرسول ﷺ أن يوجّه وجهها إلى خيبر ثم يدفعها إلى هناك ويدعها، والله سيهديها إلى

سيدها. وفعل الراعي كما سمع، وفعلاً بلغ القطيع الحصن، واستقبله الحراس. (ابن هشام، ج٢ ص ١٩١)

وتدل هذه الحادثة على جدّية تناول الرسول لقضية الحقوق الفردية والملكية، كما تدل على مدَى حرصه ﷺ على أن يؤدّي المؤتمن الأمانة إلى من ائتمنه عليها. ففي الحرب تؤول إلى المنتصر الممتلكات المادّية التي تنتمي للخاسر، ولكن صاحب الغنم المحارب لم يكن قد خسر بعد. فهل يمكن أن نرى شيئًا كهذا في عصرنا الحالي المسمى عصر التمدن والثقافة؟ هل حدث قط أن انسحب عدوّ خاسر فوُجدت في المتروكات خلفه كنوز أو ثروات كان المنتصر قد أعادها إلى مالكيها أثناء القتال؟ ففي هذه الحالة التي بين أيدينا، كانت الماعز والغنم مملوكة لأحد الذين يقاتلون المسلمين، وكان في عودة القطيع معنى إعطاء الفرصة للعدوّ للبقاء والمقاومة لعدة شهور مستخدمًا القطيع كغذاء، ولكن الرسول ﷺ سمح لها بالعودة ليغرس في تابعه الجديد روح الأمانة وضرورة أدائها.

وفي الحادثة الثالثة حاولت امرأة يهودية تسميم طعام الرسول، وسألت أصحابه عن الجزء المفضل لديه في الشاة، وقالوا لها إنه يفضل كتف الحمل أو الماعز. وقامت المرأة بذبح ماعز وشوَته على الصخر الحار، وخلطته بسم مميت، وخصّت بالسم قطع الكتف باعتبار أن الرسول ﷺ سيفضل الأكل منها.

كان الرسول ﷺ قد عاد لخيمته بعد أن أمّ المصلين في جماعة العشاء، فرأى هذه المرأة بجوار خيمته تنتظر، فسألها عما يمكنه أن يفعل

لأجلها. فقالت له: "بلى يا أبا القاسم. هل تقبل مني هدية"؟ فطلب الرسول ﷺ من أصحابه أن يأخذوا منها ما أحضرت. وعندما جلس الرسول ﷺ لتناول طعامه، كانت هذه الهدية المشوية من اللحم قد وُضعت أمامه. فنهس منها نهسة، وكذلك فعل البشر بن البراء بن معرور، ومد الصحابة الموجودون أيديهم إلى اللحم، فأوقفهم الرسول ﷺ قائلاً إنه يظن اللحم مسمومًا، وعندئذ قال بشر إنه يظن نفس الشيء، وإنه أراد أن يلقي باللحم بعيدًا ولكنه خشي إزعاج الرسول ﷺ. وقال: "لقد رأيتك تنهس نهسة ففعلت مثلك، ولكني سرعان ما تمنيت لو أنك لم تفعل أبدًا".

وبعد ذلك مرض بِشر، وفي بعض الروايات أنه مات في ذلك بعد فترة. وأرسل الرسول ﷺ يطلب المرأة وسألها عما إذا كانت قد سممت اللحم؟ فسألته كيف عرف ذلك؟ وكان الرسول ﷺ ممسكًا بقطعة من اللحم في يده، فقال لها: "لقد قالت لي يدي ذلك"، يعني أنه كان قادرًا على معرفة ذلك من طعمها، فاعترفت المرأة بما فعلت. فسألها الرسول ﷺ عما حملها على ذلك. فقالت: "إن قومي كانوا يقاتلونك، ولقد قُتل أقاربي في المعركة، فقررت وضع السم لك، وقلت لو كان كاذبًا فسوف يموت ونحيا في أمن، ولو كان صادقًا فسينجيه الله".

وعندما سمع الرسول ﷺ ذلك منها، غفر لها ما فعلت، رغم أنها كانت تستحق عقوبة الموت على هذه الفعلة (صحيح مسلم). كان الرسول ﷺ على استعداد للمغفرة في كل وقت، ولم يعاقب إلا عندما كان العقاب ضروريًا، عندما يهدد العفو بتمادي المجرم في إجرامه.

تحقق رؤيا رسول الله

في السنة السابعة للهجرة، وفي شهر فبراير/شباط ٦٢٩م على وجه التحديد، استعد الرسول ﷺ أن يذهب إلى مكة لطواف العمرة، وكان هذا ما تم الاتفاق عليه مع قادة مكة. وعندما حان وقت الرحيل، جمع ﷺ ٢٠٠٠ من أتباعه واتخذ معهم طريقه إلى مكة. وعندما بلغ مرّ الظهران حيث يحط الحجيج، أمر أصحابه أن يغمدوا أسلحتهم، وأن يضعوا عنهم الدروع، حيث جمعت في مكان هناك. وحرصًا على دقة تنفيذ الميثاق الموقّع في الحديبية، دخل رسول الله وصحبه المنطقة الحرام وسيوفهم في أغمادها، كما ينص عليه اتفاق الحديبية.

لم يكن دخول مكة بعد مرور سبع سنوات من البعد عنها أمرًا عاديًّا لرسول الله وصحابته. لقد تذكروا العذاب الذي تعرّضوا له أيام كانوا في مكة، وفي نفس الوقت رأوا مدى فضل الله تعالى ورحمته بهم أن أعادهم إلى مكة ليطوفوا بالبيت العتيق في سلام. كان غضبهم يتساوَى مع سرورهم. وأما أهل مكة، فقد تركوا منازلهم وصعدوا إلى قمم الجبال ليروا المسلمين. كان الحماس يملأ المسلمين، وتفيض قلوبهم بهجة وفخرًا. ولقد أرادوا بحماسهم أن يقولوا لأهل مكة إن الله قد صدقهم الوعد. وبدأ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ينشد بعض أغاني الحرب الحماسية، لكن الرسول ﷺ منعه وأمره ألا يفعل ذلك، بل يقول: "لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده". (السيرة الحلبية ج٣ ص ٧٣)

مكث الرسول ﷺ في مكة ثلاثة أيام بعد أن طاف بالكعبة وسعَى بين الصفا والمروة. وقد اقترح عليه عمه العباس أن يتزوّج شقيقة زوجه الأرملة واسمها ميمونة، فوافق الرسول ﷺ. وفي اليوم الرابع طلب أهل مكة انسحاب الرسول ﷺ وصحبه، فأمر رسول الله أصحابه بالانسحاب والتوجّه شطر المدينة. وقد التزم الرسول ﷺ بتنفيذ شروط الاتفاق التزامًا دقيقًا، وذلك بسبب عمق التزامه بأوامر الدين الذي يفرض عليه الوفاء بالعهود، ولحرصه البالغ على احترام مشاعر أهل مكة، وقد اضطره ذلك إلى ترك زوجه الجديدة السيدة ميمونة خلفه في مكة، ورتّب معها أن تلحق به مع مؤخرة القافلة التي تقوم بجمع الحاجيات الشخصية للمعتمرين بعد انسحابهم. وامتطى الرسول ﷺ ناقته وسرعان ما خرج من حدود المنطقة الحرام، وعسكر لقضاء الليل في مكان اسمه "سرف"، حيث لحقت به في خيمته السيدة ميمونة رضي الله عنها.

ولعله كان من الأوْلى إهمال ذكر هذه الحادثة وعدم إبراز تفاصيلها، خاصة وأننا نكتب لمحات مختصرة عن حياة الرسول ﷺ. ولكن للحادثة أهمية خاصة، وذلك بسبب الهجوم الذي يشنّه كُتّاب الغرب على الرسول ﷺ بسبب تعدّد زوجاته. فهم يتصوّرون أنّ التعدّد دليل على الضعف الشخصي وحب المتع الدنيوية. غير أن هذا التصوّر الخاطئ يكذّبه تمامًا إخلاص أزواجه له، وحبّهن الفائق لما يمثله، بشكل ملك عليهن أنفسهن.

إن هذا الحب والإخلاص يثبت أن حياة الرسول الزوجية كانت طاهرة ولا أنانية فيها، وكانت غنية بالمشاعر الروحية. ولقد كان أمرًا غريبًا وفريدًا أننا لا نجد رجلاً عامل زوجته الواحدة معاملة طيبة تقوم على المودّة والرحمة، كما عامل الرسول ﷺ زوجاته أجمعين.

ولو كانت مشاعر اللذة هي المحرك لحياته الزوجية، لوجدنا يقينًا أن أزواجه يختلفن معه ويعاندنه، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، فقد كانت كل أزواجه في حالة ود وتوافق معه، وكان هذا الود نتيجة لعدم أنانيته وأسْوته الحسنه الرشيدة الراقية السلوك، وكان رد فعلهن إزاء عدم الأنانية والسموّ الذي يمثله محضره أنهن أعطينه حبًّا وإخلاصًا سخيًّا غير ضنين. وقد سجل التاريخ أحداثًا عديدة تدل على ذلك، وأحدها يختص بالسيدة ميمونة نفسها. فلقد دخلت عليه أول مرة في خيْمة وسط الصحراء، وما كان لها أن ترى في هذا اللقاء الأول ذكرى غالية عزيزة، لو كانت علاقتها الزوجية مع الرسول ﷺ تحمل أي طابع للخشونة، أو لو كان الرسول ﷺ يفضّل بعض أزواجه على بعض بسبب الجمال الجسدي، بل إنها ما كانت لتحفظ ذكرى ذلك اللقاء بود عميق واعتزاز بالغ. ولو أن ذكرياتها مع الرسول ﷺ كان يشوبها أيّ جفاء أو مرارة، لكان جديرًا بها أن تنسَى كل شيء حول هذا اللقاء. فقد عاشت طويلاً بعد الرسول ﷺ، وماتت بعد أن بلغت من العمر عتيًّا، ومع ذلك فلم تنس خلاله أبدًا ماذا كان يعني بالنسبة لها لقاؤها مع الرسول ﷺ. وعند موتها، بعد أن شارفت الثمانين من عمرها، وبعدما غابت ونُسيت جميع المباهج الجسدية، ولم يعد يحرك

القلب غير القيم العليا، ولا يؤثر في النفس والوجدان سوى الفضائل الكريمة، طلبت السيدة ميمونة أن تُدفن على مسيرة يوم خارج مكة، في نفس المكان والبقعة التي عسكر فيها الرسول ﷺ أثناء عودته إلى المدينة، والتي لقيته فيها لأول مرة. إن العالم يعرف قصصًا كثيرة عن الحب، منها الحقيقي والخيالي، ولكن لا شيء من بينها أكثر تحريكًا للقلب من هذه القصة.

بعد أن تمت هذه العُمرة التاريخية، انضم إلى الإسلام قائدان شهيران من قادة العدوّ، وأثبتا بعد ذلك أنهما قائدان فذّان من قادة الإسلام. كان أحدهما خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي هزّت بطولته وعبقريته دعائم الإمبراطورية الرومانية، وانضمّت إلى الدولة الإسلامية تحت راية قيادته الدول المحيطة الواحدة تلو الأخرى. وكان القائد الثاني هو عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي فتح مصر.

موقعة مؤتة

لدى عودته من العمرة، بدأ الرسول ﷺ يتلقى أخبارًا تقول إن القبائل المسيحية على حدود الشام تُعد للهجوم على المدينة بتأثير التحريض والإغواء من طرف اليهود والمشركين. فأرسل مجموعة من خمسة عشر رجلاً لتقصّي الحقيقة، فرأوا جيشًا يتجمع على حدود الشام. ولكنهم تأخروا بدلاً من الرجوع في الحال كي يقدّموا تقريرهم للرسول ﷺ. لقد دفعهم حماسهم إلى اتخاذ قرار متسرّع بالدعوة إلى

الإسلام وشرح حقائقه لهم فلعلهم يهتدون، ولكن نيّاتهم الحسنة أحدثت تأثيرًا معاكسًا لم يرغبوه ولم يتوقّعوه.

وإذا راجعنا الأحداث بتفكيرنا الحالي، نستطيع أن نرى أن أولئك الذين كانوا يخططون لغزو بلد الرسول ﷺ بتحريض من العدوّ، لم يكن من المتوقع منهم أن يتصرّفوا بأي أسلوب آخر. فبدلاً من الإنصات والاستماع للدعوة التي تُعرض عليهم، إذا بهم يتناولون أقواسهم ونشابهم، ويمطرون الوفد النبويّ بوابل من السهام. وصمد الوفد المكوّن من خمسة عشر رجلاً للسهام دون حركة، فقد تلقوا سهامًا على ما قدموه من حجج وبراهين، ومن ثم لم يتراجعوا. خمسة عشر وقفوا صامدين أمام الآلاف، وسقطوا جميعًا صرعَى.

وجهز الرسول ﷺ حملة لعقاب المعتدين على هذه القسوة والوحشية الطائشة، ولكنه في نفس الوقت تلقى أخبارًا تقول إن القوات التي كانت تتجمع محتشدة على الحدود قد تفرقت فأجّل خطته، غير أنه بعث برسالة إلى إمبراطور الروم (أو إلى زعيم قبيلة غسّان الذي كان يحكم بُصرى باسم الروم). ولعله في هذه الرسالة كتب يشكو من الاستعدادات التي شُوهدت على حدود الشام، ومن المذبحة الحمقاء الظالمة التي لقيَها الخمسة عشر مسلمًا الذين أرسلوا لمعرفة أخبار ما يحدث على الحدود.

وحمل الرسالة صحابي اسمه الحارث بن عُمير الأزدي، فعرض له في الطريق عند مؤتة.. شُرَحبيل بن عمر الزعيم الغسّاني، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبَل قيصر.

سأله الزعيم الغسّاني شرحبيل: "هل أنت رسول محمد؟ لعلك تحمل رسالة منه".. وبمجرد أن أجاب الصحابي بالإيجاب قام الزعيم الغسّاني بالقبض عليه، وأوثقه ثم عذبه بالضرب المبرح إلى أن مات. ولعل هذا الزعيم الغسّاني كان هو قائد الجيش الذي لقي الجماعة المكونة من ١٥ مسلمًا، وقام بقتلهم، هؤلاء الذين لم يفعلوا شيئًا سوى أنهم حاولوا أن يبشروا بدينهم. إن حقيقة سؤاله للحارث عن احتمال حمله رسالة من الرسول ﷺ توضح أنه كان يخشى أن تبلغ شكوى الرسول ﷺ مسامع قيصر عن هجومهم وقتلهم الخمسة عشر مسلمًا.

كان خائفًا أن تتم محاسبته على ما حدث، وظن أن قتل حامل رسالة الرسول سيكون أمانًا بالنسبة إليه، ولكن توقعه لم يتحقق. فقد بلغت أخبار القتل الرسول ﷺ، فجهز جيشًا من ٣٠٠٠ مقاتل للانتقام من هذه الحادثة والتي سبقتها، وبعث بهم إلى الشام تحت إمرة مولاه زيد من حارثة، مملوكه الذي حرره، وعيّن الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب ليخلف زيدًا لو قتل، وعبد الله بن رواحة فيما لو قتل جعفر، وفوّض للمسلمين اختيار من يخلف عبد الله بن رواحة لو قتل.

وعلّق على ذلك رجل من اليهود كان حاضرًا فقال للرسول ﷺ: "يا أبا القاسم! لو كنت نبيًّا حقًّا فإن هؤلاء الثلاثة الذين سميتهم سيموتون فعلاً، لأن الله لابد أن يصدق ما يقول الرسول"، والتفت إلى زيد قائلاً: "خذها مني، لو كان محمد نبيًّا فلن تعود حيا". ولما كان زيد من المؤمنين المخلصين أجابه قائلاً: "إن محمدا رسول الله حقًّا، سواء عدتُ حيًّا أو لم أعد." (السيرة الحلبية ج٣ ص ٧٥)

في الصباح التالي بدأ الجيش المسلم رحلته الطويلة. وصحبهم الرسول ﷺ ورفاقه لبعض الطريق. ولم يحدث أبدًا أن خرجت حملة بهذه الأهمية والحجم بدون قيادة الرسول ﷺ نفسه، وبعد ما سار الرسول بعض الوقت ليوَدّع الحمْلة، أوصاهم وأمرهم ونصحهم عند ثنية الوداع التي تعَوّد أهل المدينة أن يُوَدّعوا عندها المسافرين إلى الشام من الأصدقاء والأقارب، فقال:

"أوصيكم بتقوى الله والعدل فيمن معكم من المسلمين، اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا أعمَى ولا كبيرًا فانيًا ولا منعزلاً بصوْمعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ولا تهدموا بناء". (السيرة الحلبية ج ٣)

بعد ذلك عاد الرسول ﷺ أدراجه وتقدم الجيش إلى الأمام. كان ذلك أول جيش يرسل للحرب ضد قوة مسيحية، وعندما بلغ المسلمون حدود الشام سمعوا أن قيصر نفسه مع مائة ألف من جنوده في الميدان، ومائة ألف آخرين مجنّدين من القبائل المسيحية العربية. ولما وجد المسلمون أنفسهم في مواجهة هذا العدو الهائل، فكّروا أن يتوقفوا في طريقهم ليرسلوا رسالة إلى الرسول ﷺ في المدينة ليرسل إليهم مددًا أو يرسل إليهم تعليمات جديدة.

وعندما اجتمع القادة للمشاورة، وقف عبد الله بن رواحة وقد امتلأ بشعلة من الحماس فقال: "يا قوم. والله إن التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون؛ الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة،

ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما ظهور وإما شهادة".

وسمع الجيش ما قال ابن رواحة، وأحدث فيهم بالغ الأثر، واستقر رأيهم على ما دعاهم إليه. وتحرك الجيش إلى الأمـــام، وعنـــدما رأوا الجيش الرومي يتقدم نحوهم انحاز المسلمون إلى مؤتة وعسكروا هناك وتعبأوا للقتال، وهناك التقى الفريقان في المعركة. ولقي زيـــد قائـــد المسلمين مصرعه سريعًا، وحمل الراية بعده ابن عـــم رســـول الله ﷺ جعفر ابن أبي طالب فقاد الجيش. وعندما رأى ضغط العـــدو الهائـــل والمسلمين غير قادرين على التماسك بسبب قلـــة عـــددهم بشـــكل واضح، إذ ذاك ترجّل عن فرسه وعقرها، وكان هذا الفعل يعني أنه لن يفر أبدًا، وأنه قرر تفضيل الموت على الفرار، إن قطع أقدام الركوبة في عادة العرب يعني تجنب الهرب والهلع. وقُطعت يمناه وهـــو يقاتـــل، فأمسك الراية بيسراه فقطعت كذلك، فاحتضن الراية بعضديه وضمها إلى صدره، وسقط وهو يقاتل موفيًا بوعده، واستلم عبد الله بن رواحة الراية كما أمر الرسول ﷺ، وتولى القيادة فسقط هو أيضًا قتيلاً.

وكان أمْر الرسول ﷺ حينئذ أن يتشاور المسلمون معا ليختـــاروا قائدا لهم، ولكن الوقت لم يكن يسمح بهذا الاختيار. وكان خليقًـــا بالمسلمين أن ينهاروا إزاء الأعداد الهائلة للعدو، ولكن خالد بن الوليد قبل نصيحة صديق له فأخذ الراية وقاتل إلى المساء. وفي اليوم التـــالي نزل إلى الميدان ثانية مع قواته المجهدة المحدودة، وصنع حيلـــة حربيـــة بتغيير الجناح الأيمن محل الأيسر، ووضع القلـــب في الخلـــف وجـــاء

بالقوات الخلفية إلى المواجهة، ورفع بعض الشعارات الحربية. وتصوّر العدوّ أن المسلمين قد جاءهم الإمدادات خلال الليل فداخلهم الخوف، وأخذ المسلمون خلال المعركة ينسحبون والعدوّ لا يلاحقهم خوفًا من المكيدة، وأنقذ خالد بقايا قواته وعاد إلى المدينة. وتلقّى الرسول ﷺ الأخبار عن طريق الوحي، فجمع المسلمين في المسجد. وعندما نهض يخطبهم كانت عيناه مبللتين بالدموع وهو يقول:

"أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم" (زاد المعاد ج١ والزرقاني).

وأصبح وصف الرسول ﷺ لخالد شائعًا مشهورًا، وأصبح يُدعى بعدها سيف الله، ودخل المدينة ليجد نفسه معروفًا بذلك.

كان خالد يُعَيّر بسبب تأخر إسلامه من المسلمين الآخرين، وتشاجر مرة مع عبد الرحمن بن عوف، فاشتكى عبد الرحمن إلى الرسول ﷺ فعنّف الرسول خالدًا وقال له: "يا خالد، أتسيء إلى رجل حضر بدرًا، والله لو أنفقت مثل أحُد ما بلغ ذلك مدّ عبد الرحمن ولا نصيفه". ورد خالد: "ولكنهم عيروني وكان لا بد أن أرد عليهم". عند ذلك التفت الرسول ﷺ إليهم قائلاً: "لا تعيروا خالدًا، إنه سيف من سيوف الله سلّه الله على الكافرين". وتحققت كلمات الرسول ﷺ حرفيًا بعد سنوات قلائل.

عند عودة خالد إلى المدينة مع الجيش المسلم، قام بعض المسلمين بوصف انسحابهم على أنه فرار وضعف في الإيمان. كان النقد الشائع

يقوم على أساس أن واجبهم هو الموت مقاتلين. وعنّف الرسول المنتقدين، ونفَى عن الجنود أن يكون إيمانهم ضعيفًا، فقد كانوا جنودًا ينسحبون ليتحيّزوا إلى فئة ليعاودوا الهجوم. وقال الرسول ﷺ عن نفسه: "أنا فئة كل مسلم".

كان لهذه الكلمات معنى أعمق مما يبدو على السطح، فلقد كانت نبوءة بما سيحدث من القتال في الشام بعد ذلك.

مسير رسول الله إلى مكة في عشرة آلاف من أتباعه

في العام الثامن للهجرة في شهر رمضان (ديسمبر/كانون الأول سنة ٦٢٩ميلادية) خرج الرسول ﷺ في طريقه إلى آخر حملة غرست أعمدة الإسلام عميقًا في أرض الجزيرة العربية.

في الحديْبية تم الاتفاق بين الرسول ﷺ والمشركين على أن يُسمح للقبائل العربية الأخرى بالانضمام لحلف يضمهم مع المشركين أو مع المسلمين على السواء، واتُّفق أيضًا على إيقاف الحرب عشر سنوات بين الطرفين ما لم ينقض أحدهما أو المتحالفون معه الاتفاق بالهجوم على الطرف الآخر، وفي إطار هذا الاتفاق دخلت بنو بكر في حلف مع مكة، ودخلت خزاعة في حلف مع الرسول ﷺ.

ولما كان احترام المشركين العرب للمعاهدات ضئيلاً، خاصة معاهداتهم مع المسلمين، حدث أن كان بين بني بكر وخزاعة ثارات قديمة، فاستشارت بنو بكر بعض أهل مكة أن يعينوهم لأخذ ثأرهم من خزاعة، وبرّروا لهم طلبهم بأن خزاعة قد تخلت عن حذرها بعد

توقيع معاهدة الحديبية وأحسّت بالأمن بعد حلفهم مع الرسول، فهذا هو الوقت الأنسب للانتقام منهم في مذبحة مريعة. ووافقهم أهل مكة، وانتهزوا فرصة الظلام ليشتركوا في هجوم ليلي، ولقيَ كثير من رجال خزاعة مصرعهم، فأرسلت خزاعة وفدًا من أربعين رجلاً على جمال سريعة ليخبروا الرسول ﷺ بخيانة قريش للاتفاق المعقود معه، وليناشدوه النصر على مكة انتقامًا لهذه المذبحة.

والتقى الوفد مع الرسول ﷺ، وأخبرهم بجلاء قاطع أنه يعتبر مصابهم هو مصابه الخاص قائلاً للشاعر الذي كان في الوفد واستغاثه شعرا: "نُصرت ياعمرو بن سالم، وأشار إلى سحابة تتجمع في السماء وقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب". وخافت قريش العواقب، وأزعجها خبر وفد خزاعة إلى المدينة، فأرسلوا أبا سفيان سريعًا لتجديد الصلح منعًا لهجوم المسلمين. وبلغ أبو سفيان المدينة، وبدأ يبرر طلبه بأنه لم يكن موجودًا في عهد الحديبية، ولذا يلزم توقيع عقد سلام جديد. ورأى الرسول ﷺ أن ليس من الحكمة قبول العذر. واهتاج أبو سفيان وذهب إلى المسجد وأعلن: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ولم يفهم سكان المدينة معنى لقوله، فضحكوا منه. (الزرقاني)

وقال الرسول ﷺ لأبي سفيان إن كلامه من طرف واحد، وإن الطرف الآخر لم يوافق عليه. وأرسل الرسول ﷺ إخطارًا إلى كل القبائل، ولما تأكد له أنها على أهبة الاستعداد، أمر المسلمين أن يقوموا بتسليح أنفسهم والاستعداد.

وفي أول يناير/كانون الثاني بدأ زحف جيش المسلمين نحو مكة، وعند محطات مختلفة على الطريق انضمت إليه القبائل المسلمة الأخرى. وعندما دخل الجيش بريّة فاران بعد انقضاء عدة أيام قلائل، كان عدد المسلمين هو نفسه التي تنبأ به النبي سليمان من قبل، بعد أن تضخم حتى بلغ عشرة آلاف. وعندما تحرك هذا الجيش نحو مكة بدا الصمت المخيّم على كل مكان نذيرًا بالويل والثبور لأهل مكة. فأقنعوا أبا سفيان بالخروج مرة أخرى ليتبيّن نيّات المسلمين، فخرج ليجد كل الفلاة وقد أضاءها نيران المعسكرات على مسيرة أقل من يوم من مكة. كان الرسول ﷺ قد أمر بإيقاد النار أمام كل خيْمة، فكانت تلك النيران ذات لهب مخيف في ظلام الليل وسكونه.

وسأل أبو سفيان أصحابه: "ماذا يمكن أن يكون هذا؟ أهذا جيش هبط من السماوات؟ أنا لا أعرف جيشًا عربيًا بهذه الضخامة". وذكر أصحابه أسماء بعض القبائل، ومع كل اسم كان أبو سفيان يقول إن تلك القبيلة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وبينما أبو سفيان ورفاقه يتأملون الأمر إذ صاح به صوت في الظلام:

"أبا حنظلة". (حنظلة كان اسم ولد لأبي سفيان وكان يُكنى به).

"العباس؟ أأنت هنا"؟ هكذا رد أبو سفيان وقد عرف الصوت.

"نعم"، رد العباس، "إنه جيش الرسول جاءكم بما لا قِبَل لكم به".

كان العباس وأبو سفيان صديقين قديمين، وأصرّ العباس أن يحمل أبا سفيان على بغلته معه ليذهبا إلى الرسول ﷺ. وأمسك بيدي أبي

سفيان وشده وجعله يركب الدابة، ثم همز البغلة التي انطلقت مسرعة لتصل إلى معسكر الرسول ﷺ. كان العباس يخشى أن يسقط عمر رضي الله عنه على أبي سفيان ويقتله، فقد كان عمر حارسًا لخيمة الرسول ﷺ، ولكنه ﷺ على سبيل الاحتياط كان قد أعطى أمره المعلن لكل من يلقى أبا سفيان ألا يحاول قتله. وأثّرت هذه الأحداث في نفس أبي سفيان بعمق شديد، لقد هزّته رفعة الشأن التي نال منها الإسلام حظًا عظيمًا. فها هنا كان الرجل الذي نُفي من مكة ليس معه إلا صاحب واحد. لقد مرّت سبع سنوات صعبة منذ ذلك اليوم، وها هو الآن يدق أبواب مكة مع عشرة آلاف من أتباعه المخلصين.

لقد انقلبت المناضد تمامًا، فالرسول الذي خرج من مكة منذ سنوات سبع، هاربًا بدينه، قد عاد إلى مكة، وتقف أمامه مكة عاجزة كل العجز عن أن تقاوم عودته.

فتح مكة

ولعل أبا سفيان كان يتفكر بعجب: أليس هذا التغيير مذهلاً، إذ تم في سنوات سبع ليس إلا؟ وماذا عليه الآن أن يصنع كقائد لمكة؟ أيقاوم.. أم أنّ عليه الاستسلام؟ وأزعجته هذه الخواطر حتى بدا للناظر إليه ما يعانيه من دهشة وذهول.

وشاهد الرسول ﷺ هذا القائد المضطرب، فأمر العباس أن يذهب به وأن يستضيفه الليلة على وعد برؤيته في الغد، فأمضى أبو سفيان ليلته مع العباس. وفي الصباح استدعاهما رسول الله، وكان ذلك في

وقت صلاة الفجر، وفوجئ أبو سفيان بفوْرة النشاط والتحرّكات في تلك الساعة المبكرة، فلم يكن من عادته هو ولا من عادة قومه أن يكونوا يقظين في هذا الصباح الباكر كما يفعل المسلمون بعد أن أصبحوا خاضعين لنظام الإسلام، ورأى المسلمين الذين هم في المعسكر جميعًا وقد أخذوا يتجهّزون لصلاتهم الصباحية، بعضهم يروح ويجيء بحثًا عن الماء للوضوء، والآخرون يشرفون على صف صفوف العابدين من أجل الصلاة. ولم يستطع أبو سفيان أن يستوْعب فهم هذه الحيوية الباكرة في الصباح، وخطر بباله خاطر مخيف؛ هل كانت هذه خطة جديدة لإدخال الرعب في قلبه؟

وسأل في ذهول وقلق بالغين: "ماذا يفعل كل هؤلاء"؟

وأجاب العباس: "لا شيء يدعو إلى الخوف، إنهم يستعدّون للصلاة ليس إلا".

ورأى أبو سفيان آلاف المسلمين وقد اصطفوا خلف رسول الله، يقتدون به ويفعلون مثلما يفعل، ركوعًا وسجودًا وقيامًا، وهكذا.

كان العباس في نوبة حراسته، لذلك كان حرًّا يمكنه أن يصحب أبا سفيان، وأن يبادله الحوار. وسأل أبو سفيان: "ماذا هم فاعلون الآن"؟

وأجابه العباس: "كل ما يفعله رسول الله يفعله الباقون مثله. ما ظنك بهذا؟ إنهم يطيعون كل ما يأمرهم به لتوهم، حتى لو أمرهم بترك طعامهم وشرابهم، فإنهم لفورهم يطيعون".

وأجاب أبو سفيان: "حقًّا! لقد رأيتُ عروشًا عظيمة، لقد رأيتُ بلاط كسرى وبلاط قيصر، ولكني لم أر شعبًا يحب قائده ويخلص له كما يفعل المسلمون لنبيّهم". (السيرة الحلبية ج٢ ص٩٠)

ومضى أبو سفيان يتساءل، وقد ملأه الخوف وتنازعه الإحساس بالذنب لكل ما حدث، وأفزعته مشاعر الخوف على ما يمكن أن يحدث لقومه وأهله في مكة، فسأل عما إذا كان العباس محجمًا عن طلب العفو أو المغفرة لقومه، يعني بهم أهل مكة؟؟

وانتهت صلاة الفجر، وقاده العباس إلى الرسول ﷺ.

وسأل رسول الله أبا سفيان: "ويحك يا أبا سفيان. ألم يأْن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله"؟ وأجابه أبو سفيان: "بأبي أنت وأمي. ما أحْلمك وأكْرمك وأوْصلك، لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئًا بعد".

"ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله"؟

"بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأوصلك وأكرمك، أمّا هذه ففي النفس منها شيء".

وبينما كان أبو سفيان في تردده في الاعتراف برسول الله كرسول لرب العالمين، دخل في الإسلام اثنان من أصحاب أبي سفيان الذين رافقوه في مسيرته من مكة للاستطلاع، كان أحدهما حكيم بن حزام. و لم يلبث أبو سفيان بعدها إلا قليلاً ثم دخل هو أيضًا في دين الإسلام، لكن إذعانه الداخلي تأخر إلى أن تم فتح مكة.

وسأل حكيم بن حزام الرسول ﷺ عما إذا كان المسلمون عازمين على قتل ذويهم في مكة؟ فأجابه بأنهم كانوا قساة على المسلمين، وأثبتوا أنهم لا عهد لهم، ونقضوا اتفاق السلام الذي عقدوه في الحديبية، وهاجموا خزاعة بوحشية، واستحلوا القتل في الحرم الذي عظّم الله حرمته. فأجاب حكيم بن حزام: إنه لَحَقٌ كل ما قاله، فقد فعل القوم كل ذلك تمامًا. واقترح عليه أن يغزو هوازن بدلاً من مسيره إلى مكة.

وأجابه الرسول بما يفيد أن هوازن كذلك كانوا قساة وهمجيين، وأنه يأمل أن يمكنه الله تعالى من تحقيق أهداف ثلاثة: فتح مكة، وإشاعة الإسلام، وهزيمة هوازن.

إلى هذا الحد كان أبو سفيان جالسًا ينصت، وحينئذ سأل أبو سفيان رسول الله: "إذا لم تسل مكة سيفًا فهل ينالون السلام"؟

وأجابه الرسول ﷺ بالإيجاب، فمن أغلق عليه بابه فهو آمن. وهنا تدخل العباس قائلاً: "يا رسول الله. إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا".

قال: "نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن".

وبعد إعلان هذه الكلمات نادى الرسول ﷺ أبا رويحة وسلمه راية الإسلام، وكان أبو رويحة الأنصاري قد تآخى مع بلال ﷺ، ذلك

العبد الحبشي الذي صار ما صار. وقال الرسول ﷺ وهو يسلمه الراية: "ومن قام تحت هذه الراية فهو آمن".

وفي نفس الوقت وجّه الرسول أمره إلى بلال أن يمضى أمام أبي رويحة مناديًا لكل من يعنيه السلام أن هناك سلامًا تحت تلك الراية التي يحملها أبو رويحة.

رسول الله ﷺ يدخل مكة

كان كل شيء يمضي في ترتيب حكيم. عندما كان المسلمون يعذبون في مكة، كان بلال هدفًا سهلاً لهذا العذاب، فكان يُربط بحبل في قدميه ويُجَرّ في طرقات البلدة. لم تعط مكة سلامًا لبلال، وكل ما ناله منها هو الآلام البدنية والمهانة والنكران، ولنا أن نتخيل مدى الرغبة في الانتقام التي كان بلال يحسّها تملأ قلبه في يوم عودته ذاك إلى مكة حُرًّا عزيزًا.

وكان من الضروري أن ينال بلال فرصة ليثأر لنفسه من القسوة الوحشية التي ذاقها في مكة، ولكن في الحدود التي أحاط بها الإسلام رغبة الانتقام هذه. فلم يسمح له الرسول بسل سيفه وضرب أعناق الذين اضطهدوه من قبل، فلم يكن ذلك من الإسلام. ولكنه بدلاً من ذلك، أعطى الراية، راية الإسلام، إلى أخي بلال، وكلف بلالاً بمهمة عرض السلام على معذبيه السابقين تحت الراية التي يحملها أخوه. فما أروع ذلك الانتقام وما أجمله! ولنتخيّل صورة بلال يمشي بين يدي أخيه وهو يرفع صوته مناديًا أعداءه إلى السلام، وإزاء ذلك لم تكن

هناك فرصة لرغبته في الانتقام أن تدوم طويلاً، ولا بد أنها ذابت شيئًا فشيئًا وهو يتقدّم مناديًا أهل مكة إلى السلام تحت الراية التي يرفعها أخوه عالية خفّاقة.

وأمر الرسول ﷺ العباس أن يأخذ أبا سفيان وصحبه إلى قمة مناسبة لاستعراض جيش الإسلام، ورؤية سلوكهم وشمائلهم. وفعل العباس ذلك، ومن زاوية مناسبة أمكن لأبي سفيان وصديقيه أن يروا القبائل العربية وهي تمر عليهم وتمضي عنهم، ومعها يمضي ذلك العهد الذي كان فيه أهل مكة يجمعون ويحشدون للقضاء على الإسلام معتمدين على تلك القبائل نفسها التي تمر الآن جنودًا مجنّده للإيمان بدلاً من حشدها جنودًا للكفر، وإنهم الآن ليرفعون شعارات الإسلام لا شعارات أيام وثنيتهم، إنهم ليزحفون في تشكيلات عسكرية ليضعوا حياتهم فداء للرسول ﷺ لا لكي يقضوا على حياته، يزحفون لا لسفك دمه بل لسفك دمائهم دفاعًا عنه. لم يكن طموحهم في هذا اليوم يرنو إلى مقاومة الرسالة النبوية والحفاظ على وهم قومي أجوف، يتصوّر رسالة الرسول ﷺ تهديدًا له وخطرًا مضادًا للقومية، بل كان طموحهم إلى حمل رسالة النور هذه إلى كل أنحاء العالم، تلك الرسالة التي طالما قاوموها، صار رجاؤهم الآن هو تأسيس وحدة إنسانية وتضامن وأخوّة تضم بني الإنسان.

وتمر الجموع والصفوف واحدًا بعد الآخر، حتى لاحت جموع قبيلة "أشجع" لعيون أبي سفيان، وكان يمكن للرائي أن يلمح في وجوههم

آثار الإخلاص والتضحية بالذات والحماس الفائق، ولذلك كان هـذا الحماس محسوسًا في نبرة تغنّيهم وإنشادهم لشعارات الإسلام.

ويسأل أبو سفيان: "من يكونون هؤلاء"؟

ويأتيه الجواب: "هذه قبيلة أشجع".

وبدأ أبو سفيان مندهشًا وهو يقول: "لم يكن أحد أعدَى لمحمد من هؤلاء".

وردّ العباس عليه بأن الفضل لله في ذلك، لقد غير الله قلوب العدوّ عندما رآهم مستعدين لذلك ومؤهلين للتغيير.

وأخيرًا، لاح مشهد الرسـول ﷺ في كتيبتـه الخضـراء، محاطـا بالمهاجرين والأنصار مصفوفين قريبًا من ألفي مدرّع، والفاروق عمر ﷺ يوجّه خطاهم نحو مكة. كان هذا المشهد هو الأكثر تأثيرًا بين كل المشاهد. كان إخلاص هؤلاء المسلمين وتصميمهم وحماسهم يبـدو وقد فاق كل الحدود، فائضًا فائرًا يتدفّق غامرًا، وعندما وقعت عـين أبي سفيان عليهم ملأه الخضوع والخشوع لفوْره، ولم يملك نفسه أن يسأل العباس قائلاً: "من كان هؤلاء"؟

ورد العباس: "هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار".

وقال أبو سفيان: "ما لأحد بهؤلاء قِبَـلٌ ولا طاقـة". ثم توجّـه بالخطاب إلى العباس خاصة وقال: "لقد أصبح مُلْك ابن أخيك اليـوم عظيمًا".

ورد العباس: "يا أبا سفيان، إنها النبوّة، لا الْمُلْك".

قال أبو سفيان: "نعم نعم. إنها النبوّة لا الْمُلك".

وخلال مرور جيش الإسلام على أبي سفيان، كانت راية الأنصار مع سعد بن عُبادة، فوقعت عيناه على أبي سفيان، ولم يستطع أن يقاوم كلمة اختلجت في نفسه فقال: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا". ولدى مرور الرسول ﷺ، رفع أبو سفيان صوته مخاطبًا الرسول قائلاً: "يا رسول الله! ألم تسمع ما قال سعد"؟ قال: "وما قال"؟ فقال: "قال كذا وكذا". فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: "يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في قريش صوْلة". فقال رسول الله بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا. وهكذا عبر أبو سفيان للرسول ﷺ عن مخاوفه أن يسمح بمذبحة في عشيرته حسبما هدّد سعد وصحبه، دون أن يراعوا حرمة مكة، ورغِب في عفو الرسول وغفرانه، وما عُرف عنه من احترامه للإنسانية.

ولم يذهب رجاء أبي سفيان أدراج الرياح. إن هؤلاء المسلمين المخلصين الذين تعَوّدوا على الضرب والإهانة في طرقات مكة، وأُرغموا بذلك على ترك ممتلكاتهم ومنازلهم في تلك البلدة، بدأت تخالجهم مشاعر الرحمة نحو معذبيهم القدامى، حتى إنهم كانوا يخشون أن تكون للقصص الرهيبة التي رواها المهاجرون للأنصار عن التعذيب الوحشي وعن الاضطهاد الذي ذاقوه على يد أهل مكة، آثارًا بالغة باقية مع الزمن بحيث تدفعهم إلى الانتقام من أهل مكة على ما اقترفت أيديهم، وهذا ما عبر عنه سعد بن عبادة. وعبّروا عن مخاوفهم لرسول الله الذي تفهّم الموقف حالاً، والتفت إلى أبي سفيان ليبين له خطأ

سعد ويصحح لــه الصورة المتوقعة، فلن يكون هذا يوم الانتقام، بل سيكون يوم الغفران. وأرسل إلى سعد يأمره أن يسلم راية الأنصار إلى ابنه قيس بن سعد، وهكذا انتقلت قيادة الأنصار من سعد إلى قــيس. لقد كان قرارًا سديدًا وخطوة حكيمة، هدّأت من روْع أهل مكــة، وفي نفس الوقت لم تخرج القيادة من الأنصار، فلقد كان القائد هــو ابنه، وكان شابا نقيًّا ورعًا يحظى بالثقة الكاملة للرسول ﷺ. ويمكــن تبين مدَى تقواه من حادثة متأخرة قبل موته، وكان يستقبل عُوّاده من الأصدقاء على فراش مرضه الذي مات فيه. ولاحــظ أن بعضــهم لم يأت ليعوده، و لم يفهم السبب، وسأل عنهم فقيل له: "إنــك تــداين الناس وبعضهم يخشى المطالبة إذا جاء يعــودك". فقــال: "إذن فأنــا السبب في بعدهم عني، أعلنوا على الملأ أن كل من يدين لقيس بديْن فهو له، ولا ديْن لي على أحد". وعقب هذا الإعلان تلقى قيس عددًا هائلاً من الزيارات والدعاء في أيامه الأخيرة، حتى انهارت درجــات السلم المؤدّية لبابه من كثرة الزوّار.

عندما اكتمل استعراض الجيش المسلم طلب العباس من أبي سفيان أن يسرع إلى مكة ليُعْلم أهل مكة بقدوم الرسول ﷺ، ويشرح لهــم طريقة التأمين الذاتي لكل منهم. وبلغ أبو سفيان مكة فعلاً وبدأ يُعلن شروط السلام لبلدته. ولكن هند زوجته لقيته، وهي المشهورة بعدائها الشديد للمسلمين، وبكفرها العنيد. غــير أنها كانــت شــجاعة، فأمسكت بشارب زوجها وقالت: "اقتلوا الحميت الدســم الأحمــش الساقين، قبح من طليعة قوم". وهكذا اتهمته بالعار، ونــادت النــاس

للثورة عليه قائلة إنه بدلاً من تحريك بلده للدفاع عن شرف بلدهم والتضحية بأرواحهم في سبيلها، فقد جاء يدعوهم للسلام.

ولكن أبا سفيان كان يرَى الحقيقة، ويرى زوجه تتصرف بحمق، ويرى أن هذا الزمن الذي تعيش فيه زوجه قد ولى، وأن عليها أن تذهب لمنْزلها لتقبع خلف بابه المغلق. وصاح في قومه: "لا تغرّنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به". وقال لهم إنه شاهد الجيش الذي جاء إلى مكة، وعرف نوعية مقاتليه، وأن أهل الجزيرة العربية بأكلمها لا يستطيعون أن يصمدوا أمامه. ثم أخذ يشرح لهم شروط السلام التي قررها الرسول ﷺ، والتي تحدّدت حدودها في الإعلان النبوي عن الأماكن الآمنة وكيفيّة نوال السلامة والأمن.

ولقد استثنى إعلان الأمان أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، كانت الأعمال التي اقترفوها بشعة للغاية. لم تكن جرائمهم أنهم كفروا، أو أنهم شاركوا في حرب ضد الإسلام، بل كانت أعمالاً مجرمة، بربرية لا إنسانية، لا يمكن تركها تمر دون عقاب. ولكن في النهاية، اقتصر الأمر على أربعة أشخاص فقط لقوا عقاب الموت.

كان رسول الله قد أمر خالدًا بن الوليد ألا يسمح بقتال إلا إذا قوتل هو أولاً، و لم يكن إعلان السلام وشروطه قد بلغت هذا الجزء من المدينة الذي دخل منه خالد، واحتشد أهل هذا الجانب من مكة، وتحدّوا خالدًا ودعوه إلى القتال، وحدثت معركة سقط فيها اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر. كان خالد رجلاً ذا طبع حاد باتر، وخشي بعض الناس مغبّة ذلك، فأسرع بالخبر لرسول الله ليوقفه، فأرسل الرسول ﷺ

لخالد ينهاه عن ذلك سائلاً إياه: "ألم أنهك عن القتال"؟ وأجاب خالد بالإيجاب، ولكن عذره أن هؤلاء الناس هاجموه أولاً وبدأوا برمي السهام، وأنه لم يفعل بهم شيئًا في البدء وبيَّن لهم أنه لا يريد قتالاً، ولكنهم لم ينصتوا و لم يتوقفوا عن الرماية، فاضطر للرد عليهم وتفريقهم. كانت هذه هي الواقعة الوحيدة المؤسفة في تلك المناسبة، ولكن من الناحية العملية وبوجه عام، يمكن اعتبار أن فتح مكة قد تم سلميًا دون إراقة دماء.

ودخل الرسول ﷺ مكة. وسألوه أين سيقيم، فسألهم عما إذا كان عقيل قد ترك دارًا أو منْزلاً في مكة. كان عقيل ابن عم الرسول ﷺ، وأثناء فترة غيابه بعد هجرته إلى المدينة، باع أقرباؤه كل بيوته، فلم يكن قد بقي مكان يمكن أن يعتبره بيتًا له. لذلك قال لهم أنه سينْزل في خيف بني كنانة، وكان مكانًا مفتوحًا، حيث تعاهدت قريش وكنانة وأقسموا أنه ما لم يسلّم بنو هاشم وبنو عبد المطلب رسول الله إليهم يفعلون به ما شاءوا، فإنهم لن يتعاملوا مع القبيلتين، لا بيع ولا شراء معهم، فلجأ رسول الله وعائلته وأتباعه إلى شعب أبي طالب وعانوا مقاطعة مريرة استمرت مع حصار طال حتى بلغ السنوات الثلاث.

وهكذا كان المكان الذي اختاره الرسول ﷺ لإقامته ذا مغزى معيّن. لقد اجتمع أهل مكة هناك يومًا، وأقسموا أنه لن يقوم سلام مع عشيرته ما لم يقوموا بتسليمه إليهم. وها قد جاء الرسول ﷺ إلى نفس ذلك المكان، وكأنه قد جاء ليقول لهم: لقد كنتم تطلبونني، فها أنا ذا، ولكن ليس كما كنتم تريدون. لقد كنتم تريدونني سجينًا، مهينًا،

ضعيفًا رهن رحمتكم. ولكن ها أنا ذا وقد منحني الله القوّة والمَنعة، فليست عشيرتي وحدها هي التي تقف معي، بل إن أهل الجزيرة العربية كلها يقفون إلى جواري. لقد كنتم تريدون من عشيرتي أن تُسلّمني إليكم، ولكنهم بدلاً من ذلك قد سلَّموكم أنتم إليّ.

كان يوم الفتح هذا هو يوم الاثنين، وهو نفس اليوم أيضًا الذي غادر فيه الرسول ﷺ وأبو بكر غار ثور في طريقهما إلى المدينة. في ذلك اليوم، ألقى ﷺ بنظرة على مكة وقال: "يا مكة، والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت".

وحينما دخل الرسول ﷺ مكة، كان يمتطي ناقته، ويمشي بجواره أبو بكر وهو يتوكأ على عصا، بينما كان يتلو بعض الآيات الكريمة من سورة الفتح التي أنبأت بفتح مكة منذ سنوات مضت.

الكعبة تتطهر من الأصنام

توجّه الرسول ﷺ مباشرة إلى الكعبة المشرّفة وهو لا يزال على ناقته، فطاف سبع مرات حول البيت الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام من أجل عبادة الله الواحد الأحد، والذي بسبب ضلال ذريتهما قد تحوّل ذلك البيت ليكون مستودعًا للأصنام. وضرب الرسول ﷺ بعصاه الأصنام، الواحد تلو الآخر من تلك الأصنام التي بلغ عددها ثلاثمائة وستين صنما، وكلما سقط أحدها أو تحطم، كان ﷺ يتلو قوله تعالى: ﴿جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ

زَهُوقًا﴾، وكانت هذه الآية الكريمة قد نزلت قبل أن يغادر الرسول ﷺ مكة إلى المدينة، وهي في سورة الإسراء التي جاء فيها ذكر خروج الرسول ﷺ من مكة ودخوله إليها مرة أخرى. وسورة الإسراء سورة مكّية، وقد اعترف بذلك الكُتّاب الغربيون أنفسهم. وكانت الآيات التي تذكر نبأ خروج الرسول ﷺ ودخوله، ومن ثم دخوله منتصرًا كما يلي:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ۝ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١، ٨٢)

لقد جاء ذكر فتح مكة هنا بصيغة دعاء أُمر الرسول ﷺ أن يدعو به، فقد أُمر أن يدعو لدخول مكة وللخروج منها، وأن يجعل له الله تعالى سلطانًا نصيرًا من لدنه على ذلك. ثم يتبع الدعاء تأكيد يقيني من لدن الله تعالى بصيغة الماضي، كأن الحدث قد تم بالفعل، أن الحق سوف يعلو وأن الباطل سوف يزهق. وقد تحققت النبوءة حرفيًا، وكان من المناسب أن يتلو أبو بكر ﷺ آيات الكتاب الحكيم التي كانت تهز مشاعر المسلمين وتثير فرحهم بتحقق وعد الله تعالى، وفي نفس الوقت تُذكّر أهل مكة بعدم جدوَى مقاومة أمر الله ﷻ، وبصدق الوعود التي وعد الله بها رسوله.

وبفتح مكة، عادت الكعبة لتقوم بالدور الذي بُنِيَت من أجله منذ ألوف السنين من قبل إبراهيم ﷺ. لقد عادت الكعبة المشرفة لتكون المكان المخصص لعبادة الله الواحد الذي لا شريك له. وتحطمت

الأصنام، وكان أحدها هو الصنم الأكبر الذي كانوا يسمونه "هُبَل". ولما سدّد الرسول ﷺ إليه ضربة قوية بعصاه أوقعته فتناثر حطامه، ارتسمت على شفتي الزبير بن العوّام ابتسامةً نظر على إثرها إلى أبي سفيان، وراح يذكّره بما حدث في معركة أُحُد، فقال: "هل تذكر ذلك اليوم الذي وقف فيه المسلمون مكلومين مُنهكين بجوار الجبل، ثم زدت أنت من آلامهم حين هتفت: أعل هبل، أعل هبل؛ فهل كان هبل الذي أعطاكم النصر في ذلك اليوم؟ لو كان ذلك فانظر إلى ما آل إليه هبل".

وتأثر أبو سفيان كثيرًا، واعترف بأنه لو كان هناك حقًّا ربٌّ غير ربّ محمد، لما آل أمرهم إلى الهزيمة والهوان التي أُصيبوا بها في ذلك اليوم.

وأمر الرسول ﷺ بإزالة الصوَر التي كانت تشوّه جدران الكعبة، وفور إصداره للأمر صلى ركعتين شكرًا لله، ثم انسحب إلى خارج الكعبة في الحرم المفتوح وصلى ركعتين أخريين. وكان ﷺ قد وكّل إلى عمر بن الخطاب ؓ أمر إزالة الصور، فأزالها كلها وطمسها إلا صورة إبراهيم، وعندما عاد الرسول ﷺ ليتأكد من الإزالة وجد هذه الصورة سليمة فسأل عمر لم لم يزلها؟ ألم يذكر شهادة القرآن أن إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولكنه كان حنيفًا مسلمًا؟ (آل عمران: ٦٨). لقد كانت إهانة لذكرى إبراهيم ؑ، الذي كان رمزًا وعمادًا لدين التوحيد، أن تكون له هذه الصورة على جدران

الكعبة، فقد كان وجود الصورة يوحي كما لو أن إبراهيم يمكن أن يُعبد مثل الله تعالى. فأمره الرسول ﷺ بإزالتها أيضا.

لقد كان يومًا مشهودًا، يوم فيه احتشدت آيات الله البيّنات، وها هي وعود الله التي بدت مستحيلة التحقيق يوم تلقاها الرسول ﷺ قد تحققت في النهاية. لقد كان الرسول ﷺ في ذلك اليوم مرْكزًا للحب والإيمان، فقد تجلّى الله ﷻ من خلال شخص الرسول وأظهر وجهه الكريم كما فعل من قبل. وقد حدث أن أرسل الرسول ﷺ يطلب بعضًا من ماء زمزم، فشرب بعضه وتوضأ بالبقية. وكان المسلمون لشدة حبهم لشخص رسولهم الأكرم لا يسمحون لقطرة ماء أن تسقط من وضوء الرسول ﷺ إلى الأرض، فكانوا يتلقون الماء المتساقط في كفوف أيديهم ثم يبللوا به أجسامهم. وبهذه الطريقة من التوقير والاحترام كانوا يمنعون الماء من التساقط على الأرض. راح المشركون الذين رأوا ذلك المشهد يؤكدّون ويكرّرون في دهشة وعجب، أنهم لم يروا ملكًا من ملوك الأرض يحبّه شعبه كل هذا الحب (السيرة الحلبية ج٣ ص٩٩).

الرسول ﷺ يعفو عن أعدائه

بعد أن تمت كل الشعائر، توجّه الرسول ﷺ بالخطاب لأهل مكة قائلاً: "يا معشر قريش، ماذا ترون أني فاعل بكم"؟ لقد رأوا أن وعود الله تعالى التي كان يسردها على مسامعهم قد تحققت، وجاءت ساعة الحساب، لينالوا العقاب الذي يستحقونه على التعذيب والمظالم

والبشاعات التي ارتكبوها ضد أناس لا ذنب لهم سوَى أنهم دعوهم إلى عبادة الله وحده وألا يشركوا به شيئًا.

وكان ردهم عليه أنهم توقعوا منه معاملة كريمة، كما عامل يوسف إخوته الخاطئين، فقالوا: "خيرًا؛ أخ كريم وابن أخ كريم". وكان رده عليهم: "إني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء". (ابن هشام)

لقد كانت مصادفة ذات معنى عميق أن يستعمل أهل مكة في طلبهم الصفح نفس الكلمات التي استخدمها الله تعالى في سورة يوسف، والتي نزلت إلى الرسول ﷺ قبل فتح مكة بعشر سنوات. وهنا يطلبون من الرسول ﷺ أن يعامل القساة الغلاظ الظالمين من أهل مكة كما عامل يوسف عليه السلام إخوته. وبسؤالهم أن يجزيهم كما جازى يوسف إخوته، اعترف أهل مكة أن النبي ﷺ كان مثيلاً ليوسف، وكما نصر الله تعالى يوسف على أخوته، فكذلك نصر الله تعالى رسوله على مكة.

وبينما كان الرسول ﷺ يعبر عن شكره لله عز وجل بتأديته شعائره سبحانه في بيته المحرّم بامتنان وتواضع وإخلاص وإقبال، وبينما كان يخاطب أهل مكة معلنًا قراره بالعفو والغفران عنهم وتناسي ما حدث، كانت بعض الهواجس تعتمل في فكر عقول نفر من الأنصار، وأصابهم القلق من مشاهد عودة الرسول ﷺ والمهاجرين إلى بلدهم وأهليهم وبيوتهم، وما تم من تصالح وتواصل ومحبة ونسيان لكل ما حدث، فراحوا يسائلون أنفسهم في قلق: هل كان الرسول ﷺ بسبيله لينفصل

عن صحبتهم، وهم أصحابه ورفاقه في المحنة الذين أعطوا الإسلام مأواه الأول؟

هل كان الرسول ﷺ في طريقه ليستقر في مكة، وهي المدينة التي اضطرته لأن يفرّ منها ناجيًا بحياته؟ ولقد بدت لهم هذه المخاوف معقولة قريبة التحقيق، بما أن مكة قد فُتحت وأسلم أهلها، فلعل الرسول ﷺ قد مال إلى البقاء فيها.

وقد أخبر الله ﷻ نبيّه بكل هذه الهواجس التي راودت الأنصار، فرفع الرسول ﷺ رأسه ونظر إلى الأنصار، وقال لهم إنهم يظنون أنه قد غلبه الحنين إلى بلده الذي يحبه وقومه الأقربين. فلما أجاب الأنصار بالإيجاب، رد عليهم مطمئنًا إياهم، وأزال هواجسهم بأن قال لهم: إني عبد الله ورسوله، كيف لي أن أدعكم وقد نصرتموني وضحّيتم بحياتكم حين لم يكن أحد في الأرض يمدّ يد العون لدين الله. فكيف أتركك وأعيش في مكان آخر. كلا! أيها الأنصار هذا مستحيل. لقد هاجرت من مكة لوجه الله تعالى ولا يمكن أن أرجع إليها. بل سوف أحيا معكم وأموت معكم.

تأثر الأنصار بهذا التعبير الفريد عن الحب والولاء، فتغيرت مشاعرهم، واعتذروا نادمين لما خالجهم من هواجس تجاه الله ورسوله، ففاضت الدموع وبكوا وسألوا العفو عنهم، وذكروا أن السبب في تلك الهواجس هو إحساسهم بفقدان السلام إذا ترك رسول الله بلدهم وذهب لأيّ مكان آخر. وأجابهم الرسول ﷺ بأنه يقدّر مخاوفهم

ومشاعرهم، وأن الله راض عنهم، ورسوله راض عنهم، لسلامة وبراءة مشاعرهم، وأنه يشكر لهم ولاءهم وإخلاصهم.

تُرى، ماذا كان شعور أهل مكة الذي انتابهم في تلك اللحظات؟ صحيح أنهم لم يذرفوا الدموع حبًّا، ولكن لابد أن قلوبهم قد امتلأت ندمًا وأسفًا وأسىً. ألم ينبذوا هم بأيديهم هذه الجوهرة الغالية التي كانت موجودة في مكة مدينتهم؟

لقد حق لهم جميعًا أن يأسفوا عظيم الأسف، لأن الرسول ﷺ الذي عاد إلى مكة، قرر أن يتركها ليعود ثانية إلى المدينة، ولقد كان ذلك سببًا هائلاً كافيًا للشعور بالأسف والأسَى.

عكرمة يدخل الإسلام

كان من بين أولئك الذين لم يشملهم العفو العام بعض الأشخاص الذين نالوا عفو الرسول ﷺ بعد أن تشفّع لهم بعض الصحابة الكرام، وكان من هؤلاء الذين نالوا العفو عكرمة بن أبي جهل. كانت زوجة عكرمة قد أسلمت بقلبها، وقد تشفّعت لدى الرسول ﷺ لكي يعفو عن زوجها، فعفا عنه. وفي أثناء ذلك، كان عكرمة قد هرب من مكة في طريقه لاجئًا إلى الحبشة. وخرجت زوجته تحاول اللحاق به، فأدركته قبل أن يركب البحر. فعنّفته وقالت له: "أهارب أنت من رجل ليّن كريم كرسول الله"؟

تعجّب عكرمة وسألها ما إذا كانت تظن أنه من الممكن حقًّا أن يعفو رسول الله عنه؟ وطمأنته زوجته أنه ﷺ سوف يعفو حتى عن

رجل مثل عكرمة، وأنه في حقيقة الأمر قد عفا عنه بالفعل. وتخلى عكرمة عن عزمه الهروب إلى الحبشة، وعاد ليرى الرسول ﷺ. وعندما قابله قال له إن زوجته أخبرته بأن رسول الله يمكن أن يعفو حتى عن رجل مثله. فأخبره الرسول ﷺ بأن زوجته على حق، وأنه قد عفا عنه فعلاً.

وأدرك عكرمة أن إنسانًا يمكن أن يغفر لأشد أعدائه ضراوَة، لا يمكن أن يكون كذّابًا ولا مدّعيًا. ولذلك فقد أعلن على الفور قبوله الإسلام وهتف لسانه يعبر عما في وجدانه فقال: "أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك عبده ورسوله". وبعد أن قال ذلك غمره إحساس عميق بالندم والخجل لكل ما ارتكبه فأطرق برأسه وهو في حضرة رسول الله، حتى إن الرسول ﷺ راح يخفّف عنه، فقال له إنه لم يغفر له فحسب، بل إنه يريد أن يعبر له أيضًا عن تقديره له، وإنه لذلك يدعوه لكي يطلب منه ما يشاء من أمنية مما هو في وسعه أن يحققه له.

وأجاب عكرمة أنه ليس أحب إليه من أن يطلب من رسول الله أن يدعو الله له كي يغفر له ما اقترفت يداه من أعمال شائنة ضد الإسلام، وما ارتكبه من جرائم منكرة في حق رسول الله.

حينئذ دعا الرسول الله تعالى أن يغفر عداوة عكرمة له، وأن يعفو عن كل السباب والإهانات التي تلفّظت بها شفتاه.

ونهض الرسول ﷺ ووضع عباءته على عكرمة، وقال إن من يأتي إليه مؤمنًا بالله فهو منه، ويعتبر بيته بيتًا له.

لقد حققت المحادثة بين رسول الله وعكرمة رؤيا كان قد ذكرها لأصحابه قبل عدة سنوات، إذ كان قد قال لهم إنه رأى رؤيا رأى نفسه فيها في الجنة ورأى عنقودًا من العنب، فلما سأل لمن هذا العنب قيل له إنه لأبي جهل. وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذه الرؤيا أثناء حديثه مع عكرمة، وقال إنه لم يفهم هذه الرؤيا في أول الأمر، إذ لم يفهم كيف يمكن لأبي جهل، وهو عدوّ المسلمين، أن يدخل الجنة، وكيف يمكن أن يقدّم له عنقود من العنب. ولكنه فهم الآن معنى تلك الرؤيا؛ إذ أن عنقود العنب كان لعكرمة، ولكنه شاهد الأب في الرؤيا بدلاً من الابن، وهو أمر يحدث عادة في الرؤَى والأحلام. (السيرة الحلبية ج٣، ص١٠٤)

كان من بين الحفنة من الأفراد الذين لم يشملهم العفو العام رجل كان قد تسبّب في مقتل زينب ابنة الرسول ﷺ، وكان اسمه حبّار، وكان قد قطع حزام سرج الجمل الذي كانت تركبه زينب، مما أدى إلى سقوطها إلى الأرض. ولما كانت حاملاً في ذلك الوقت، فقد أدى وقوعها من على الجمل إلى سقوط الجنين، ثم ماتت بعد ذلك بفترة قصيرة. وكانت هذه إحدى الجرائم التي ارتكبها حبّار والتي استحق بسببها العقاب. وقد جاء هذا الرجل إلى الرسول ﷺ وقال: "يا رسول الله.. لقد فررت منك وذهبت إلى فارس، ولكني فكرت في نفسي أن الله خلّصنا من الشرك وأنقذنا من الضلال، فلماذا لا أذهب إلى الرسول نفسه وأطلب منه العفو معترفًا بذنبي بدلاً من طلب اللجوء إلى الآخرين".

وتأثر الرسول ﷺ بما قاله جبّار، وعبر لــه عن عفوه إزاء كل مــا فعل من قبل، ما دام الله تعالى قد غرس في قلبه حب الإسلام.

إن المرء لا يمكنه أن يصف الجرائم البشعة التي ارتكبها هؤلاء الناس ضد الإسلام والمسلمين، ومع ذلك، فقد عفــا عنــهم الرســول ﷺ ببساطة ويسر. وقد حوّلت روح العفو هذه أشــد النــاس عــداوة وأكثرهم قسوة إلى أولياء مخلصين للرسول ﷺ، قدموا حياتهم للدفاع عن الدين.

معركة حُنين

كان دخول الرسول ﷺ مكة مفاجئًا. وظل الخبر فترة قبل أن تعيه القبائل المجاورة لمكة وخاصة في الجنوب. وعند ما سمعوا بــه بــدأوا يجمعون قواتهم ويُعدّون أنفسهم لقتال المسلمين. وكانت قبيلتا هوازن وثقيف تفخران بشجاعتهما وبطولاتهما. فاجتمعت القبيلتان وتشاورتا معًا، وبعد بعض المداولات، اختار الطرفان أميرًا عليهم هو "مالك بن عوف". وعندئذ قاموا بدعوة القبائل المحيطة لتنضم إليهم، وكان منهم قبيلة بني سعد، التي تنتمي إليها مُرضع الرسول (حليمة) عندما كــان طفلاً عاش ونشأ بينهم. وقد قام رجال هذه القبيلــة بجمــع قــواتهم واتجهوا إلى مكة، مصطحبين معهم أفراد أسرهم وممتلكاتهم، ولما سُئلوا عن سبب ذلك أجابوا بأن الجنود إذا ذكروا أسرهم وأزواجهم ومــا يملكون عند القتال أبوا أن يتراجعوا خوفًا على نسائهم مــن الــسبي وعلى مالهم من الغنيمة.

وهكذا كان إصرارهم على القتال والقضاء على المسلمين يبلغ هذا القدر من الشدة والتصميم. نزلت كل هذه القوات إلى وادي أوطاس، وكان أنسب مكان يمكن اتخاذه قاعدة للقتال، بسبب ملاجئه الطبيعية وتوافر العلف والماء، وسعة تصلح لمناورة الفرسان وتحركاتهم. وعندما علم الرسول ﷺ بذلك، أرسل صاحبه عبد الله بن أبي حدرد ليستطلع الأمر. وأبلغه عبد الله أن هناك حشدًا عسكريًا في هذا المكان وأن هناك تصميمًا يملكهم أن يقتلوا المسلمين أو يموتوا دون ذلك. وكانت هذه القبيلة معروفة بمهارتها في الرماية، وكانت القاعدة التي اختاروها أرضًا للمعركة توَفر لهم ميزة عظيمة في هذا الصدد. وتقدّم الرسول ﷺ إلى صفوان، أحد سادات مكة الأغنياء، وطلب منه بعض الأسلحة والدروع، فرد عليه صفوان قائلاً: "هل تظن أنك ترهبني بقوتك لأعطيك ما تريد"؟ فرد الرسول ﷺ بما يفيد أنه لا يريد الاستيلاء على شيء، بل سيقترض ويعطيه الضمان المناسب. فرضي صفوان ووافق على إقراضه المواد المطلوبة، وجملة ما زوّد به الرسول كان ١٠٠ حلة مدرّعة وعددًا مناسبًا من السيوف. واستعار الرسول ﷺ ثلاثة آلاف رمح من ابن عمه نوفل بن الحارث، واقترض ثلاثين ألف درهم من عبد الله بن ربيعة (الموطأ، المسند، السيرة الحلبية).

وعندما توجَّه الجيش المسلم نحو هوازن، أعرب أهل مكة عن رغبتهم في الانضمام إليه، ولم يكونوا قد أسلموا بعد لكنهم وافقوا على أن يعيشوا تحت نظام الإسلام. وهكذا انضم ألفان منهم للمسلمين. وفي الطريق أتوا على مزار عربي شهير يسمى "ذات

أنواط"، وهو شجرة عنب معمّرة يقدّسها العرب في هـذا المكـان، وعندما يشترون سلاحًا يذهبون به أولاً ويعلقونه في هذا المزار ليتلقى السلاح البركات. وعندما مر جيش الإسلام على هذا المكان صـاح بعض الجنود: "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط". فاسـتنكر الرسول ﷺ ذلك وقال إنهم قالوا كما قال قوم موسى لـه لما جـاوز الله بهم البحر: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، مشيرًا إلى قولـه تعـالى في سورة الأعراف:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَـالَ إِنَّكُـمْ قَـوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الآية ١٣٩)

رسول الله يناديكم

لم يدّخر الرسول ﷺ وسعًا في حثّ المسلمين أن يذكروا عظمة الله تعالى، وأن يتضرّعوا إليه لينجيهم من خرافات الأمم السابقة، وقبل أن يصل جيش المسلمين إلى "حُنين" كانت "هوازن" وحلفاؤها قد أعدّوا عددًا من الكمائن لمباغتة المسلمين بالهجوم، كما هو الحال في مرابض المدفعية المموّهة والحفر المستورة في الحرب الحديثة. كانوا قـد بنـوا سواتر وحوائط مموّهة، وكمنوا خلف تلك الحوائط في الانتظار، بعـد أن تركوا ممرًا ضيقًا للمسلمين ليمروا منه.

كان الجزء الأكبر من جيش العدوّ قد ذهب إلى هـذه الكمـائن، بينما اصطف عدد محدود منهم أمام إبلهم. وظن المسلمون أن عـدد

الأعداء قد اقتصر على من رأوهم، لذلك تقدموا للهجوم. وبعد أن توغلوا في تقدمهم، وأيقن العدوّ الكامن أن الهجوم عليهم بات سهلاً، فعلى الفور اصطف الجنود أمام إبلهم وهاجموا قلب جيش المسلمين، بينما أمطر الرماة المختفون ميْمنته وميْسرته بالسهام. هذا الهجوم المزدوَج للعدوّ لم يتحمّله أهل مكة الذين انضمّوا لجيش الرسول طمعًا في فرصة لإظهار شجاعتهم، وفرّوا عائدين إلى مكة. كان المسلمون قد اعتادوا مواجهة الأوضاع المعقّدة الصعبة، ولكن عندما شق ألفان من الجنود طريقهم عبر الجيش المسلم وهم يمتطون خيلهم وإبلهم، سبّب ذلك ذعرًا في صدور الإبل والخيل لبقية الجيش. وتضاعف ذلك الذعر بشكل متصاعد عندما اشتدّ الضغط على الجيش من ثلاثة جوانب. وفي هذه الأثناء ثبت رسول الله واثنا عشر من أصحابه لا يتزحزحون. ولا يعني هذا أن كل الصحابة فرّوا من الميدان، فقد كان هناك مائة أو زهاؤها ممن لم يتراجعوا، لكنهم كانوا على مبعدة عن مكان الرسول ﷺ، ولكن الاثني عشر وحدهم كانوا يحيطون بالرسول ﷺ. وروَى أحد الصحابة أنه وأصدقاءه فعلوا كل ما استطاعوا لكي يلووا أعناق المطايا نحو ميدان المعركة، ولكن الرعب كان قد ملك المطايا، ولم يبد أن هناك نفعًا من أيّ جهد مبذول. لقد شدّوا الأعنّة لكن الخيل والإبل لم تطع، ولم تكن تتوجّه إلى جهة المعركة مهما همز وكرر عليها المهماز، بل كانت تتراجع أكثر وتشتد في الإباء. وروَى ذلك الصحابي أن قلبه كان يدق خوفًا أن يكون الرسول ﷺ قد أصابه

مكروه، لكنه لم يكن يستطيع شيئًا. وكانت هذه هي الحال التي وجد كل الصحابة أنفسهم فيها.

لقد ثبت الرسول ﷺ نفسه في قلة من أصحابه، يتعرض لوابل السهام من ثلاثة جوانب، وكان خلفهم ممر ضيق للعبور لا يستطيع سوَى قلة أن يعبروا فيه معًا، وترجّل أبو بكر عن دابّته وأمسك بعنان بغلة الرسول وقال: "يا رسول الله، فلننسحب برهة ريثما يستجمع الجيش نفسه"، فأمره الرسول ﷺ أن يدع عنان البغلة، ثم ركضها في الممر الضيق نحو الأعداء والسهام تتطاير من الجانبين وهو يقول هاتفًا: "أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب" (البخاري).

هذه الكلمات التي قيلت في ذلك الوقت، وقالها الرسول ﷺ وهو يتعرّض للخطر في أقصى صوره وأقسى أشكاله، كان لها ثقلها ومغزاها، وهي تؤكد الحقيقة الصارخة أن الرسول ﷺ كان نبيًّا حقًّا، وليس في الأمر سحرٌ ولا حيلة. وهو بهذا التوكيد كان يعني ويقصد أنه لا يهاب الموت ولا يخشَى حتى انهيار دعوته واندثارها، فإن ظل سالمًا رغم كل هذه السهام التي تتطاير من حوله، فلا يجب بسبب ذلك أن ينسب إليه المسلمون أية صفة تأليهية، لأنه لم يكن أكثر من إنسان، فهو ابن عبد المطلب. لقد كان الرسول ﷺ حريصًا حرصًا مطلقًا على أن يميز لأصحابه بين الإيمان والخرافة، وأن يُرسّخ ذلك التمييز في أعماقهم، حتى ولو كان ذلك في أحلك الأوقات.

وبعد أن نطق بهذه الكلمات الخالدة، نادى على عمه العباس، وكان جهْوَريّ الصوت، وقال له: "يا عباس، ناد في الناس". وأمره أن ينادي المسلمين قائلاً: "إن رسول الله يناديكم".

ورفع العباس صوته الجهوَري، ووقع صوته الذي يحمل نداء الرسول ﷺ وقوع الرعد على السامعين، لم يقع النداء على آذان صمّاء بل على آذان ملهوفة، فأحدث فيهم أثرًا كما لو أن الكهرباء قد مستهم.

ونفس الصحابة الذين كانوا قد فقدوا كل حيلة إزاء حث مطاياهم نحو الميدان، بدأوا يشعرون أنهم ليسوا في هذا العالم، بل وكأنهم في العالم الآخر، في مواجهة الله ﷻ يوم الدين. ولم يعد صوت العباس يبدو لهم أنه صوت العباس نفسه، بل وكأنه صوت أحد ملائكة الله يطالبهم أن يقدموا كشف حسابٍ عن أعمالهم. وحينئذ، لم يكن من شيء يمكن أن يمنعهم من العودة إلى ميدان المعركة مرة أخرى. لقد ترجّل الكثير منهم عن راحلته، مكتفيًا بالدرع والسيف مسرعًا إلى أرض المعركة، لا يبالي أين ذهبت مطيته. وبعضهم ترجّل وضرب عنق الحيوان، وأسرع مترجّلاً إلى الرسول ﷺ. وقيل إن الأنصار أسرعوا وعطفوا إليه بسرعة الناقة الأم نحو وليدها إذا استغاث صارخًا. ولم يمض وقت طويل حتى اجتمع إلى الرسول ﷺ عدد من المسلمين، راح يتزايد حتى أحاط بالرسول ﷺ جمع من أصحابه. وبدأ القتال، ومرة أخرى تجرّع العدو مرارة الهزيمة وعانى الانكسار.

كان هناك مغزى عظيم لوجود أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بجانب الرسول ﷺ في هذا اليوم، فكان في ذلك إشارة إلهية وآية ربانية، آية على عظمة قدرة الله من جهة، ومن جهة أخرى كانت دليلاً على التأثير البالغ للرسول ﷺ في تزكية النفوس. فمنذ أيام قليلة كان أبو سفيان عدوًا لدودًا، يتعطش لدم الرسول ﷺ. ولكن ها هو الآن، كان نفس الشخص يقف بجانب الرسول ﷺ صديقًا وتابعًا وصاحبًا له. وعندما فرّت إبل العدو مذعورة مشتتة، ترجّل أبو سفيان عن جواده، وأمسك بسرْج بغلة الرسول ﷺ، وبدأ يتحرك على قدميه والسيف في يده والأخرى ممسكة بالركاب، يمشي بجانب الرسول ﷺ عازمًا ألا يدع أحدًا يقترب من شخص الرسول دون أن يدفعه ويقتله. ورأى الرسول ﷺ هذا التغيير في أبي سفيان وهو سعيد مندهش، وراح يتأمل بعمق هذا الدليل الجديد على عظمة قدرة الله ﷻ. فقد كان هذا الرجل عدوًّا للإسلام منذ أيام قلائل، ولكن التغير قد حدث، فها هنا هو يقف الآن بجانب الرسول ﷺ كأي جندي مشاة عادي، يمسك بركاب بغلة سيده، ويملؤه العزم والتصميم على أن يموت فداءً له. ورأى العباس ملامح الدهشة السعيدة في نظرة الرسول ﷺ إلى أبي سفيان فقال: "يا رسول الله؛ هذا أبو سفيان ابن عمك، وهو أخوك أيضًا. ألست سعيدًا به"؟ وأكد الرسول ﷺ على قوله، ودعا بالمغفرة لأبي سفيان على كل ما فعله، ثم التفت إليه وناداه قائلاً: "يا أخي"، عندها لم يملك أبو سفيان أن يتغلب على العواطف الجياشة التي

ملأت قلبه وفاضت في وجدانه، فانحنى ليقبّل قـدم الرسـول ﷺ في الركاب الذي يمسك به* (السيرة الحلبية).

وبعد معركة حُنين، أعاد الرسول ﷺ عُدّة الحرب التي كـان قـد اقترضها، وجعل للمقرضين منحة سخية تعادل أضعاف قيمـة مـا استعار منهم. وقد تأثر كثيرًا أولئك الذين أقرضوه العدة والسلاح، فقد مسّ شغاف قلوبهم هذا الاحترام الذي أبداه الرسـول ﷺ عنـد إعادة ما اقترض، ولسخائه الكريم عند رد القرض، وأدركوا أن هـذا الرجل ليس إنسانًا عاديًا، بل رجل يعتلي قمة خُلقية عالية، تجعل منه قدوة حسنة تفوق كل الآخرين. ولا عجب أن اعتنق صفوان الإسلام على الفور.

العدو الحقود يتحوّل إلى تابع مخلص

دائمًا ما تُذكّر موقعة حُنين المؤرخين بحادثة مهمة أخرى جـرت أثناء تطور الأحداث. كان "شيْبة" من سكان مكة، وكان يعمـل في خدمة الكعبة، واشترك في المعركة ضمن صفوف العدوّ. وكان يقول إن أمله الوحيد في هذه الموقعة عندما يلتقي الجيشان، أن يجد فرصـة لقتل الرسول ﷺ. كان في قلبه تصميم جازم أن لو اتبع العالم كله هذا الرسول، ناهيك عن كل العرب، فسيظل هـو يعارضـه ويعـارض الإسلام. وعندما حمي وطيس المعركة استل شيْبة سيفه وتقـدم مـن

* نذكّر القارئ بأن هذا الحادث لم يقع مع أبي سفيان بن حرب ﷺ بل حصل مع أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ﷺ. (المترجم)

الرسول ﷺ، وعندما صار قريبًا منه فوجئ برباطة جأشه تتبخر وشجاعته تتلاشَى، وبدأ عزمه يهتز وتصميمه يضطرب. ويحكي شيْبة أنه في هذه اللحظات رأى لهبًا يوشك أن يلتهمه، وسمع صوت الرسول ﷺ يقول له: "شيْبة.. اقترب مني". وعندما اقترب منه وضع الرسول ﷺ يده على صدر شيبة ومسح عليه في حنان ومحبة، وراح يدعو الله تعالى أن يطهّر صدر شيْبة من كل خاطر شيطاني. وحدث الانقلاب؛ وبهذه اللمسة الحنونة الصغيرة تلاشَى كلّ خاطر شيطاني من فكره، وتغيرت معها الكراهية وتبخرت العداوة، ومنذ تلك اللحظة شعر شيْبة أن رسول الله ﷺ أحبّ لديه من كل شيء آخر في هذا العالم. وبعد هذا التحوّل الذي طرأ على شيبة، دعاه الرسول ﷺ أن يتقدم ويقاتل في سبيل الله. ويقول شيْبة: "في تلك اللحظة، كان كل ما يدور في خلدي من فكر هو أن أموت فداء للرسول ﷺ، حتى ولو كان أبي هو الذي يعترض طريقي، فلن أتردد لحظة أن أغمد سيفي في صدره". (السيرة الحلبية)

وتحرك الرسول ﷺ إلى الطائف، المدينة التي رجمته بالحجارة وطردته منها، وحاصرها ولكنه عدل عن ذلك نزولاً على مشورة بعض صحابته، وبعد مدة اعتنقت هذه المدينة الإسلام طائعة.

الرسول ﷺ يوَزّع الغنائم

بعد فتح مكة والنصر في حُنين، كان على الرسول ﷺ أن يقوم بتوزيع المال والثروة التي تراكمت من الغنائم والأموال المدفوعة فدية

للأسرى. ولو تم الأمر على ما جرت العادة عليه، لتم توزيع الغنائم على الجنود المسلمين الذين اشتركوا في المعركة. ولكن في هذه المرة، وزّع الرسول ﷺ الغنائم على أهل مكة والمحيطين بها بدلاً من الجند المسلم المشترك في القتال.

كان بعض هؤلاء القوم مسلمين ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وكان كثير منهم منكرين مجاهرين بالإنكار للرسول ﷺ، والذين أعلنوا إسلامهم كانوا حديثي عهد به، ولم يمارسوا بعد مبدأ إنكار الذات، ولا يعرفون كيف يكون الشخص بعد إسلامه مضحيًّا منكرًا لذاته. وبدلاً من اقتدائهم بالمثل الذي ضربه صحابة الرسول ﷺ أمامهم في نكران الذات والتضحية بها، وبدلاً من رد جميل المعاملة الطيبة التي لقوها من المسلمين؛ فإنهم على العكس أصبحوا أكثر طمعًا وجشعًا من أيّ وقت مضى، وظلت مطالبهم من الرسول ﷺ تتكاثر. وشاع بينهم أن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعوا رداءه فقال: "أَعْطُونِي رِدَائِي فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا كَذُوبًا وَلا جَبَانًا" (البخاري-كتاب فرض الخمس).

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبَرَة، فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها فقال: "أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم". لقد ادّعى النقاد الحاقدون أن الرسول تاقت نفسه أن يصبح ملكًا، وأن تكون له مملكة. ولكن فلنتصوّر أنه قد صار ملكًا وأنه كان محاطًا بشرذمة من الدهماء، فلو أن

غايته كانت فعلاً أن يكون ملكًا وطمع أن تكون لــه مملكة، فهــل كان يرضَى أن تعامله مجموعة من المتسولين بهذا الشكل، وأن يكــون كريمًا في معاملته لهم كما كان هو؟ هــل يــضطر الملــك للــشرح والإيضاح وتقديم الأدلة والبيّنات؟ إن الأنبياء فقط ورسل الله تعالى هم الذين يقدّمون هذا المثل الكريم من السلوك المثالي.

إن كل الغنائم والأموال والمواد القيّمة التي كانت في طريقهــا إلى التوزيع قد تم توزيعها بين المستحقين والفقراء، ورغم ذلك بقيَ هؤلاء الذين لا يشبعون، وراح البعض من الذين احتشدوا حول الرسول ﷺ يحتجّون على التوزيع، ويتهمونه بعدم العدالة.

ومنهم كان ذو الخويصرة، الذي اقترب من الرســول ﷺ قــائلاً: "هذه قسمة ما عدل فيها، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله" فردّ عليــه الرسول ﷺ قائلاً: "ويلك! فمن يعدل إن لم أعدل؟" (مــسلم-كتــاب الزكاة)

كان المؤمنون الصادقون في ثورة وغضب لما سمعوه، وقال بعضهم بعد انصراف ذي الخويصرة: "إنه يستحق الموت، مُرنا فلنقتلــه يــا رسول الله". فرد الرسول ﷺ بالرفض قائلاً ما معنــاه: "إذا اســتقبل قبلتنا و لم يفعل ما يوجب قتله فكيف نقتله؟" فقالوا إنه يبطن غير مــا يظهر. فرد الرسول ﷺ قائلاً: "إني لم أؤمر أن أشق عن صدور الناس".

واستمر الرسول ﷺ يحدّث المؤمنين أن مثل هذا الرجل ومن يخرج على نهجه سيخرقون في الإسلام خرقًا واسعًا. وقد تحقّق ما قاله ﷺ. ففي زمن عليّ كرم الله وجهه؛ الخليفة الراشد الرابع للإســلام، قــام

أمثال ذلك الرجل بتمرّد ضد الخليفة، وأحدثوا في الإسلام حدثًا، وصاروا قادة لطائفة مارقة مدانة من عموم المسلمين، وهم الخوارج.

بعد التعامل مع قبيلة هوازن، عاد الرسول ﷺ إلى المدينة. وكان يومًا عظيمًا آخر لأهلها. كان وصول الرسول ﷺ مهاجرًا لاجئًا من سوء معاملة مكة هو أحد أيامهم العظيمة، ولكن في هذا اليوم العظيم الآخر، كان الرسول ﷺ يدخل المدينة مليئًا بمشاعر الفرح، ويغمره تصميم واع ووعد مبذول أن يتخذ المدينة وطنًا له.

مكيدة أبي عامر الراهب

لقد حان الآن أن نلتفت إلى ما فعل رجل يسمى أبا عامر، وهو ينتمي إلى قبيلة الخزرج. وقد اكتسب عادة التفكر الصامت وكثرة ترديد أسماء الله من طول معايشته لليهود والنصارى. وبسبب هذه العادة اشتهر باسم أبي عامر الراهب، رغم أنه لم يكن مؤمنًا بالمسيحية. وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، فرَّ أبو عامر من المدينة وذهب إلى مكة. وعندما خضعت مكة للتأثير المتنامي للإسلام، بدأ أبو عامر يخطط لمؤامرة جديدة ضد الإسلام. فغير اسمه وعاداته التقليدية في الملبس واستقر في قباء، وهي قرية قرب المدينة. وبسبب غيابه الطويل عن المدينة، وتغيير اسمه ومظهره وملابسه، لم يتعرف عليه أهل المدينة، ولكن المنافقين عرفوه وأقاموا معه علاقة سرية، فاتخذهم رجالاً موضع ثقته. ووضع بالتعاون معهم خطة للذهاب إلى الشام لتحميس وإثارة الحكام المسيحيين والمسيحيين العرب ليقوموا بمهاجمة

المدينة المنوّرة. وبينما انخرط هو في مهمته الشريرة في الـشمال فقـد خطط لإشاعة الاستياء والرعب في المدينة. وقام فريق مـن المنـافقين بنشر الإشاعات الكاذبة أن المدينة في طريقها للوقوع فريسة للـهجوم القادم من الشام. وقد قصد أبو عامر من خطته هذه أن يوقـع بـين المسلمين وأهل الشام المسيحيين لتقع الحرب بينـهما، أو أن يقـوم المسلمون من جانبهم بالهجوم على الشام متأثرين بما سمعوه. وأيّا كان الحال فسوف تنشب حرب بين الطرفين، الأمر الذي يسعد أبا عـامر كثيرًا. وهكذا ذهب أبو عامر إلى الشام ليتم مهمته بعد أن أثار القبائل العربية المسيحية، ولم يدّخر أولياؤه المنافقون وسعًا في بثّ الإشاعات عن أرتال القوافل المسلحة التي قالوا إنها شوهدت متّجهة إلى المدينـة لمهاجمتها، وحين ترقّب الناس ولم تظهر هذه القوات، لم يعـدموا أن يجدوا تبريرًا يقدمونه.

حملة تبوك

ظلت هذه الإشاعات تتردد حتى ظن الرسول ﷺ أن الأمر يستحق أن يقود بنفسه جيشًا إلى الشام. كان ذلك الوقـت مـن أصـعب الأوقات، فقد كانت المجاعة تضرب أنحاء الجزيرة بـسبب الجفـاف، وكان محصول العام السابق من الحبوب والفاكهة قلـيلاً، ولم يكـن محصول العام الحالي قد آن حصاده بعد. كانت نهاية سبتمبر/أيلول أو بداية أكتوبر/تشرين الأول عندما توجّه الرسول ﷺ لتنفيـذ مهمتـه. وكان المنافقون يرون أن الإشاعة التي راجت هي من بنات أفكارهم،

وأن خطتهم قد أثمرت في دفع المسلمين إلى الهجوم على الشام، إذا لم يهاجم أهلُ الشام المسلمين. وفي الحالتين فإن صراعًا ينشأ مع الإمبراطورية الرومانية العظيمة لن يؤدى إلا إلى القضاء على المسلمين. كان درس مُؤتة ماثلاً أمام عيوهم، ففي مؤتة اضطر المسلمون لمواجهة جيش ضخم لم ينجحوا حتى في الانسحاب من أمامه إلا بصعوبة بالغة. ووضع المنافقون آمالهم في خوض المسلمين غمار مؤتة ثانية، وربما فقد فيها الرسول ﷺ حياته. وبينما شغل المنافقون أنفسهم بنشر الإشاعات عن هجوم أهل الشام، لم يدّخروا وسعًا في بثّ الرعب في قلوب المسلمين وتسميم أفكارهم، قائلين إن بإمكان أهل الشام إعداد جيوش بالغة الضخامة لا قِبَل للمسلمين بها، وحثّوا المسلمين أن يمتنعوا عن الاشتراك في الحرب ضد الشام. كانت خطتهم هي أن يثيروا المسلمين ليخرجوا لحرب الشام من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يخيفوا المسلمين حتى لا يخرجوا بأعداد كبيرة. لقد أرادوا أن يخرج المسلمون للقاء جيش الشام، ولكن وهم ضعفاء، وذلك ليمنوا بهزيمة محققة. غير أنه ما إن أعلن الرسول ﷺ عزمه على قيادة جيشه في حملته الجديدة حتى سرَى الحماس قويًا عاليًا في المسلمين، ومضوا قدمًا يعرضون التضحية بحياتهم في سبيل دينهم. ولم يكن تسليح المسلمين مناسبًا لحرب كتلك، وكانوا خلوا من المال الكافي، وقليل من الأغنياء من كانت لديه القدرة للتبرّع من أجل الحرب، وتنافس أفراد المسلمين في إظهار روح التضحية فداء لإيمانهم. ورُوي أن الرسول ﷺ ناشد المسلمين تمويل الغزوة، فتنازل عثمان عن الجزء الأعظم من ثروته.

وكانت مساهمته تقدر بألف دينار من الذهب، وساهم المسلمون الآخرون حسب استطاعتهم، وتم تزويد الجنود الفقراء بمطايا وسيوف ورماح لتسليحهم. وسرَى الحماس عاليًا. وجاء إلى الرسول ﷺ رجال من الأشعريين الذين هاجروا إلى المدينة من اليمن، وكانوا فقراء، فعرضوا الخدمة في صفوف الحملة وقالوا: "يا رسول الله خذنا معك، ولا نبتغي شيئًا إلا الوسيلة التي تحملنا". وقصّ القرآن قصّتهم وما عرضوه على الرسول ﷺ في قوله تعالى:

﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة: ٩٢)

والمعنى أنه لا لوم على الذين لم يخرجوا للقتال بسبب فقرهم إلى وسيلة الانتقال، وذهبوا إلى الرسول ﷺ ليزوّدهم بها فلم يستطع لأنه لم يكن يملكها، فعادوا آسفين لذلك باكين تفيض أعينهم بالدمع لعدم قدرتهم على المساهمة مع المسلمين في المعركة.

كان أبو موسى زعيمًا لهذه المجموعة، وعندما سُئل عما طلبوه من الرسول ﷺ قال: "لم نكن نطلب إبلاً ولا خيْلاً، بل طلبنا أحذية ونعالاً، فلم نكن نستطيع قطع الرحلة الطويلة حفاة الأقدام، ولو كنا نملك النعال وحدها لخرجنا مشاة وساهمنا في الحرب مع إخواننا المسلمين".

وعندما سلك الجيش طريقه نحو الشام، لم يكن المسلمون قد نسوا ما حدث وما عانوه في مؤتة، وكان القلق على سلامة الرسول ﷺ يملأ قلب كل مسلم. وقامت نساء المدينة بدورهن المنوط بهن، فحثّوا

رجالهن والأبناء لينخرطوا في المعركة وشغلن بهذا التحريض. وحدث أن عاد أحد الصحابة إلى المدينة من سفره بعد أن كان الرسول ﷺ قد غادرها مع جيشه، ودخل الرجل إلى بيته يتوقع أن تلقاه زوجه بالتحية والود والعواطف التي تلقَى بها الزوجة زوجها عادة بعد غياب طويل. وشاهد زوجته في الفناء فتحرك ليعانقها ويقبلها، ولكنها رفعت يديها ودفعته عنها، ونظر الزوج المشدوه إلى زوجه وقال: "أهذه هي المعاملة التي يجب أن تلقى بها امرأة زوجها بعد غياب طويل"؟ فقالت الزوجة: "ألا تخجل أن يكون رسول الله في حملة خطيرة وأنت مع زوجك في عناق وقُبَل؟ إن عليك أن تذهب إلى المعركة أولاً، ثم ننظر بعد ذلك إلى ما يجب". ويُروَى أن الصحابي خرج من بيته في الحال والتوّ ليشد رحله ويلحق بالرسول مسرعًا، فأدركه على مسيرة ثلاثة أيام.

ولعل المنافقين قد ظنوا أن الرسول ﷺ سينقض على جيوش الشام لفوره، ودون أي تفكير، متأثرًا بإشاعاتهم التي لفّقوها ونشروها، ونسوا أنه كان حريصًا على تقديم المُثُل والسُنن التي سوف تقتدي بها الأجيال التالية من التابعين في كل عصر يأتي بعده. وحين اقترب الرسول ﷺ من الشام توقف، وأرسل رجاله إلى اتجاهات مختلفة لاستطلاع الأحوال والشئون. وعاد الرجال ليبلغوه بعدم وجود حشود في أي مكان. وقرر ﷺ العودة، ولكنه بقي أيامًا قليلة لإبرام اتفاقيات صلح مع بعض القبائل الحدودية.

استغرقت الرحلة ما يقرب من شهرين ونصف الشهر، ولم تقع حرب ولا حدث قتال. ولما رأى المنافقون أن خطتهم في إشعال نار

الحرب بين المسلمين وأهل الشام قد فشلت، وعاد الرسول ﷺ آمنًا وسالمًا، خافوا أن تكون مكيدتهم قد انكشفت، وخافوا من العقوبة التي كانوا قد استحقوها بفعلتهم. لكن ذلك لم يجعلهم يكفّون عن آثامهم وخططهم الدنيئة، فأعدّوا مجموعة من الرجال وسلّحوهم، وكمنوا للرسول على جانبي ممر ضيق لا يتسع إلا لراكب واحد في مكان لا يبعد كثيرًا عن المدينة. وجاء الوحي إلى الرسول ﷺ بالأمر حين اقترب الجيش من البقعة المذكورة، فأرسل أصحابه لاستطلاع الأمر. وشاهد الصحابة رجال الكمين مختفين على أهبة الاستعداد، وما إن رآهم رجال الكمين حتى هربوا مسرعين. وبلغ الخبر الرسول ﷺ غير أنه لم يقرر ملاحقتهم.

وبلغ الرسول ﷺ المدينة. وجاء المنافقون الذين تخلّفوا عن المعركة يقدموا الأعذار الواهية. وقَبِل الرسول ﷺ منهم، وأحس في نفس الوقت أن الوقت قد حان لفضح نفاقهم، وأمره الله أن يهدم مسجدهم الذي بنوه في قباء، والذي كانوا يستعملونه للقاء معًا في سرية لتدبير المكائد، ولم تتقرر لهم عقوبة أخرى سوى أن عليهم القيام بأداء صلواتهم مع سائر المسلمين.

ولدى عودته إلى المدينة، وجد الرسول ﷺ أن أهل الطائف قد خضعوا للإسلام. وتبعهم بقية قبائل العرب وافدين يعلنون الدخول في الإسلام. وفي وقت جدّ قصير كان علم الإسلام يرفرف على كل الجزيرة العربية.

حجة الوداع

وفي السنة التاسعة للهجرة خرج الرسول ﷺ إلى مكة للحج، وفي يوم الحج الأكبر تلقى وحيًا يتضمن الآية القرآنية المشهورة التي تقول:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٤)

لقد قالت هذه الآية في واقع الأمر إن الرسالة التي جاء بها الرسول من ربه، وظل يؤكدها بقوله وفعله كل هذه الأيام الطويلة، هذه الرسالة قد كملت. إن كل جزء في هذه الرسالة كان بركة، والآن لقد كملت الرسالة وضمّت في ثناياها أعلى وأسمى بركة يمكن للإنسان أن ينالها من الله ﷻ. وتتلخص الرسالة في اسم "الإسلام" الذي يعني الاستسلام لله تعالى ونشر السلام، هذا الاستسلام ونشر السلام كان هو دين المسلم حيثما كان، دين الإنسانية جميعًا أو دين النوع الإنساني. وتلا الرسول الكريم هذه الآية الكريمة في وادي المزدلفة حيث اجتمع الحجيج، وتوقف ﷺ في مِنى وهو في طريق عودته من المزدلفة في اليوم الحادي عشر من ذي الحجة. وواجه الرسول ﷺ الجمهور الحاشد من المسلمين، ووجه إليهم خطابه الشهير المعروف في التاريخ باسم خطبة الوداع وفيه قال:

"أيها الناس! اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيّته، ولا تجوز وصيّته في أكثر من الثلث.

إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. الولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

أيها الناس! إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حق. أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يُدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعظوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان. لا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاتقوا الله في النساء واستوْصوا بهن خيرًا.

أيها الناس! استوْصوا بالأسارَى خيرًا، فهم إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تطعمون، واكسوهم مما تلبسون. ومن فعل منهم خطأ و لم تغفر له فادفعه إلى أخيك ليكون عنده.

أيها الناس! اسمعوا قولي هذا وعوه، المسلم أخو المسلم، والناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوَى. (وبينما كان يقول ذلك شبك أصابع يديه معًا ورفعهما) وقال: الناس سواسية كأصابع اليدين فلا يفخر أحد على أحد.

ثم سأل الرسول ﷺ: أي شهر هذا؟ أي بلد هذا؟ أي يوم هذا؟

فأجاب المسلمون: إنه الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج المحرم.

فقال ﷺ: إن الله قد حرّم دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم كحُرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا إلى أن تلقوا ربكم، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

وفي النهاية قال مختصرًا: بلغوا عني إلى أقصى الأرض، فرُبّ مبلغ أوعَى من سامع، ورُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه". (الصحاح الستة والطبري وابن هشام والخميس)

لقد لخصت خطبة الرسول ﷺ هذه زُبدة تعاليم الإسلام وروحه. لقد أظهرت إلى أيّ مدى عميق كان الرسول ﷺ معنيًا بصالح الإنسان وسلام العالم، وكذلك إلى أيّ مدى كان عمق احترامه لحقوق النساء والمخلوقات الضعيفة الأخرى. لقد عرف الرسول أن موته صار قريبًا، ولقد تلقّى من الله تعالى ما يشير إلى قرب وفاته. وكان مما عبر عن حرصه وقلقه عليه واهتمامه به هو قلقه واهتمامه بالمعاملة التي تلقاها النساء من الرجال. واهتم بألا يغادر هذا العالم إلى الآخرة دون أن يحقق للنساء المكانة التي هي حق لهن. ومنذ ميلاد الإنسانية، والمرأة يُنظر إليها على أنها عبد وخادم للرجل. كان هذا هو همّ الرسول الأول، وهمه الثاني كان الأسير أو السجين الحربي. لقد كان يُنظر إليهم باطلاً على أنهم عبيد، وكانوا يتعرّضون لكل ألوان القسوة والعدوان، وأحسّ الرسول ﷺ أنه لا يصحّ له أن يغادر هذا العالم دون أن يؤكّد لأسرى الحرب حقوقهم التي هي لهم في نظر الله ﷻ. وكذلك سببت التفرقة بين الإنسان والإنسان حزنًا وغمًّا للرسول.

وأحيانًا كانت التفرقة تصل إلى درجات لا يمكن أن تحتمل، إذ تم رفع بعض الناس إلى السماوات، وتم حطّ آخرين إلى أسفل سافلين.

إن الظروف التي أدّت لهذه التفرقة وعدم المساواة، هي نفسها التي أدّت إلى الخصومة والحرب بين أمّة وأمّة، وبين شعب وآخر. لقد تدبّر الرسول ﷺ بعمق كل هذه الصعوبات التي تعترض خير بني الإنسان، ورأى أنه ما لم يتم القضاء التام على روح التفرقة، فلا يمكن أن يتحقق التقدم، ولا يمكن أن يحلّ السلام في العالم حقًّا، ما لم يتم إزالة الظروف والقيود التي تشجّع شعبًا أن يغتصب حق شعب آخر، وأن يستلب أمواله ويزهق أرواحه؛ تلك الظروف التي تسود وتنتشر عندما تتحلل أخلاق الإنسان. كانت تعاليم الرسول ﷺ هنا أن الحياة الإنسانية والممتلكات الإنسانية لها نفس قداسة الأيام المعظمة والأشهر المقدسة والأماكن المقدسة. ولم يحدث أن أظهر إنسان ما اهتمامًا كهذا ولا عناية كهذه بسعادة النساء، أو بحقوق الضعفاء، أو بالسلام بين أمة وأخرى؛ كما فعل نبيّ الإسلام، ولم يقم إنسانٌ أبدًا بنفس ما قام به الرسول ﷺ لترويج المساواة وإشاعتها بين الناس. ولم يملأ التوق الشديد قلب إنسان نحو خير الناس كما ملأ قلب الرسول محمد ﷺ. فلا عجب إذن أن الإسلام قد دعّم وساند دون تحفظ حقّ النساء لتحتفظ بما تمتلك من مال أو بما ترثه. ولم تستطع الأمم الأوروبية أن تتصوّر للنساء هذا الحق إلا بعد ١٣٠٠ سنة من مقدم الإسلام إلى الأرض. وكل مسلم يدخل الإسلام يصير لفوره أخًا لكل مسلم آخر، ولا يهم الأمّة التي كان منها ولا الشريعة التي كان عليها. والحرية

والمساواة هما من المساهمات المميّزة التي قدّمتها الثقافة الإسلامية إلى العالم. وما أبعد التصورات التي تقدّمها الأديان الأخرى عن الحرية والمساواة، ما أبعدها عن ذلك الأفق الشامخ الذي بشّر به الإسلام وعلّمه للعالم وصار تجربة عملية مستقرّة. وفي مسجد المسلمين يقف الملك، وعالم الدين، والرجل العادي جنبًا إلى جنب، لهم نفس المكانة دون فرق بينهم، بينما تظهر تلك الفروق حتى يومنا هذا في أماكن العبادة لكل دين آخر، مهما ادّعت تلك الأمم والأديان أنها فعلت من أجل إعلاء حرية الإنسان والمساواة بين الناس، أكثر مما فعل الإسلام.

الرسول يُلمّح عن قرب وفاته

في طريق العودة، كرر الرسول ﷺ على مسامع أصحابه أن وفاته باتت قريبة، وقال لهم إنه ليس إلا بشرًا مثلهم يوشك أن يأتيه داع إلى ربه، وقد أعلمه ربه أن نبيًّا يعيش نصف عمر نبيّ قبله، وإنه يظن أنه مفارق لهم ليجيب الداعي وسيلحقون به. ثم سألهم: "فماذا أنتم قائلون"؟

ما إن سمع الصحابة ذلك حتى قالوا: "نقول إنك قد بلّغت وأحسنت، ونسأل الله أن يجزيك خير ما جازى نبيًّا عن أمّته، فسألهم قائلاً:

"أتشهدون ألا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الجنة والنار حق، وأن كل نفس ذائقة الموت، والآخرة حق، وأن الحساب حق، وأن كل نفس ميّتة سوف تبعث يومًا، ويحشرهم الله جميعًا"؟ فأجاب

الصحابة بالإيجاب، وأنهم يشهدون أن هذا كله حق.

عند ذلك اتجه الرسول ﷺ إلى ربه قائلاً: "اللهم قد بلّغت اللهم فاشهد".

وعقب هذه الحجة، كان الشغل الشاغل للرسول ﷺ أن يعمل على تعليم أتباعه وأن يزكيهم بشكل عملي بأن يرفع من مستواهم الخلقي، ويصلح من سلوكهم، ويهذب من طباعهم. وصدر عنه عدة إشارات متكررة عن قرب لحوقه بربه، فأخذ في تهيئة المسلمين لهذا الأمر.

وفي أحد الأيام أبلغ المؤمنين أن الله قد أوحى إليه ما يلي:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (سورة النصر)

ويعني هذا أن الوقت قد جاء لكي يُقبل الناس بعون الله على اعتناق دين الإسلام، وفدًا بعد وفد، وفوجًا بعد فوج. ولذلك ينبغي للرسول وصحبه أن يتوجّهوا إلى الله بالحمد والتسبيح وطلب العفو عنهم، ليرفع سبحانه كل عقبة تعترض الطريق أمام جهود تأسيس الإيمان.

وذكر الرسول ﷺ لهم مثلاً في هذه الآونة: ''إن عبدًا قد خيره الله بين ما عنده أو أن يؤخره إلى حين، فاختار ما عند الله''. كان أبو بكر ﷺ بين السامعين، واستمع لهذا الخطاب في قلق بالغ وانفعال متوهج بالحماس. أما الحماس فكان حماس وإيمان المؤمن العظيم، وأما القلق فكان قلق الصديق المخلص والتابع الوفي. لقد رأى في الخطاب نذيرًا واضحًا بقرب موت رسول الله، فلم يتمالك نفسه وانهار باكيًا.

ودُهش الصحابة الذين كانوا في المجلس لبكاء أبي بكر، إذ لم يكونوا قد بلغوا أعماق الكلمات ووقفوا عند ظاهرها. وسألوا ما خطب أبي بكر؟ إن الله يُبشر رسوله بالنصر القادم بينما هو يبكي. ونظر عُمر باستغراب إلى أبي بكر، وتعجّب كيف يسوق الرسول ﷺ أخبارًا سارة ثم يبكي هذا الشيخ؟

ولكن رسول الله وحده كان يفهم ما يحدث. فأبو بكر كان هو الوحيد بين الناس الذي وعَى كلامه جيدًا، وهو الذي فهم معنى الرسالة بشكل صحيح. فالبشرَى بالنصر القادم كانت تحمل معها أيضًا نذيرًا بقرب وفاة الرسول ﷺ.

ومضَى رسول الله يقول لهم إن أبا بكر هو أحب الناس إليه، ولو كان متخذًا أحدًا خليلاً لاتخذ أبا بكر خليلاً، ولكنه اتخذ الله ﷻ خليلاً. ثم أمرهم أن يُغلقوا كل باب إلى المسجد إلا باب أبي بكر. ولم يعد هناك شك أن هذا الأمر الصادر للصحابة كان يتضمّن نبوءة عن المنصب الذي سيشغله أبو بكر ﵁ بعد رسول الله كخليفة له، فقد كان له أن يُترك بابه مفتوحًا بين المسجد وبيته كي يؤمّ المسلمين في الصلاة.

بعد هذا الموقف بسنوات، وعندما أصبح عمر ﵁ خليفة، سأل الصحابة عن معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾، ومن الواضح أنه تذكر الظروف التي علمهم الرسول ﷺ فيها معنى هذه الآية والآيات التالية لها، ولابد أنه قد تذكر كيف أن أبا بكر وحده هو الذي وعَى مضمون هذه الآيات. وها هو عمر الآن يمتحن

المسلمين عن معرفتهم بهذه الآيات، فهم لم يفهموها بكل عمقها حين نزلت، فهل يمكنهم الآن إدراك معناها؟!!

كان ابن عباس في الحادية عشرة من عمره حين نزلت هذه الآيات، وهو الآن في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، وبادر ابن عباس متطوّعًا بالإجابة فقال إن الآيات كانت تشير إلى نهاية أجل رسول الله حين أتم عمله وأدّى رسالته، فلم يرغب أن يطول به الأجل في هذا العالم. وكما أن الآيات تبشّر بقرب تحقّق النصر للإسلام، فلها وجه حزين آخر، وهو قرب مغادرة رسول الله لهذه الدنيا. وأكّد عُمر على كلام ابن عباس وأثنى عليه قائلاً إن أبا بكر وحده هو الذي فهم ذلك حينما نزلت هذه الآيات أول مرة.

الأيام الأخيرة في حياة رسول الله

عندما اقترب اليوم الأخير الذي كتب الله على كل إنسان أن يواجهه، كان عمل الرسول ﷺ قد تم، واكتمل كل ما أراد الله تعالى أن يوحيه إليه من أجل سعادة الإنسان وفائدته. لقد نفخ ﷺ حياة جديدة في قومه بتأثير من روحه المتألقة، ونهضت إلى الوجود أمّة جديدة، مع أسلوب جديد للنظر إلى الحياة ومع أُسس وموازين جديدة للمجتمع الإنساني. وباختصار، لقد خلق الله أرضًا جديدة وسماء جديدة، ووُضعت الأسس لنظام جديد. لقد تم حرث الأرض وريّها، وتم بذر البذور في التربة مقدمة لحصاد جديد. وها هو الحصاد قد بدأ الآن يلوح للأعين، ولكن، لم يكن للرسول ﷺ نفسه أن

يحصد. كان عليه فقط أن يحرث ويغرس ويسقي. لقد جاء كعامل كادح، وظل عاملاً كادحًا، وسيغادر الآن حقله.. مجرد عامل كادح. ولقد وجد أجره الحق في رضا الله خالقه، وفي قبول مولاه لعمله، وليس في شيء من حطام هذه الدنيا. وعندما جاء وقت الحصاد، فضّل أن يلحق بربه تاركًا الحصاد للآخرين.

وثقل المرض على الرسول ﷺ. واستمر أيامًا يزور المسجد ويؤم الصلاة، حتى صار أضعف من أن يستطيع ذلك أيضًا. وكان أصحابه قد تعوّدوا صحبته، ولم يكن سهلاً عليهم أن يصدقوا أنه قد يموت، لكنه كان يخبرهم مرارًا عن موته.

وحدث ذات يوم أن أشار إلى هذا الأمر فقال: "من أخطأ إلى أخيه فليقصّه في هذا العالم قبل ألا يكون ثمة دينار ولا درهم. ومن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه". وتأثر الصحابة فبكوا، وانحدرت الدموع من مآقيهم، فكم تحمّل هذا الإنسان العظيم من الآلام، وكم عانى من أجلهم فوق ما يحتمل.

لقد عانى واحتمل الجوع والعطش كي يستطيع الآخرون أن يَطعموا ويرتووا. ولقد أصلح ما تمزّق من ثيابه، ورقّع حذاءه كي يتمكن آخرون أن يرتدوا زيًا حسنًا، ثم ها هو الآن يطلب منهم أن يقتصّوا من أخطاء متخيلة محتملة، ربما يكون قد اقترفها بحق شخص آخر. فيا لله! ما كان أعظم احترامه لحقوق الآخرين، وما أبلغ حرصه على أن ينال كل إنسان حقه، مهما كان!

وتلقى الصحابة عرض الرسول ﷺ للقصاص في صمت وقور، ولكن أحدهم تقدم قائلاً: "بلى يا رسول الله، لقد ضربتني في جانب بطني حين مررتَ على الصفّ في المعركة فوكزتني، إنك لم تتعمد ذلك ولكنك ذكرتَ أن نقتصّ منك حتى ولو كان الأذَى غير مقصود، فأقدني هذا الخطأ يا رسول الله". وامتلأت قلوب الصحابة سُخطًا وغضبًا لذلك الطلب. لقد تلقّى جميع الصحابة الحاضرين عرض رسول الله بصمت حزين وقلوب منكسرة، فكيف لهذا الرجل الأحمق ألا يفهم روح السموّ في ذلك العرض النبيل، أو يغفل عن إدراك معنى هذه اللحظة المهيبة؟

لكن الصحابي بدا عنيدًا مصرًا على أن يطالب الرسول ﷺ بالتنفيذ الحرفي لما نطق به. فدعاه الرسول ﷺ ليأخذ منه حقه ويقتصّ منه. فطلب الرجل من الرسول ﷺ أن يكشف له ظهره، لأنه حين وكزه، وكزه على اللحم. فاستجاب له الرسول ﷺ، وكشف عن ظهره، وطلب منه أن يضربه كما ضربه.

ولكن بدلاً من الاقتصاص، إذا بالصحابي ينحني على ظهر الرسول ﷺ بعيون دامعة ويقبّله. فتساءل الرسول ﷺ عما يفعله، فقال الرجل إنه فهم من كلام رسول الله أن أيامه صارت معدودة، وربما لن تتاح لهم فرصة مثل تلك مرة أخرى ليعبروا له عن مدى الحبّ والمودّة التي يحملونها له في قلوبهم، وصحيح أن رسول الله كان قد وكزه مرة دون قصد، ولكن من ذا الذي يمكن أن يفكر في أن يقتص لذلك من رسول الله. لقد خطرت هذه الفكرة على باله في التوّ والحال، فرأى

أن ينتهز الفرصة ويقبّل جسد رسول الله بحجّة الاقتصاص.

أما بقية الصحابة الذين كانوا يغالبون دموعهم، فقد تمنوا لو أن تلك الفكرة قد خطرت أيضًا على بالهم.

اللحاق بالرفيق الأعلى

كان المرض يشتد بالرسول ﷺ وتتطوّر حاله بشكل يزداد معه اقترابه من الموت. وكان الحزن والألم يخيّمان على قلوب الصحابة. كانت الشمس التي طلعت على سماء المدينة تتألق ساطعة كما كانت تتألق كل يوم، ولكنها كانت تبدو في عيون الصحابة شاحبة، يزداد شحوبها يومًا بعد يوم. ثم جاء يوم انبثق صباحه كما كان ينبثق صباح كل يوم، ولكن الصحابة رأوه صباحًا يجلب معه الظلمة لا النور، فقد جاء أخيرًا أوان مغادرة الروح الكريمة لوعائها المادّي كي تلحق بخالقها الرحيم. ومع مرور الوقت، صار تنفّسه ﷺ أصعب، وكان يقضي أيامه الأخيرة في غرفة السيدة عائشة، فطلب منها أن ترفع رأسه قليلاً نحوها، ففعلت لما عبّر لها عن صعوبة تنفسه. وجلست وهي تضم رأسه إليها.

وبدأت تشتد عليه سكرات الموت، وارتعش بشدة وعيناه تدوران هنا وهناك، وهو يردد "لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". وكأن هذه كانت وصيّته الأخيرة لأتباعه ولأمّته وهو على فراش الموت. وكأنه أراد أن يقول لهم إنهم سوف يعلمون ويشهدون أن الله تعالى قد فضّله على سائر الأنبياء، وجعل مسعاه هو الأنجح،

ولكن عليهم أن يحذروا أن يجعلوا قبره قِبلة للعبادة، وعليهم أن يدعوا قبره مجرّد قبر، وليعبد الآخرون قبور أنبيائهم ويحجّوا إليها ويجعلوها أماكن لتقديم القرابين ليكفّروا عن خطاياهم لديها وينسبوا إليها المحامد والشكران. إن للآخرين أن يفعلوا ذلك، وأمّا أمّته فلا يليق بها ذلك، فعليهم أن يذكروا قبلتهم الحقيقية، ألا وهي عبادة الله، ولا أحد غير الله الذي لا إله غيره.

وبعد أن أنذر الرسول ﷺ الأمّة، وحمّلهم واجبهم وعرّفهم مسؤولياتهم، وهي أن يحرسوا المبدأ الأسمى في الحياة وهو وحدانية الله تعالى وواجب التفريق بين الله والإنسان، بدأ بعدها يغلق عينيه، وكل ما قاله حينئذ: "مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى". وبعدها أسلم الروح.

وبلغت الأخبار المسجد حيث كان كثير من الصحابة مجتمعين، بعد أن تركوا كل شؤوهم الخاصة وجاءوا إلى المسجد يتوقعون أخبارًا حسنة بدلاً مما سمعوه عن موت رسول الله، وكان لوقع النبأ عليهم أثر نزول الصاعقة من السماء. لم يكن أبو بكر ﷺ هناك ساعتئذ، وكان عمر ﷺ في المسجد، ولكن الحزن قد أصابه بالذهول التام، فكان يغضب كل الغضب إذا سمع أحدًا يقول إنّ رسول الله قد مات، بل سلّ سيفه وهدّد به من يقول ذلك. إذ كان يرى أنه لا زال هناك الكثير من العمل ليقوم به الرسول ﷺ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يموت،

ولا بد أن روحه فارقت جسده ليلقَى خالقه كما ذهب موسى عليه السلام للقاء ربه ثم عاد، لذلك فلا بد من عودة رسول الله ليتم العمل، فهناك المنافقون مثلاً لم يتم حسم أمرهم بعد، فلَيرجعن رسول الله، فليقطعن أيدي وأرجل أولئك الذين يزعمون أنه مات. هكذا كان عمر تتجاذبه الخواطر والأفكار، يذهب ويجيء والسيف في يده كأنه قد فقد عقله وهو يتمتم ببعض الكلمات، فكان يقول: "من قال إن رسول الله مات ضربت عنقه".

ومال بعض الصحابة إلى تصديق قول عمر، بل لعلهم كانوا يأملون أن يكون محقًّا في كلامه، ولعل هناك خطأ ما، ولعل النبيّ لا يمكن لـــه أن يموت.

وهرع بعض الصحابة ليبحثوا عن أبي بكر رضي الله عنه، فلما وجدوه وأخبروه بالأمر اتخذ أبو بكر طريقه مباشرة إلى المسجد، ولم يكلم أحدًا حتى دخل على عائشة في غرفتها فسألها: "هل مات رسول الله"؟ فأجابت عائشة بالإيجاب. فقصد إلى حيث كان جسد رسول الله مُسجّى على فراشه، فكشف عن وجهه وأكبّ عليه فقبّله وبكى حبيبه حزينًا وقال: "بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين أبدًا".

كانت جملة عميقة المغزَى غنيّة المعنى، فكانت ردًّا على ما كان عمر يردّده في حزنه دون وعي، فالنبي ﷺ قد مات مرة، وكان هذا هو موت الجسد، الموت الذي على كل إنسان أن يذوقه، ولكن لم يكن له أن يذوق موتًا ثانيًا، فليس عليه بعد ذلك من موت تذوقه الروح، كما أنه لن تموت عقائد الحق التي غرسها في أتباعه، ولن يموت

النبت الذي تحمّل التعب والآلام من أجل زراعته في تربة هذا العالم. وإحدى هذه العقائد.. إحدى العقائد الهامة.. هي ما علمهم من أن كل الأنبياء كانوا من البشر، وأن البشر لا بد أن يموتوا، ولا يصح للمسلمين أن ينسوا هذه الحقيقة فوْر موت نبيهم ورسولهم.

وخرج أبو بكر ﷺ بعد أن قال هذه العبارة العظيمة عند جثمان رسول الله، واخترق صفوف المسلمين وتقدم من المنبر صامتا. وعندما نهض ليتكلم، وقف عمر إزاءه وسيفه في يده، وعبّر عن عزمه أن يضرب عنق أبي بكر لو قال إن الرسول ﷺ قد مات. وبدأ أبو بكر في الكلام فأمسك عمر بتلابيب ثوبه ليمنعه من الكلام، فنَزَع أبو بكر ثوبه من يد عمر، وتلا هذه الآية الكريمة:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٥)

وهذا يعني أن رسول الله هو إنسان يحمل رسالة من الله تعالى، وقد كان هناك رسل آخرون، كلهم من البشر، وكانوا يحملون رسائل من الله تعالى، وقد ماتوا جميعًا. فهل لو مات محمد تنقلبون على كل ما علّمكم إياه وكل ما تلقيتموه منه؟ لقد نزلت هذه الآية بعد معركة أُحُد، عندما سرَت إشاعة بأن العدوّ قد قتل رسول الله، وأدّى ذلك إلى أن الكثير من المسلمين فقدوا لبّهم ورباطة جأشهم وانسحبوا من أرض المعركة. لقد نزلت الآية من السماء وقتها لتربط على قلوبهم وتشدّ رباطهم، وكان للآية نفس التأثير في هذه المناسبة، في ذلك اليوم

الحزين. وأضاف أبو بكر بعد تلاوة الآية الكريمة فقال: "من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت".

استعاد الصحابة توازنهم لدى سماع ذلك، وتغير عُمر نفسه عندما سمع الآية التي تلاها أبو بكر، وبدأ يستعيد رجاحة عقله التي غابت عنه بعض الوقت. وعندما انتهَى أبو بكر من كلامه، أدرك عمر أن الرسول ﷺ قد مات فعلاً. وما إن تكشفت لـــه الحقيقة الحزينة إلا وبدأت ساقاه ترتعشان وسرعان ما سقط مغشيًا عليه. هكذا كان الرجل الصلب القوي، الذي أراد أن يتصدّى لأبي بكر ويرهبه بسيفه المسلول في يده، إذا به يتحوّل بعد سماعه كلمات أبي بكر إلى إنسان لا يقوَى على الوقوف على قدميه، ولم يجد بُدًّا من أن يذعن للحقيقة الحزينة. وأحس الصحابة أن هذه الآية لم تنْزل إلا في ذلك اليوم لأوّل مرة، وكان لها أثر بالغ ووقع عظيم عليهم، وفي نوبة حزنهم العميق الذي ملأ نفوسهم، وفي غمْرة الأسَى الحزين الذي عمّ وجدانهم، نسوا من هول مصابهم أن الآية الكريمة كانت في القرآن المجيد.

لقد عبر الكثيرون عن الحزن الذي أصاب المسلمين عند وفاة الرسول ﷺ، كما رثاه الكثيرون من الأدباء والشعراء، ولكن الرثاء الأعظم الذي ظل حتى اليوم يفوق كل ما قاله الآخرون في رثاء الرسول ﷺ وفي التعبير عن حزن المسلمين، كان هو ما عبّر به حسان بن ثابت، شاعر الرسول ﷺ الذي أفصح عن حزنه في مقطع من الشعر يقول فيه:

كنتَ السّوَاد لناظري فعمَى عليك الناظرُ
من شاء بعدك فليمت فعليك كنتُ أحاذرُ

لقد عبر هذا المقطع عن إحساس كل مسلم. ولعدة شهور بعد ذلك.. ظل الرجال والنساء والصبيان ينشدون هذا المقطع الشعري في جنبات المدينة وفي طرقاتها، وظلت كل طريق خطا عليها رسول الله، وكلّ حبة رمل سار فوقها، تردّد صدَى ذلك الشعر الرقيق الذي أنشده حسان بن ثابت.

شخصية رسول الله ﷺ وأخلاقه

بعد أن قمنا بعرض مختصر للأحداث البارزة في حياة النبيّ الأكرم ﷺ، نقدّم الآن محاولة لعرض الخطوط العامة للملامح التي تميّز سلوكه الخلقي. ولدينا في هذا الشأن شهادة قومه التي أقروا بها قبل دعواه بالنبوة، ففي تلك المرحلة كان معروفًا في قومه "بالصادق" و "الأمين". (ابن هشام)

ولا شك أن في كل عصر عاشت أعداد كبيرة من الناس دون أن يتّهمهم أحد بعدم الأمانة، وهناك أيضًا أعداد كبيرة من البشر لم يحدث لهم أن تعرّضوا للتجربة والامتحان، وكان سلوكهم في مجالاتهم العادية يتّسم بالأمانة والنّزاهة، ولكن لا يعتبر الناس أنهم يتميّزون بشيء خاص في هذا الصدد، إذ أن من يستحق أن ينال التميّز الخاص هم أولئك الذين تفيض حياتهم الشخصية بدرجة عالية من صفات الخلق السامي الكريم.

إن كل جندي يدخل المعركة يضع حياته في مهب الأخطار، ولكن ليس كل جندي بريطاني ينال وسام الملكة فيكتوريا، ولا يستحق كل جندي ألماني وسام الصليب الحديدي. وهناك مئات الألوف من الناس في فرنسا يعملون في وظائف تستدعي منهم استعمال العقل والتفكير، ولكن لا يفوز كل منهم بوسام الشرف. وعلى هذا فإن مجرد أن يكون الإنسان أمينًا أو صادقًا لا يدل على أنه يتميّز بشيء خاص عن سائر الناس، ولكن عندما يقوم شعب بأكمله بالإجماع على منح

شخص لقب "الصادق" و "الأمين"، فإن هذا يدل على أنه بلغ في الأمانة والصدق مبلغًا عظيمًا، وأن له في الصدق والأمانة خواصًا استثنائية خارقة عهدها الناس عليه. ولو كان من عادة أهل مكة أن يمنحوا تميّزًا كهذا لشخص ما في كل جيل من الأجيال، فحتى حينذاك لا بد أن يكون ذلك الشخص قد بلغ شأنًا عاليًا في خصال الصدق والأمانة. ولكن تاريخ مكة، بل وتاريخ الجزيرة العربية كلها، لا يشير من قريب أو بعيد إلى أن العرب قد اعتادوا منح هذه الألقاب أو ما يشابهها في أيّ جيل من أجيالهم. ولكن على العكس من ذلك، إن تاريخ العرب يبين أنه لم يحدث أنهم أطلقوا لقب "الصادق" أو "الأمين" على أحد سوَى على الرسول ﷺ، مما يدل على أنه ﷺ قد بلغ في هذا الشأن سموًا لم يبلغه أحد، ونال رفعة لم يصل إليها سواه، حتى إن ذاكرة قومه لم تعرف شخصًا يساويه في هذا المضمار، ولا رأت عيونهم إنسانًا يباريه في هذا المجال. لقد كان العرب معروفين بتوقّد الذهن، وإذا ما اختاروا شيئًا واعتبروه نادر المثال، فهو في الحقيقة إذن فريد نادر المثال.

وعندما دعا الله تعالى رسوله الكريم ليحمّله أعباء النبوة ومسئولياتها، فإن زوجه السيدة خديجة، رضي الله تعالى عنها، راحت تشهد بصفاته الخلقية الراقية، وهي حادثة سبق الإشارة إليها في سيرته التي أسلفنا ذكرها. وسوف نقدّم الآن بعضًا من صفاته الأخلاقية العالية، ليستطيع القارئ أن يقدّر رسول الله حق قدره في تلك المجالات التي لم يتمّ التعريف بها.

طهارة الفكر ونظافة البدن

يُروَى عن الرسول ﷺ أنه كان نقيّ الحديث دائمًا، وأنه لم يكن يستعمل القسَم تلو القسَم لتوكيد كلامه، كما كان معاصروه غالبًا يفعلون. ولم يكن هذا بالأمر العادي بين العرب، ولا يعني هذا أن العرب في عصر الرسول ﷺ كانوا يعتادون الكلام البذيء، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا معتادين على الكلام الذي يشوبه الكثير من الأيْمان المغلّظة، وهي عادة تمكنت منهم حتى إلى أيامنا هذه. أما رسول الله فكان يحفظ لاسم الله تعالى وقاره واحترامه، ولم يحدث أبدًا أن تفوّه به إلا إذا كان هناك ما يبرر ذلك.

وكان دقيقًا في اهتمامه بالنظافة البدنية حتى في الشكليات الخارجية، فكان من عادته أن يستاك عدة مرّات في اليوم، وكان يشدّد على الاهتمام بهذه العادة حتى تكرر منه القول بأنه لولا خشيته أن يشق على أمّته لأمرهم بالسواك عند كل صلاة. كان يغسل يديه قبل الطعام وبعده، وكان يغسل فمه فور تناول طعام مطبوخ؛ وكان يرى أنه من المستحب لكل شخص أكل طعامًا مطبوخًا أن يغسل فمه قبل كل صلاة، ففيه استنارة للفم. (البخاري)

إن المسجد في الإسلام هو المكان الذي يُعقد فيه اجتماع المسلمين، ولذلك اهتم الرسول ﷺ اهتمامًا خاصًا بنظافة المساجد، خاصة في الأوقات التي يزدحم المسلمون داخلها، ولذلك حث على إيقاد البخور في هذه المناسبات لتحسين رائحة الهواء (أبو داود). وأرشد المسلمين ألا يذهبوا إلى المساجد في الصلوات الجامعة بعد تناول الأطعمة التي تصدر

عنه رائحة منفّرة (البخاري).

وأصر على أن تظل الشوارع والطرقات نظيفة من الأغصان والحجارة، وكل المواد والأشياء التي قد تعوق السير أو تثير الاشمئزاز. وكان يزيل الأذى من الطريق بنفسه إذا وجده، وكان من عادته التذكير بأن كل من يميط الأذَى عن الطريق محافظًا عليه نظيفًا فإنه يكتسب رفعة عند الله وقوة في الإيمان. ورُوي عنه أنه أمر ألا تُستعمل الطرقات لتعويق المارة، وألا يُلقَى في الطريق أي شيء أو مادة غير مرغوب فيها، وألا يُدنّس الطريق بأية صورة، فإن كل فعل من تلك الإساءات تُغضب الله تعالى.

وكان شديد الحرص على أن تُصان كل مصادر الماء التي يستعملها الإنسان نظيفة نقية. وعلى سبيل المثال هنا، فلقد حرّم إلقاء أي شيء في الماء الراكد حتى لا يفسد، ولا في أي خزّان ماء يُستفاد منه حتى لا يتلوث (البخاري ومسلم-كتاب البِر والصلة).

بساطة حياة النبيّ

كان طعامه وشرابه غاية في البساطة، ولم يشْكُ مطلقًا من سوء طبخ الطعام أو سوء إعداده. وكان يُقْدم على تناول طعام كهذا ليعفي الشخص الذي قام بإعداده من الحرَج، وأحيانًا كان الطعام لا يؤكل وحينئذ يكفّ عن تناوله، ولم يحدث أن عبر أبدًا عن رفضه لطعام. وكان إذا جلس لطعامه اتجه نحوه، وكان يُعلّم أصحابه أن لا يفرّقوا بين أنواع الطعام. وعندما يوضع الطعام أمامه، كان يشترك فيه مع

الحاضرين. وفي مرة أهداه أحدهم تمرًا، فنظر حوله وقدّر عدد أصحابه الذين كانوا معه، ثم قسم التمر بينهم بالتساوي، فأعطى كل واحد منهم سبع تمرات. وقد روَى أبو هريرة أن الرسول ﷺ لم يأكل حتى الشبع من طعام قط حتى ولا من خبز شعير (البخاري).

ومر يومًا على قوم بين أيديهم شاة مشويّة في وليمة، وعندما رأوا الرسول ﷺ دعوه ليشاركهم فأبى، ولم يكن ذلك كراهية منه للّحم المشوي، ولكن لأنه لم يكن يرضَى أن يستمتع الناس بوليمتهم من الشواء في مكان مفتوح للمارة بحيث يراهم الفقير الذي لا يجد ما يأكل، فتنكسر نفسه. ورُوي عنه في مناسبة أخرَى أنه أكل اللحم المشوي. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قُبض" (البخاري- كتاب الأطعمة). وكان يشدّد على ألا يذهب إنسان إلى بيت شخص آخر لطعام إلا إذا دُعي إليه. وفي مرة دعاه إنسان إلى طعام، وأذن له أن يصحب أربعة آخرين معه، وعندما وصل إلى منْزل المضيف وجد شخصًا سادسًا قد انضم إلى المجموعة، وخرج صاحب البيت إلى الباب ليلقَى الرسول ﷺ وصحبه. فلفت ﷺ نظره إلى الشخص السادس الذي انضم إليهم، وترك للمضيف حق قبول هذا الضيف الزائر أو رفضه، وقبل المضيف بطبيعة الحال هذا الشخص الزائر (البخاري كتاب الأطعمة).

وكان إذا جلس ﷺ لطعام سمى بالله ودعا بالبركة، فإذا فرغ حمد الله بهذه الكلمات: "الحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه غير مكفي

ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا". والمعنى هو أن كل المحامد لله الذي أطعمنا، حمدًا فائضًا من قلب مخلص محض، حمدًا متزايدًا باستمرار، حمدًا لا يدع لدينا انطباعًا في عقولنا أننا حمدناه تعالى بما يكفي، بل حمدًا يخلق فينا إحساسًا أننا لم نقل بعد ما يكفي لحمد الله، حمدًا لا ينتهي بل يجعلنا نشعر دومًا أن كل أفعال الله تستحق الحمد، حمدًا يتضرع إلى الله أن يملأ القلب بهذه المشاعر اللائقة بتقديسه.

وأحيانًا كان يقول: "الحمد لله الذي كفانا وأروانا غير مكفي ولا مكفور". والمعنى هو أن الحمد لله كل الحمد الذي أطعمنا وسقانا، اللهم اجعل قلوبنا دائمًا وأبدًا مشتاقة لحمدك لا تكتفي، ونعوذ بك أن تنكر قلوبنا نعمتك فلا تمتنّ لك.

وكان يُذكّر أصحابه عند الطعام ألا يملأ أحد بطنه بالطعام، وكان يقول إن طعام الواحد يكفي الاثنين. وكان إذا أُعِدّ في بيته طعام خاص أوصَى أن يُهدَى بعضٌ منه للجيران، وكانت عادته أن يهدي الطعام وغيره من الماعون إلى بيوت جيرانه (مسلم، كتاب الأدب والبخاري).

وكان دائمًا يحاول التفرّس في وجوه أصحابه ليتوسّم إن كان أحدهم في حاجة لمعونة ماسّة، وقد روَى أبو هريرة هذه الحادثة: "والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنتُ لأشُدُّ الحجَر على بطني من الجوع، ولقد قعدتُ يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل. ثم مر بي عُمر،

فسألته عن آية من كتاب الله تعالى، ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل. ثم مرّ بي أبو القاسم، فتبسّم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي. ثم قال: أبا هرّ! قلت: لبيك يا رسول الله. قال: الحقْ، ومضى فتبعتُه، فدخل فاستأذن فأذن لي فدخل فوجد لبنًا في قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: أبا هرّ، قلت: لبيك رسول الله. قال: الحق إلى أهل الصُفّة فادعهم لي. قال أبو هريرة: وأهل الصُفّة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم و لم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فساءني ذلك، فقلت في نفسي: وما هذا اللبن في أهل الصُفّة؟ كنت أحقّ أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوّى بها، فإذا جاءوا أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسَى أن يبلغني من هذا اللبن، و لم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بُد. فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، فأخذوا مجالسهم من البيت فقال: يا أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يُروَى، ثم يرد عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يُروَى، ثم يرد عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يُروَى، ثم يرد عليَّ القدح. حتى انتهيت إلى الرسول وقد رَوَى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسم، ثم قال: أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيتُ أنا وأنت؟ قلت: صدقتَ يا رسول الله. قال: اقعد فاشرب فقعدتُ فشربتُ. فقال: اشرب، فشربت. فما زال يقول اشرب حتى قلت: لا

والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا. فقال: فأرني، فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة (البخاري، كتاب الرقاق).

ربما كان هدف الرسول من تكرار عرض اللبن على أبي هريرة آخر المجموعة هو أن يعلمه التحمل والصبر على آلام الجوع، وأن يجعل ثقته في الله تعالى، وألا يبالي بظروفه الخاصة مهما كانت صعبة غير مواتية.

وكان ﷺ يأكل دائمًا بيمينه ويشرب بها، ويتوقّف في الشرب ثلاث مرات ليتنفّس خلال شُربه، وربما كان السبب أن الشخص لو شرب الماء دفعة واحدة، لاستوعب منه ما يفيض عن حاجته مما يصيبه بعسر الهضم.

وكان نهجه في الطعام هو أكل كلّ حلال طيب، ولكن بعيدًا عن الأسلوب الذي فيه رائحة النهم، أو فيه حرمان لآخرين من نصيبهم المستحق. وكما سبق القول، فقد كان طعامه بسيطًا، ولكنه لم يكن يرفض طعامًا يهديه إليه إنسان، ولم يكن شديد التوْق إلى أطايب الطعام، وإن كان يفضّل العسل والتمر. أما عن التمر، فقد كان يقول إن هناك شبهًا بين المؤمن وبين النخلة، حيث يُستفاد من الثمر سواء الرطب منه أو الناضج، والسّعف والجريد واللحاء أو الليف، وحتى النوَى داخل الثمرة له فوائد عدة، فلا شيء في هذه الشجرة خال من الفائدة، وهكذا حال المسلم، يجب أن تكون كل حركاته وأفعاله ذات جدوَى، وأن تكون كل مساعيه من أجل خير الإنسانية كلها (البخاري ومسلم).

وكان ﷺ يفضّل الملابس البسيطة، وكانت ملابسه تشمل إزارًا

ورداء أو رداء وسروالاً. وكان يرتدي إزاره أو سراويله بحيث يغطي بدنه دون الكعبين. ولم يُجزْ كشف أي جزء من البدن فوق الركبتين إلا لضرورة قصوَى، كما لم يُجزْ استخدام قماش عليه صور بارزة أو مرسومة لأشخاص، سواء للملابس أو للستائر، خاصة إذا كانت هذه الرسومات كبيرة أو تمثل آلهة أو مما يُعبد من دون الله. ورأى ذات مرة في بيته ستارة عليها صوَر ذات حجم كبير فأمر بإزالتها. ولم يكن على كل حال يرى حرجًا من استخدام قماش عليه رسوم صغيرة أو رسوم لا تُفسر على نحو العبادة والتقديس. ولم يكن يرتدي الحرير ولم يسمح به لرجال المسلمين، ولقد اتخذ خاتمًا بغرض توثيق الرسائل التي يبعث بها إلى حكام وملوك العالم ليدعوهم للإسلام، لكنه أوصَى أن يصنع الخاتم من فضة لا من ذهب، لأنه نهى رجال المسلمين عن لبس الذهب. ومع أنه كان يسمح لنساء المسلمين بارتداء الحرير وحُلي الذهب، غير أنه كان يرى أن الإسراف في ذلك كريه مقيت. وفي إحدى المناسبات دعا إلى الصدَقة لإنقاذ بعض الفقراء، فنَزعت امرأة أساورها من يدها ووضعتها في حجر الرسول ﷺ، فقال لها إنّ من حقّ يدها الأخرى أن تنجو أيضًا من النار، فخلعت المرأة أساورها من اليد الثانية وقدمتها إليه. ولم يحدث أن امتلكت امرأة من نساء بيته حُليًّا ذات قيمة، ولا ملكت امرأة من النساء المسلمات على عهده تلك الحليّ الغالية إلا فيما ندر. وقد استنكر أن يكنز أحد الذهب والفضة المسبوكة، وذلك حسب تعاليم القرآن المجيد. وكان يرى أن الاكتناز بوجه عام يضر بمصلحة القطاع الفقير من المجتمع، ويؤدّي إلى

انهيار اقتصاد الأمة والوطن، لذلك كان يعتبر أن الاكتناز إثم من الآثام.

واقترح عُمر ﷺ ذات مرة على الرسول ﷺ أن يرتدي حلة ثمينة يستقبل بها سفراء الدول الكبرى في المناسبات الرسمية، فرفض مبيّنًا أن الله تعالى لا يرضَى عن ذلك، وأنه ينبغي له أن يقابل الناس بالملابس التي يرتديها عادة. وجاءته مرة هديّة من قماش حريري فبعث به إلى عُمر، فتساءل عمر كيف يرتديه وقد نهى عن ذلك، فقال له إن الهدية ليست دائمًا للاستعمال الشخصي، ومن الممكن أن تستعمل نساؤه ذلك القماش. (البخاري-كتاب اللباس)

وكان فراشه كذلك بسيطًا. لم يستخدم الأسرَّة أبدًا أو المتّكآت، وكان ينام على حصير مفروش على الأرض، وكان فراشه هذا من جلد أو من نسيج من شعر الإبل. وروَت السيدة عائشة أن هذا الفراش كان ضيقًا، حتى إنها كانت تنام على جانب منه وهي متمددة الأقدام، فإذا قام الرسول ﷺ ليلاً للتهجّد، فهبط للسجود؛ جمعت رجليها، حتى إذا قام ونهض.. مدتها، فإذا سجد انكمشت ثانية وهكذا. (مسلم والترمذي، والبخاري-كتاب الأطعمة)

وقد انتهج نفس البساطة في ترتيبات المسكن، فقد كان منْزله عادة يتكوّن من غرفة واحدة وفناء صغير، وكان هناك حبل معلق يقسم الغرفة إلى نصفين بحيث يعلق ستار من قماش على ذلك الحبل عندما يكون لديه زائر، فينفصل مكان لزوجه عن مكان الحاضرين الآخرين. كانت حياته بسيطة للغاية، وقد روَت السيدة عائشة أن طعامه بوجه

عام طوال حياته معها، كان التمر والماء. وعندما مات ﷺ لم يكن في البيت يومها سوى بضع تمرات قليلة.

العلاقة مع الله ﷻ

لقد سيطر حبه لله تعالى وإخلاصه له على جميع مجالات حياته كلها، ولقد اصطبغت كل مناحي حياته بصبغة هذا الحب وذلك الإخلاص. ولقد كان يصرف الجزء الأكبر من وقته في الليل والنهار يصلي لله، ويسبح بحمده، رغم كل الأعباء الثّقال التي كان يحملها على عاتقه، والمسؤوليات الجسام التي كانت تُطوّق عنقه. وكان يهجر فراشه، ويكرّس نفسه لعبادة الله تعالى حتى يحين وقت الخروج إلى صلاة الفجر. وأحيانًا، كان يقف طويلاً في الصلاة من آخر الليل حتى تتورّم قدماه، وكل من شاهده على هذا الحال تأثّر له كثيرًا. وفي مرة قالت له السيدة عائشة: "يا رسول الله! لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر". فقال لها: "أفلا أكون عبدًا شكورًا" (البخاري- كتاب الجمعة).

ومعنى ذلك أنها كانت تقول له إن الله تعالى شرّفه بقربه، وأكرمه برضاه عنه، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلماذا يجهد نفسه هذا الجهد في الصلاة والعبادة، فيقول لها إن واجبه إزاء ذلك أن يزداد شكرًا، فإن زيادة الشكر تجلب مزيدًا من القُرب.

ولم يكن أبدًا يبدأ عملاً إلا بأمر الله تعالى، ولقد سبق أن ذكرنا في سيرته أنه لم يترك مكة إلا بعد أن تلقّى أمرًا سماويًا بذلك، على الرغم

من خطورة وقسوَة الاضطهاد الذي كان يتعرض له من أهل مكة. ولقد رفض الهجرة مع أصحابه إلى الحبشة حين اشتدّ الاضطهاد عليهم، وأمرهم بالهجرة إليها و لم يستجب لرغبتهم في أن يصحبهم، لأن الله تعالى لم يكن قد أذن له بذلك. وفي الوقت الذي تشتدّ فيه الأزمات والمتاعب، يميل الناس عادة لاستبقاء أصدقائهم وأقربائهم على مقربة منهم، ولكن الرسول ﷺ أمر أصحابه باللجوء للحبشة، بينما بقي هو نفسه خلفهم في مكة بسبب عدم تلقّيه توجيها من الله تعالى بمغادرتها.

كان قلبه يفيض تأثرًا، وتنحدر الدموع من عينيه كلما سمع كلمات الله تُتلى عليه، خاصة حينما تذكر تلك الكلمات مسؤولياته هو ومهامّه النبويّة. ويرْوي عبد الله بن مسعود أن الرسول ﷺ سأله مرة أن يتلو عليه بعض الآيات من القرآن المجيد، فقال عبد الله: "يا رسول الله! كيف أقرؤه عليك وعليك أُنزل؟ (يقصد أن رسول الله هو الأعلم به) ولكنه رد عليه قائلاً: "إني أحب أن أسمعه من غيري". فبدأ عبد الله يتلو من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤٢)، فقال له الرسول ﷺ: "حسبك.. حسبك". فنظر عبد الله بن مسعود إلى الرسول ﷺ ليجد الدموع تنهمر من عينيه (البخاري، كتاب فضائل القرآن).

كان ﷺ شديد الحرص على أداء الصلوات المفروضة، حتى في حالة مرضه الشديد الذي لا يمكنه معه الصلاة إلا في الفراش؛ كان يحرص

على الذهاب إلى المسجد ليؤمّ المصلين بنفسه. وفي مرة لم يستطع القدوم إلى المسجد؛ فأمر أبا بكر رضي الله عنه أن يصلي بالناس، ولكنه حالما أحس ببعض القوة والتحسن في مرضه، طلب أن يسندوه ليَصل المسجد. واتّكأ على كتفي رجلين وهو بالغ الضعف حتى إن قدميه كانتا تجرّان على الأرض، وتصنعان خلفها خطوطًا كما ترْوي السيدة عائشة (البخاري).

إن التصفيق باليدين علامة شائعة للتعبير عن السعادة أو لجذب الانتباه إلى أمر ما، وقد تعَوّد العرب على ذلك أيضًا. ولكن الرسول ﷺ لشدّة حبه لذكر الله، أحلّ الحمد والتسبيح وذكر الله محل التصفيق في مناسبات إظهار السرور أو لفت الانتباه.

في مرة من المرات شغله أمر هام عن حضور الصلاة لأوّل الوقت، فأناب أبا بكر ليؤم المصلين، ولكنه سريعًا ما فرغ من الأمر الذي كان بصدده، ثم بادر لفوره إلى المسجد وأبو بكر قائم يؤمّ الناس، ولكن جمهور المصلين شعر بوصول الرسول ﷺ فبدأوا في التصفيق تعبيرًا عن سرورهم بوجوده، ولتنبيه أبي بكر لوجود شخص الرسول ﷺ بينهم. فعند ذلك تراجع أبو بكر رضي الله عنه عن مقامه، وأفسح المكان للرسول ﷺ ليؤمّ الناس. ولما انتهت الصلاة، سأل أبا بكر: "لماذا تراجعتَ وقد أمرتُك أن تؤمّ الناس"؟ فقال أبو بكر: "ما كان لابن أبي قحافة أن يؤمّ الناس ورسول الله قائم". ثم وجّه الرسول ﷺ كلامه إلى الناس فقال لهم إنه ليس من المستحب أن يصفّقوا في الصلاة، فإذا انتاب أحدهم في الصلاة أمر فليسبحوا اسم الله ويجهروا به بدلاً من التصفيق.

(البخاري)

ولم يكن الرسول ﷺ يقبل أن تكون عبادة الإنسان أو صلاته تعذيبًا لذاته، أو عبئًا ثقيلاً في إحساسه. وفي إحدى المناسبات دخل البيت، فرأى حبلاً ممدودًا بين عمودين، فسأل عنه فقيل إن زوجه زينب تتعلق به إذا نهضت في صلاتها عندما تتعب من طول التهجّد، فأمر بإزالة الحبل وقال إن على المرء أن يؤدّي صلاته طالما كان يشعر بالنشاط، فإذا فتر فليقعد، لأن الصلاة ليست عذابًا للنفس، وأنها تفقد قدرتها على تزكية النفس إذا أدّاها المرء وجسده منهك من التعب (البخاري، كتاب الجمعة).

وكان يمقت كل فعل وكل ممارسة تمتّ بأدنى صلة ولو بعيدة إلى أطياف الوثنية أو آثارها. وعندما اقتربت وفاته وأحس بسكرات الموت، كان يتقلّب من جانب إلى جانب وهو يحذّر من فعل اليهود والنصارى بسبب اتخاذهم قبور أنبيائهم وأوليائهم مساجد. وكان يقصد أولئك الذين كانوا يخرّون ساجدين عند قبور أنبيائهم وأوليائهم، ويوجّهون الخطاب إليهم في الصلوات ويصلّون لهم. وقصد أن المسلمين لو فعلوا ذلك، وسقطوا في هذه الممارسات، فإنهم بذلك يتبرأون من نبيّهم، بدل أن يستحقوا صلواته عليهم.

ولقد سبق الحديث في السيرة عن غيرته الشديدة على تمجيد الله وشرف ذكره إلى أقصى الحدود. لقد حاول أهل مكة معه بكل وسائل الفتنة والإغراء، والترغيب والترهيب، ليكفّ عن معارضته لعبادة الأصنام (الطبري). ولقد حاول عمه أبو طالب أن يقنعه ليعدل

عن طريقه، وعبر له عن خوفه من موقف صعب، يجد فيه نفسه مخيرًا بين مرارة عداء قومه، وبين تسليمه لهم متخليًا عن حمايته، إذا أصر على موقفه في شجب الوثنية وتخطئة نهجها. وكان ردّ الرسول ﷺ الوحيد على ذلك هو: "والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه". (الزرقاني)

وفي أُحُد، وعند سفح أحد التلال، بينما يحيط به الجرحى من المسلمين، والعدوّ قد تملّكه الفرح يعبر عن شماتته، وينفّس عنه شعوره بالانتصار على المسلمين بصيحات منكرة، وأبو سفيان قائدهم يصرخ: "أعل هبل، أعل هبل"، في هذا الظرف الدقيق، ورغم ما يهدد سلامته من خطر، ورغم أن العدد الصغير المحيط به من أصحابه ظلوا صامتين، فإنه لم يملك إلا أن يأمرهم بالردّ عليه قائلين: "الله أعلى وأجَلّ" (البخاري).

وكان من العقائد الشائعة عند أتباع الأديان المختلفة قبل الإسلام، أن الآيات الكوْنية في السماء والأرض تساهم في التعبير عن مشاعر الأنبياء والقديسين والصالحين حزنًا وفرحًا، بل إنهم يمكن أن يتحكموا بحركات الأجرام السماوية. وعلى سبيل المثال، فقد رُوي عن بعضهم أنه تسبّب في وقوف الشمس في مسارها، أو أن القمر قد توقّف، أو أن الأنهار قد توقّفت عن الجريان. وقد جاء الإسلام يعلّم الناس أنّ عقيدة كهذه لا أساس لها من الصحة، وأنّ ما جاء من ذلك في الكتب المقدسة السابقة كان أمثلة رمزية، تم تحويلها إلى تصوّر خرافي بدلاً من

تأويلها على معناها الصحيح. ورغم ذلك فقد كان بعض المسلمين يميلون إلى نسبة بعض الظواهر الطبيعية إلى أحداث معيّنة في حياة الأنبياء. ولقد كُسفت الشمس عندما مات إبراهيم ابن الرسول ﷺ في عامه الثالث. فروّج بعض المسلمين في هذا اليوم تلك الفكرة التي تقول إن الشمس أظلمت لموت إبراهيم كنوع من التعزية لمشاعر الرسول الكريم. وعندما بلغ الأمر الرسول ﷺ، عبر عن بليغ استنكاره وضيقه بهذه التصوّرات، فقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لحياة أحد ولا لموته". وهكذا شرح لهم وبيّن للناس كيف أن الشمس والقمر وأجرام الكوْن السابحة يحكمها قانون الله تعالى وحده، وأن حركتها والظواهر المرتبطة بها لا تخضعان لموت أحد ولا لحياته (البخاري).

والجزيرة العربية بلد جاف، ولذلك يستقبل أهلها المطر بحفاوَة، وينتظرونه بشغف شديد. وكان العرب قد اعتادوا تخيّل أن الأمطار مرتبطة بحركة النجوم، ولكنّ الرسول ﷺ كان يُظهر الامتعاض البالغ إذا ذُكر أمامه شيء من هذا القبيل، وكان ينصح قومه ألا ينسوا نعمة الله تعالى التي يتفضل بها عليهم، ولا ينسبوها إلى أيّ مصدر آخر غير الله ﷻ. وكان تعليمه هو أن المطر وكل ظواهر الطبيعة خاضعة لنظم الله تعالى وحده، وتأتمر بأمره، ولا تخضع لرغبة أحد أو سُلطته، ولا لحركة أيّ مخلوق آخر من دون الله ﷻ. (مسلم، كتاب الإيمان)

ومهما كان من تراكم الظروف المعاكسة عليه، فقد كانت ثقته في الله لا تهتز إزاء ذلك. حدث ذات يوم أن رآه أحد الأعداء نائمًا، لا

يحرسه أحد. فوقف عند رأسه، والسيف مسلول في يده وهدّد الرسول ﷺ بالقتل لفوره، وقبل أن يهوي بسيفه عليه سأله قائلاً: "من يمنعك مني"؟ فرد الرسول ﷺ في رباطة جأش: "الله". ولقد تفوّه الرسول ﷺ بهذه الكلمة بقوة وجلال ويقين، حتى إنّ قلب العدوّ الكافر لم يتمالك نفسه فأدرك على الفور أن الرجل الذي أمامه شامخ الإيمان والثقة في الله تعالى، ولا يمكن أن يكون كاذبًا. لذلك سقط السيف من يد الرجل، ووقف في هيئة صاغرة كمن ينتظر صدور الحكم عليه، بعد أن كان منذ لحظة يقف عازمًا على قتل الرجل الذي أمامه. (مسلم-كتاب الفضائل، والبخاري-كتاب الجهاد)

وعلى العكس من ذلك كان موقفه ﷺ بالغ التواضع أمام الله تعالى، فكان يقف أمامه بكل خشوع ومذلة. وروَى أبو هريرة أنه سمع الرسول ﷺ يقول إن أحدًا لن يدخل الجنة بعمله، فسأل أبو هريرة: "ولا أنت يا رسول الله"؟ فرد عليه قائلاً: "ولا أنا، إلاَّ أن يتغمدني الله برحمته". (البخاري كتاب الرقاق).

ولقد ظل دائمًا يحضّ الناس أن يلتزموا في كل أعمالهم بالصراط المستقيم، وأن يبذلوا جهدهم في تحرّي الوسائل التي تقرّبهم من الله تعالى. وكان يعلمهم أن الإنسان لا يصحّ له أن يتمنى الموت، لأنه لو كان يسلك السلوك الحسن فلعله يستزيد منه، وإن كان سيئًا فلعله يتوب ويعود إلى فعل الخيرات. ولقد عبر ﷺ عن حبه لله وإخلاصه له بطرق شتى، فمثلاً.. كان قد طال الجفاف، وطال أيضًا انتظار المطر، فلما بدأت القطرات الأولى تتساقط من السماء، أخرج لسانه يستقبل

به قطرة من هذه القطرات، وهو يعبّر عن سعادته وامتنانه لله تعالى قائلاً ما يعني أن هذه أحدث نعمة تتنَزّل عليه من لدن الله تعالى. وكان دائمًا مشغولاً بدعاء الله ليغفر له ويرحمه، وكان ذلك يحدث كثيرًا خاصة في مجالس أصحابه كي يعلمهم أن يقوا أنفسهم من عذاب الله وأن يستكثروا من فضله. ولم يكن يغادره بتاتًا إحساسه بأنه دائمًا وأبدًا في معيّة الله تعالى، فكان إذا أراد النوم قال: "باسمك اللهم أحيا وباسمك اللهم أموت"، يقصد بذلك أنه يذهب إلى نومه واسم الله تعالى على شفتيه، ويستيقظ واسم الله على شفتيه.

فإذا استيقظ كان يقول: "الحمد لله الذي أحيانًا بعد ما أماتنا وإليه النشور" (البخاري). وكان يتُوق باستمرار لكل ما يقرّبه من ربه. ومن دعائه المتكرر قوله: "اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، واجعل لي نورًا" (البخاري). وفي رواية: "واجعلني نورًا".

وروَى ابن عباس أنه قبل موت الرسول ﷺ بقليل، قدِم مسيْلمة الكذّاب على عهد رسول الله فجعل يقول: "إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعتُه". وقدم المدينة في عدد كثير من قومه، إذ كانت قبيلته أكبر القبائل العربية. فأقبل إليه رسول الله ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وكان في يد رسول الله قطعة جريد، حتى وقف على مسيْلمة في أصحابه فقال: "لو سألتني هذه القطعة (الجريد) ما أعطيتُكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنّك الله، وإني لأراك الذي أُريتُ

فيه ما رأيتُ، وهذا ثابت ابن قيس يجيبك عني"، ثم انصرف عنه. قال ابن عباس: "فسألت عن قول رسول الله إنك ترى الذي أريت فيه ما رأيت"؟ فأخبرني أبو هريرة إن رسول الله قال: "بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأُوحِيَ إليّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأوّلتهما كذابيْن يخرجان بعدي". (البخاري)

كان ذلك في أواخر حياة الرسول ﷺ، ولم تكن أكبر القبائل العربية قد آمنت بعد، وكان شرطها كي تتبعه هو أن يُعيّن زعيمهم خليفة له من بعده.

لم يكن للرسول ﷺ ولد من نسله، ولا قريب طامح يقف أمام رغبة الرسول ﷺ في توحيد الجزيرة العربية كلها إن قبل بهذا العرض. ولو كان ﷺ مدفوعًا بأيّ دافع شخصي، لما وقف شيء ضدّ رغبته في وحدة العرب، بأن يعد فقط رئيس أكبر قبيلة فيها أنه سيكون خليفته. ولكنه لم يكن يرى نفسه متصرفًا في أي شيء في العالم مهما كان صغيرًا، ولم يكن يرى نفسه مالكًا لشيء. لذلك رفض التعامل مع مسيْلمة، ورفض عرضه بكل ازدراء. وكان ينظر إلى قيادة المسلمين لا كهدية يهديها هو إلى من يشاء، بل كأمانة إلهية مقدّسة يهبها الله تعالى لمن يستحقها ويناسبها. لذلك قال لمسيْلمة أن يدع عنه قيادة المسلمين جانبًا، فلن ينال منه ولا حتى قطعة جافة من الجريد.

كان ﷺ إذا تحدث عن الله ﷻ، بدا للناظرين وكأن وجوده كله يذوب في حبّ عميق لله ﷻ، وينبض كيانه كله بنشوَة إخلاص فريد

لله ﷻ.

وكان يرى دائمًا ضرورة أن تكون العبادة بسيطة دون تعقيد. وكانت أرضية مسجده من الرمل والحصباء، ذلك المسجد الذي بناه وصلى فيه أكثر صلواته إمامًا، وكان سقف المسجد من الجريد والسعف الذي كان ينفذ منه ماء المطر إذا هطل. وفي بعض الأيام ابتل الرسول ﷺ وصحبه في الصلاة بالماء، وأصابهم طين الأرض، ولم يمنعه ذلك من إتمام الصلاة للنهاية، ولم يؤجّل أية صلاة، ولم يغلق المكان لحين إتمام الإصلاحات التي تعمل على إحكام السقف ضد عوامل الجو (البخاري، كتاب الصوم).

وكان يراعي أحوال أصحابه مع الله تعالى. كان عبد الله بن عمر رجلاً حريصًا على التقوَى والتطهر، فقال عنه الرسول ﷺ: "نِعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل". وعندما بلغ ذلك عبد الله، لم يترك قيام الليل بعدها. وحدث مرة أن كان الرسول ﷺ في بيت ابنته فاطمة، فسألها هي وزوجها عليًّا ما إذا كانا يصليان ليلاً، فقال له عليّ: "يا رسول الله! إنما أنفسنا بيد الله فإن شاء بعثها". فتولى عنه الرسول ﷺ وأخذ يضرب ركبته في الطريق ويكرر آية من القرآن وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا﴾ (الكهف)، بمعنى أن الإنسان يتردّد في الاعتراف بخطئه، ويحاول تحميل أعماله الاختيارية على الله تعالى (البخاري، كتاب الجمعة).

وقصد الرسول بذلك أن عليًّا لا يجوز له أن ينسب إهمال صلاة الليل إلى إرادة الله تعالى، بادّعائه أن الله إذا شاء عدم نهوضه للصلاة

فإنه لفوره يصبح عاجزًا عن التهجّد، ولكن واجب عليّ هو التسليم بضعفه عن أداء الأمر، وعليه أن يواجه نفسه ويلومها.

رفض تعذيب النفس

رفض الرسول ﷺ رفضا باتًّا أن تكون العبادة أمرًا شكليًا، وأدان قيام الشخص بتعذيب نفسه بأيّة صورة، متصوّرًا أنه بذلك التعذيب يعبد الله تعالى ويتقرّب إليه. لقد وهب الله ﷻ الإنسان ملكاته وحواسّه كي يحسن استخدامها وشكرها. ولقد علّم الرسول ﷺ الناس أن العبادة الحقّة تكمن في الانتفاع الأمثل بتلك العين وذلك السمع وهذا الشم وذلكم التذوّق والإحساس. إن الله تعالى وهبنا العين لنرى بها، وإنه لمن الكنود لله أن نغلقها أو أن نقتلعها. وليس شكر نعمة الرؤية هو أن نعتبر الرؤية إثمًا، فالله وهبنا هذه الملكات ليس على أنها إثم نحمله، بل نعمة للتقدّم والرقيّ. وإنه لعقوق من جانب الإنسان أن يحرم نفسه من نعمة وهبها الله له كالسمع مثلاً، كما أنه من العقوق والإثم أيضًا أن يستخدم هذه الحاسّة في الاستماع إلى الأكاذيب والغيْبة. والامتناع عن تناول الطعام، (ما لم يكن صومًا مفروضًا أو عملاً تقتضيه الحكمة)، قد يؤدي إلى قتل النفس، وهو ذنب لا يُغتفر. وكما أن الإضراب التام عن الطعام والشراب إثم وعقوق، فإن من النكران والعقوق كذلك أن نأكل طعامًا محرّمًا أو نشرب ما لا يحل شربه. وهذه قاعدة ذهبية للحياة، أكّدها الرسول ﷺ وشدّد على أهميتها. ولم يقم من قبل نبيّ آخر بغرس هذه القاعدة في التعليم والحياة.

إنّ الاستخدام الصحيح لملكاتنا الطبيعية، وحُسن استعمال الميول الحسّية، هو الذي يؤدّي إلى أن تترسّخ فينا الصفات الأخلاقية العليا. وإنه من الحماقة أن نُبطل عمل هذه الملكات الطبيعيّة التي فطرها الله فينا أو نلغيها، كما أنه من الحمق أيضًا أن نسفّهها بأداء سفيه. إنّ الإثم لا يكمن فيها، بل يكمن في سوء استخدامها، ولذلك فإنّ في حُسن استخدامها فضيلة مؤكّدة وخُلُقًا طيبًا. وهذه هي خلاصة التعاليم الخلقية التي أكّدها الرسول ﷺ وشدّد على أهميتها، وكان عليها مدار حياته وزبدة أفعاله. رُوي عن السيدة عائشة أن الرسول الكريم ﷺ لم يُخيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا أو شُبهة، فإنّه يكون أبعد الناس عنه (مسلم، كتاب الفضائل). وإن ذلك لهو النهج الأعلى والسبيل الأمثل الذي جعله الله تعالى للإنسان.

إن كثيرًا من الناس يحاولون أن يتقرّبوا إلى الله تعالى بالحرمان وتحمّل الآلام تطوّعًا منهم، والله يأبى ذلك. فليس رضا الله في الحرمان والعذاب، والفوز برضا الله لا يأتي عن طريق عذاب عبثي لا هدف منه، وحرمان للذّات لا فائدة منه إلا خداع الناس.

وهناك من البشر ممن ضعفت صفاتهم الخلقية، يحبّون أن يموّهوا بالتغطية على أخطائهم، ويريدون بتأثيرات وهمية أن يبدوا في عيون الآخرين كأنهم من أصحاب الفضائل وذَوي المكانة. أما النبيّ الأكرم ﷺ فكان هدفه هو نوال الفضيلة حقيقة، وبلوغ رضا الله فعلاً، والفوز بقرب الله ﷻ، لذلك كان ﷺ خاليًا تمام الخلوّ من كل تظاهر وادّعاء.

وسواء عليه رأى الناس هذا الشيء حَسنًا أو رأوه سيئًا، فالأمر

المهم عنده كيف يجده هو نفسه، وماذا يحسّ تجاهه من أعماقه، وكيف يحكم الله عليه. فإذا أضيف حكم الناس وتقديرهم إلى رضاه هو عن ضميره ورضا الله وقبوله، فإنه يشكرهم ويمتنّ لهم. ولكن إذا نظروا إليه بعين الإنكار أو الاشمئزاز، فإنه يأسف عليهم ولا يُلقي بالاً إلى رأيهم.

حاله مع أزواجه

كان ﷺ عطوفًا كل العطف وعادلاً كل العدل مع زوجاته، وإذا أخطأت إحداهن في موقف ما ولم تفِ بما عليها من واجب الاحترام تجاهه، فإنه كان يبتسم ويمرّر الأمر. وقال يوما للسيدة عائشة: "إني لأعرف إذا كنت عني راضية وإذا كنت عليّ غضبى". قالت: "من أين تعرف ذلك"؟ فقال: "أمّا إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا وربّ محمد، وإذا كنت عليّ غضبى قلت: لا وربّ إبراهيم". قالت: "أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك" (البخاري، كتاب النكاح).

كانت السيدة خديجة هي أوّل أزواجه، وقد ضحّت أعظم التضحيات معه، وكانت تكبره سنًّا. وبعد وفاتها تزوّج بنساء أصغر سنًّا، لكنّ ذكراها لم تخفت في قلبه. وعندما كانت تزوره صديقة من صديقات السيدة خديجة، كان ينهض قائمًا ليستقبلها (مسلم). وإذا تصادف ورأى شيئًا يخص السيدة خديجة، كان قلبه ينبض بالعاطفة في الحال، ويفيض وجدانه بالحنين إلى ذكرياته معها. وحدث أن كان زوج ابنته زينب من بين أسرى المسلمين في معركة بدر، ولم يكن

يملك شيئًا يفتدي به نفسه، فبعثت زينب إلى المدينة بقلادة تفتَدي بها زوجها، وكانت القلادة أصلاً لأمّها السيدة خديجة. وعندما رأى الرسول ﷺ القلادة عرفها، وتأثر لرؤيتها، ورقّ قلبه، فاستأذن أصحابه أن يردّوها إليها ويطلقوا لها زوجها، فقبل الصحابة ذلك بسعادة بالغة لما قال لهم إن القلادة كانت هديّة الزفاف من السيدة خديجة إلى ابنتها (السيرة الحلبية ج٢). وكان كثيرًا ما يمدح السيدة خديجة أمام أزواجه الأخريات، ويذكر كم ضحّت في سبيل الإسلام. فغارت السيدة عائشة من ذلك يوما وقالت: "كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة". فتأثر الرسول ﷺ كثيرًا لقولها وقال لها إنها كانت وكانت، وراح يذكر ويعدّد أعمالها ومناقبها (البخاري).

علوّ أخلاقه وسموّها

كان الرسول ﷺ صبورًا دائمًا في المحن، ولم يتراجع أبدًا أمام الظروف الصعبة والابتلاءات، ولم يدع الأهواء الشخصية تستولي عليه. ولقد عرفنا أن أباه قد توفي وهو جنين لم يولد بعد، وتُوفيت أمه صغيرًا ليكفله جدّه حتى الثامنة من عمره. وبعد وفاة هذا الجد بعد ذلك بقليل، كفله عمّه أبو طالب. كان أبو طالب يرعَى الصغير ويعطف عليه، وكان يتسامح معه لسببين أوّلهما العاطفة الطبيعية نحو ابن أخيه، وثانيهما لأن عبد المطلب جدّ الرسول ﷺ كان قد أوصاه به. ولكن زوج أبي طالب لم تكن تحمل للصغير نفس الشعور، ولم تكن تحكمها نفس الاعتبارات. لذلك كان يحدث أحيانًا أن تقسم

شيئًا ما بين صغارها هي، تاركة ابن عمّهم الصغير دون نصيب. فإذا تصادف أن دخل أبو طالب المنْزل في ظرف كهذا، فإنه كان يجد ابن أخيه الصغير جالسًا على جانب، دون أثر للعبوس أو الضيق أو الإحساس بالضّيْم على وجهه، وكأنه تجسيد تام للشعور بالكرامة، فيسرع العم إلى الصغير مدفوعًا بدواعي العاطفة الجائشة وإحساسه ووعيه بالمسئولية فيضمّه إلى صدره صائحًا: "انظروا إلى طفلي هذا أيضًا.. انتبهوا إلى طفلي هذا أيضًا". كان هذا يحدث مرات عديدة، ومن شهدوا هذه الوقائع أجمعوا على أن محمدًا، الصبيّ والشاب، لم يبد مرة واحدة أية بادرة تدل على أنه قد تأثر بهذه التفرقة، أو أنه كان لديه أيّ شعور بالغيرة من أبناء عمه. ومضت الحياة، وجاء الزمن الذي كان يمكنه أن يفعل شيئًا من نوع الثأر، لو كان قد ترسّب في نفسه شعور مخزون عن ذلك. لكن الذي حدث أنه أخذ على عاتقه كفالة وتربية اثنين في بيته من أبناء عمه هذا، وهما عليّ وجعفر. ولقد تحمل المسئولية على أعلى مستوى ممكن.

لقي الرسول الكريم ﷺ خلال حياته تجارب متوالية كانت أشد وقعًا من ذلك، فقد وُلد يتيمًا، وماتت أمه وهو طفل صغير، وفقد جده وهو في الثامنة من عمره، وبعد زواجه عانى ثكل عدة أبناء واحدًا بعد الآخر. وبعد ذلك فقد زوجته الحبيبة وقرينته المخلصة السيدة خديجة. ولقد ماتت عدّة أزواج له ممن تزوجهن بعد السيدة خديجة. وعند قرب وفاته تحمل آلام الحزن على فقد ابنه الصغير إبراهيم. لقد تحمّل جميع هذه المصائب برضًى وسكينة، ولم تتأثر رقّته

ودماثته ولا عزيمته بتوالي المحن عليه.

و لم يُنفّس أبدًا عن أحزانه الخاصّة جهْرة على الملأ، وكان يلقَى كل إنسان بوجه بشوش عذب. وعامل الجميع على السواء بنفس الإحساس ولطف المعشر. وفي مرة رأى امرأة تبكي على قبر ابنها الفقيد بلوْعة، وتصرخ متألمة، فنصحها بالصبر وقبول إرادة الله. و لم تكن المرأة تعرف أنّ محدثها هو الرسول الكريم ﷺ، فردّت عليه قائلة: "إليك عني فإنك لم تُصب بمثل مصيبتي". ثم قالت له المرأة لو أنه فقد ابنه مثلها لعرف مدى صعوبة الصبر على تلك المصيبة، فأخبرها أنه فقد سبعة من أبنائه لا واحدًا فقط، واستمر في طريقه. و لم يكن يفكر كثيرًا فيما أصابه من مصائب، إلا إذا أرجعته حادثة كهذه ليذكرها، ولكنه لم يتركها تحول دون أداء مهمته في خدمة الإنسانية التي أرسله الله تعالى من أجلها، ولا في القيام بما كلّفه به سبحانه من حمل أعباء الناس، ومشاركتهم أحمالهم وأثقالهم وآلامهم بكل رضًا وسرور.

ضبط النفس

لقد كان ﷺ في حالة دائمة من السيطرة على النفس، وكان يعرف كيف يتحكّم تمامًا في مشاعره، خاصة عندما يخطئ الآخرون في أسلوب تعاملهم معه. وحتى عندما أصبح حاكمًا، كان يستمع لكل شخص في صبر وأناة. وعندما يعامله شخص بوقاحة، كان يتحمله و لم يحاول أبدًا الانتقام لشخصه. ومن المعروف لدى العرب أنهم عندما يخاطبون إنسانًا ويظهرون له الاحترام، فإنهم لا ينادونه باسمه

المجرّد. وقد اعتاد المسلمون خطاب الرسول بقولهم "يا رسول الله"، ولم يتعوّد أيّ من المسلمين أن يناديه بأبي القاسم (القاسم اسم أحد أبنائه). وفي أحد الأيام، جاءه يهودي في المدينة وأخذ يحاوره، وخلال المحاورة كان يناديه باسمه المجرّد: يا محمد، يا محمد. ولم يعر الرسول ﷺ اهتمامًا لأسلوب خطابه، واستمر في شرحه لموضوع الحوار صابرًا. فغضب أصحاب الرسول ﷺ لجفاء الخطاب من هذا المتحدّث، حتى إنّ أحدهم لم يتمالك نفسه فقال لليهودي ناصحًا إياه أن يخاطب الرسول ﷺ بكنيته "أبا القاسم" لا باسمه المجرّد. فقال اليهودي إنه يناديه بالاسم الذي سماه به أبواه. فتبسّم الرسول ﷺ وقال: "لقد صدق، لقد سميت محمدًا عندما وُلدت، ولا ضير عليه أن يناديني باسمي". وأحيانًا كان الناس يستوْقفونه في الطريق، وينخرطون معه في حديث، ويشرحون له حاجتهم، ويقدّمون له مطالبهم، فكان دائمًا يقف معهم صابرًا حتى ينتهي صاحب الحاجة ويمضي، وبعد ذلك يتحرك هو. وأحيانًا كانوا يلقونه فيصافحه أحدهم، ويحتفظ بيد الرسول ﷺ في يده لبعض الوقت، فلم يكن يسحب يده من يد مصافحه أولاً، مع أنه كان يجد في هذا مضيعة لبعض الوقت، وتصرّفًا غير ملائم.

وكان الناس يذهبون إليه دون صعوبة، ويضعون أمامه مشاكلهم ومعاناتهم ويطلبون معونته، فإن كان يستطيع المساعدة فلا يتردّد في تقديمها. وأحيانًا كانوا يلاحقونه بالمطالب المتطرّفة ويضغطون عليه بها، فيستمر في الاستجابة لهم طالما كان قادرًا على التلبية. وأحيانًا بعد

تلبية المطلب كان ينصح السائل أن يثق في الله أكثر وألا يسأل الناس. ومرة سأله أحد المسلمين المخلصين عدة مرات، فكان يعطيه في كل مرة، وفي النهاية قال له إن الأجمل للمسلم أن يضع ثقته في الله تعالى وألا يسأل الناس شيئًا. وكان هذا الشخص وفيًّا لهذه النصيحة، فلم يردّ للرسول ما أعطاه رعاية لمشاعره، لكنه قرر في الحال أنه لن يسأل أحدًا بعد اليوم شيئًا مهما كانت الظروف. وبعد سنوات كان هذا المسلم مشتركًا في معركة من المعارك راكبًا على فرس، فسقط منه سَوطه في معمعة القتال والضجيج الثائر، بينما كان اشتباك السيوف واختلاط الرماح في قمته، فانحنى أحد المسلمين من الجند المشاة على السوْط ليلتقطه له، فرفض ذلك المسلم الفارس، وهبط عن حصانه والتقط سَوطه بيده بنفسه. ولما رأى المسلم الماشي ذلك تعجّب، فشرح له كيف أنه منذ وعد رسول الله ألا يسأل أحدًا شيئًا فإنه يفي بذلك، ولو أنه سأله أن يناوله سوطه فإنه يخشى أن يكون بذلك قد نقض هذا الوعد.

العدالة ونزاهة التعامل

كانت المحاباة شائعة في العرب، وكانوا يطبّقون معايير عدة في التعامل مع الأشخاص، وحتى في يومنا هذا نرى أنهم في بعض الأمم المتحضرة يحجمون عن محاسبة المشاهير وأصحاب المناصب الرفيعة على أعمالهم، بينما يُطبق القانون بكل صرامة ضد الشخص المواطن العادي. لكن الرسول ﷺ كان فريدًا في معاملة الجميع بعدالة ونزاهة

متساوية. ومرة جيء بقضية اقمت فيها امرأة بالسرقة، وكانت المتهمة من عائلة ذات مكانة وشأن، وقد ثبتت عليها التهمة. ولقد أحدث هذا الأمر فزعًا كبيرًا، إذ لو طُبقت عليها عقوبة السارق، فإن العار والمهانة ستلحق القبيلة بأسرها من جرّاء ذلك. وقد أراد الكثير من الناس أن يطلبوا من الرسول ﷺ الشفاعة فيها، ولكنهم كانوا يخشون من هذه الوساطة. وفي النهاية أخذ أسامة ابن زيد على عاتقه هذه المهمة، وذهب إلى الرسول ﷺ، وما إن شعر بالأمر حتى تغير وجهه وقال: "حسبك، إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم القوي تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها" (البخاري، كتاب الحدود). ولقد رُوي أن العباس، عمّ رسول الله، كان قد أُسر في بدر، وتم ربطه بحبل شأنه شأن بقية الأسرى لمنعه من الهرب، وكان الحبل مشدودًا على العباس بقوة حتى إنه كان يئن ليلاً، وسمع الرسول ﷺ أنينه ولم يستطع النوم. فشعر بذلك أصحابه، وأرخوا الحبل قليلاً عن العباس، وعندما علم الرسول ﷺ بذلك طلب منهم الاختيار بين إرخاء الحبل عن الجميع أو إعادة شدّ رباط عمه العباس، وأمرهم بالعدل في معاملة جميع الأسرى. عند ذلك قام الصحابة من جهتهم بإرخاء رباط الجميع وتشديد الحراسة عليهم (الزرقاني ج٣).

وحتى في ظروف الحرب وما تقتضيه من ضرورات قاهرة، كان ﷺ شديد الاهتمام بمراعاة القواعد السليمة واحترام المعاهدات والأعراف المعتمدة. وقام مرة بإيفاد جماعة من أصحابه في حملة استطلاعية

فواجهوا بعضًا من رجال العدوّ في آخر يوم من شهر رجب، أحد الأشهر الحرُم، وظنّوا أن من الخطورة عليهم أن يدعوهم يفلتون ليحملوا إلى مكة خبر هذه الجماعة الاستطلاعية القريبة منهم فهاجموهم. وأثناء القتال قُتل أحد أفراد العدوّ، وعندما رجع هذا الوَفد الاستطلاعي إلى المدينة، راح أهل مكة يعترضون على ما حدث قائلين إنّ المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام وقتلوا رجلاً منهم.

كان أهل مكة ينتهكون حرمة الأشهر الحرُم ضد المسلمين متى كان ذلك ملائمًا لهم حسب هواهم، وكان من الممكن الردّ على اعتراضهم ردًا مناسبًا بالقول إنهم أيضًا ينتهكون حُرمة الأشهر الحرم، فلا يحقّ لهم أن يطالبوا المسلمين أن يلتزموا بذلك. ولكنّ الرسول ﷺ لم يكن ليستعمل مثل هذا الرد. لقد ألقى باللائمة على أفراد الحملة بشدة، ورفض قبول الغنائم التي غنموها بل إنه قد أدّى دية القتيل كما جاء في إحدى الروايات، حتى نزلت الآيات من عند الله تعالى، فأوضحت الأمر برمّته (البقرة: ٢١٨).

ويحافظ الناس عمومًا على مشاعر أصدقائهم وأقاربهم فلا يجرحونها. ولكن الرسول ﷺ كان يشدّد على مراعاة هذا الأمر باعتباره حقًّا للجميع، حتى بالنسبة للذين يقفون منه موقف المعارضة. وحدث مرة أن جاءه يهودي وشكا إليه أنّ أبا بكر قد أساء إلى مشاعره حين قال له إنّ محمدًا أعظم من موسى. فاستدعى الرسول ﷺ أبا بكر وسأله عما حدث، فقال له إنّ اليهودي هو الذي بدأ فقال حالفًا: "لا والذي فضّل موسى على البشر". فردّ عليه أبو بكر بقوله:

"لا والذي فضّل محمدًا على البشر". فقال الرسول ﷺ بأنـــه ينبغـــي للمسلمين ألا يفعلوا ذلك رعاية لمشاعر الآخرين، وأمـــر ألا يفضّـــله المسلمون على موسى عليه السلام (البخاري، كتاب التوحيد).

ولا يعني هذا أن محمدًا ﷺ، ذلك الرسول الكريم العظيم، لا يتســـنّم مكانة عند الله أعلى من موسى عليه السلام، ولكنه قصد أن تصـــريحًا كهـــذا يطلقه المسلم في وجه يهودي جدير أن يجرح مشاعره، وهذا شيء يجب تجنبه تمامًا.

احترام الفقراء

كان الرسول ﷺ يعمل دائمًا على تحسين أحوال الفقراء في المجتمع، كما كان يهتم برفع مكانتهم في المجتمع الإنساني. كان رسول الله يومًا في أصحابه جالسين معه، فمرّ عليهم رجل من الأثرياء، فسأل رسول الله أصحابه: "ما تقولون فيه"؟ فردّوا عليه قائلين: "هذا حريّ إن قال أن يُسمع لـــه، وإن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن تُقبل شفاعته".

وبعد قليل مرّ رجل آخر، وكان فقيرًا معدمًا، فسألهم الرسول ﷺ عنه كالأول. فردّوا عليه قائلين: "هذا حريّ إن قال ألا يُسمع له، وإن خطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يُقبل منه". وكانـــت المفاجـــأة في ردّ الرسول ﷺ عليهم فقال: "إن هذا الفقير خير من ملء الأرض مثـــل الغني" (البخاري، كتاب الرقاق).

وكانت امرأة مسلمة فقيرة تقصد مسجد الرسول ﷺ في المدينـــة فترفع منه القمامة. ومرت بضعة أيام لم يرها الرسول ﷺ فيها، فسأل

عنها مهتمًا، فأخبروه أنها ماتت. فقال: "أفلا كنتم آذنتموني بها، دلوني على قبرها، (وكان يقصد بذلك لومهم على تصوّرهم أنها لا تستحق التقدير لفقرها). فدلوه، فأتى قبرها فصلى عليها صلاة الجنازة. وكان يقول: "رُبّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه لــــه، لو أقسم على الله لأبرّه." (كنـــز العمال، الإكمال من الخمول رقم الحديث: ٥٩٥٣)

وفي مرة كان بعض أصحابه جالسين معًا، ممن كانوا قبــــل ذلـــك عبيدًا وتحرروا، فمر بهم أبو سفيان الذي كان قائدًا عظيمًـــا، وظـــل يقاتل المسلمين حتى فتْح مكة ثم أسلم حينئذ. وهنا أخذت المجموعـــة تُذكّره بالنصر الذي وهبه الله للإسلام وهزيمة المعارضـــة المســـلحة، فسمع أبو بكر ؓ ذلك فلم يرض عن قولهم، ووبّخ المجموعة قـــائلاً: "أتقولون هذا لسيد قريش؟" ثم ذهب إلى الرســـول ﷺ وروَى لـــــه القصة، فقال له: "يا أبا بكر! لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربّك". فعاد إليهم أبو بكر لتوّه وأخذ يسترضيهم قائلاً: "يا إخـــواني، هـــل أغضبتكم"؟ وظل يناشدهم حتى قالوا له إنهم لم يشعروا بأية إساءة مما قال، ودعُوا الله تعالى أن يغفر لــــه (مسلم-كتاب الفضائل).

وبينما كان الرسول ﷺ يحثّ على احترام الفقير، وعـــدم جـــرح إحساس المسكين، وبذل كل جهد لقضاء حاجتهم، والحـــضّ علـــى إطعامهم، فإنه في نفس الوقت كان يطلب منهم الإحســـاس التـــام بالعزّة، وعلّمهم أن يتجنبوا السؤال. وكان يقول: "إن المسكين لـــيس هو الذي تردّه التمرة ولا التمرتان، أو اللقمة واللقمتان، ولكن الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن لــــه فيتصدق عليـــه" (البخـــاري، كتـــاب

الزكاة). وكان يقول: "إن الله تعالى يبارك الوليمة عندما يُدعى إليها المسكين". وروَت السيدة عائشة أنّ امرأة مسكينة زارتها ومعها ابنتان لها صغيرتان، ولم تكن السيدة عائشة آنئذ تملك غير تمرة واحدة فأعطت المرأة التمرة، فقسمت المرأة التمرة بين ابنتيها وانصرفت. وجاء الرسول ﷺ البيت فقصّت عليه السيدة عائشة القصّة، فقال لها: "من رزقه الله من هؤلاء البنات شيئًا فربّاهن وأدّبهن كنّ له سترًا من النار، وأخبرها أن الله تعالى قد وهب الجنة لهذه المرأة لعطفها على ابنتيها". (مسلم)

وسمع يومًا أنّ أحد أصحابه الأغنياء يتفاخر بثروَته على آخرين، فراح يعلمهم ألا يظن أحد أن الثروَة والمكانة والقوّة تأتي من جهد الشخص الخاص، ولكن ليعلموا أنّ هذه الثلاثة تُكتسب من خلال هؤلاء الفقراء.

وكان من دعائه ﷺ: "اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين" (الترمذي، كتاب الزهد).

وفي أثناء مروره في الطريق مرة، وكان الجو حارًا، لاحظ أحد المسلمين يحمل حملاً ثقيلاً من مكان إلى آخر، وكان الرجل فقيرًا جدًّا، شديد البساطة يكسوه العرق والتراب، وتزيده الكآبة البادية على وجهه بؤسًا. فلم يتأفف منه الرسول ﷺ، واقترب منه يداعبه، فوقف خلفه ووضع يديه على عيني الرجل ليخمّن من هو؟ وتحسّس الرجل بطرف يده الخالية وجه الرسول ﷺ من خلفه وأدرك أنه هو، ولعل ما ساعده على معرفة الرسول ﷺ أنه لم يكن يظن أنّ أحدًا يقبل

إظهار هذا التعاطف مع رجل في مثل هيئته المزرية إلا الرسول الكريم ﷺ، وتشجّع فانضوى في صدر الرسول ﷺ، ولعله كــان يريــد أن يعرف إلى أي مدى يمكنه أن ينال عطف الرسول ﷺ. وابتسم ﷺ و لم يزجره، بل قال له مداعبًا: "لديّ عبد فهل يريد أحــدٌ أن يشــتريه"؟ وأدرك الرجل أنه المراد من الدعابة، فقال إنه لا يرى أحدًا يقبــل أن يشتري من هو مثله. فطمأنه الرسول ﷺ وأخبره بأن لــه عنــد الله تعالى قيمة عظيمة. (شرح السنة)

و لم يقتصر ﷺ على مراعاة الفقراء دَومًا بنفسه، بل كان أيضًا يحثّ الآخرين دائمًا أن يفعلوا ذات الشيء. وروَى أبو موسى الأشعري أن الرسول ﷺ كان إذا جاءه سائل التفت إلى من حوله يطلــب منــهم مساعدته والاشتراك في فضل العمل الصالح وإشاعته في الناس (البخاري ومسلم)، وهدفه من ذلك أن يغرس في نفوس أصحابه مشاعر اللهفة إلى مساعدة الفقير، ومن ناحية أخرى يضع في وجدان المحتاج إحساسًــا مؤكدًا بالعطف والتعاطف الذي يحمله تجاههم إخوانه الموسرون.

صيانة مكاسب الفقراء

عندما تحقق نصر الإسلام وبدأ قبوله على نطاق واسع في جزيرة العرب، تلقّى الرسول ﷺ عندئذ مبالغ كبيرة من الأموال، فقام بتوزيعها على الفور بين المحتاجين إليها. وجاءته ابنته فاطمة ذات مرة، وأرته راحتي يديها وقد تصلبتا وغلظ جلدهما بسبب الرّحَى التي تطحن بها الحب، وسألته أن يكون لها عبد يعينها على هذا العمل،

فأجابها الرسول: "ألا أدلك على خير لك من عبد، إذا ذهبت إلى فراشك فسبّحي الله ثلاثًا وثلاثين، واحمديه ثلاثًا وثلاثين، وكبريه ثلاثًا وثلاثين، فإن فعلت فإنه خير لك من عبد" (البخاري).

وفي إحدى المرّات كان يوزع بعض المال، وحدث أن سقطت من يده قطعة نقد وتدحرجت حتى غابت عن بصره أثناء عدّ المال. وانتهى التوزيع، وذهب الرسول ﷺ إلى الصلاة فأمّ الناس. وكان من عادته أن يمكث بعد الصلاة قليلاً مشغولاً بحمد الله وتسبيحه، ثم يردّ بعدها على أسئلة الناس أو يجيب مطالبهم. ولكنه هذه المرة سارع بعد الصلاة مباشرة وعاد إلى البيت حالما تذكر أمر القطعة النقدية الساقطة، وبحث عنها ليدفعها إلى محتاج؛ لقد خشي أنه إن لم يفعل فقد يقف أمام الله ليسأله عن ذلك، فكان هذا سبب تركه المسجد مسرعًا ليجد القطعة النقدية (البخاري). ولم يدّخر وسعًا في بحثه الدائب عن وسيلة لحفظ مكاسب الفقراء والمحتاجين، حتى لقد أعلن أن آله لا تجوز عليهم الصدقة، ولا يأكلون الصدقات، خشية أن يندفع المسلمون بصدقاتهم على آل محمد لشدة حبهم وإخلاصهم له، فيجوروا على حقّ الفقراء والمحتاجين الذي أوجبه الله في الصدقات.

ومرة جاءه رجل بكمية من تمر وعرضها عليه على أنها صدقة، وجاء حفيده الإمام الحسن، وكان عمره عامان فقط، فالتقط منها واحدة ورفعها إلى فمه، فوضع الرسول ﷺ أصابعه لفوره في فم الطفل وأخرج التمرة منه وهو يقول: "كخ كخ، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة" (البخاري).

معاملته للعبيد

ولقد حض ﷺ الذين يملكون عبيدًا على أن يحسنوا معاملتهم دائمًا والعطف عليهم، وأعلن أن من أساء معاملة عبده أو ضربه فكفارة ذلك عتقه (مسلم، كتاب الإيمان). ولقد وضع الوسائل لتحرير العبيد وشجّع على ذلك بكل ذريعة ومبرر، وكان يقول: "إن من أعتق عبدًا أعتق الله من النار بكل جزء من أجزاء جسد العبد جزءً من جسد من حرّره". وأعلن كذلك أنّ العبيد لا يُكلّفون عملاً فوق الطاقة بل يُؤمرون فقط بما في طوقهم، وأنّ السيد إذا أمر عبده بعمل فعلى السيد أن يعين عبده حتى لا يحس العبد بمهانة (مسلم). وإذا سافر السيد مع عبده فعلى السيد أن يشرك معه العبد في الراحلة يركباها معا أو يتعاقباها الواحد بعد الآخر. وكان أبو هريرة يقضي كل وقته مع الرسول ﷺ بعد أن هاجر إليه مسلمًا، ولقد سمع الرسول ﷺ مرارًا يوصي بحسن معاملة العبيد، وكان أبو هريرة يقول إنه لولا صحبة الرسول ﷺ وشهوده معه المعارك وأداء الحج معه، ولولا واجب خدمة أمّه العجوز، لتمنى أن يموت عبدًا من كثرة ما سمع الرسول الكريم يوصي دائمًا بالعبيد، وأن يعامَلوا بلطف وحسن المعشر.

وروَى معرور بن سُوَيْد أنه رأى أبا ذر الغفّاري يلبس ثوبًا يماثل الثوب الذي يرتديه عبده، فسأله عن السبب في هذا فقال: "لقد عيّرت رجلا بأمّه لأنها كانت أمَة، وكان ذلك أيام حياة الرسول ﷺ فوبخني الرسول قائلاً: "أعيرته بأمّه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم، خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله له سلطانًا على

أخيه فليطعمه مما يأكل، وليكسه مما يلبس، ولا يكلّفه ما لا يطيق، وليُعنه ما استطاع أو إذا سأله".

وفى مناسبة أخرى قال الرسول ﷺ ما معناه: "إذا طبخ لك عبدك طعاما وقدّمه لك، فأجلسه معك ليأكل، وإلا فليذق منه نصيبًا تقتطعه له، إنه هو صانعه فله إذن حق فيه". (مسلم)

معاملة النساء

كان رسول الله معنيًّا كل العناية بتحسين ظروف حياة النساء في المجتمع الإنساني، ولتأمين مكان كريم لهن يضمن العدالة والإنصاف في معاملتهن. والإسلام أول دين أعطى المرأة حق الإرث، وأعطى القرآن البنات الحق مع البنين أن يرثن مما ترك الوالدان. وجعل الأم وريثة لابنها وابنتها وجعل الزوجة وارثة لزوجها، مما تركوا من مال. وإذا ورث أخ من مال أخيه المتوفى فإن أخته ترث معه كذلك من هذه التركة، ولم يحدث لأيّ دين قبل الإسلام أن قنّن حقّ النساء في الميراث أو أن يملكن ثروة خاصة بهن. والمرأة في الإسلام تملك ثروتها بشكل مطلق، ولا حقّ لزوجها في التحكم في ثروتها بسبب العلاقة الزوجية، وللمرأة كل الحق والحرية أن تتصرف في مالها كما تشاء.

ولقد اهتمّ الرسول ﷺ بنوع المعاملة التي تلقاها النساء، حتى وجد الناس حوله صعوبة في التكيّف مع هذه المقاييس الجديدة التي كان معنيّا بغرسها وصيانتها، وهي النظر إلى المرأة على أنها مُعين ورفيق وشريك في الحياة. فقد رُوي عن عُمر رضي الله عنه قوله: إن امرأتي راجعتني

في شأن من شؤني، فوبختها قائلا إن العرب لا تسمح للنساء بالتدخل في شؤنهم. فردت علي قائلة: إن ذلك قد فات أوانه، فنبيّ الله يسمح لنسائه أن يراجعنه ولا يمنعهن، أفأنت خير منه؟ فقلت لها إذا فعلت عائشة ذلك فإن لها مكانة خاصة، ولكن حذار أن تفعل ذلك ابنتكِ (حفصة) حتى لا تنال شر الجزاء على ذلك يومًا ما من غضب رسول الله عليها. وحدث بعد ذلك أن رسول الله غضب لأمر ما وقرر أن يقضي بعض الوقت بعيدًا عن أزواجه، وعندما علمتُ بذلك قلت لامرأتي: "لقد حدث ما كنت أخشاه". فذهبت إلى بيت حفصة ابنتي ووجدتها تبكي، فسألتها عن السبب وهل طلقها النبيّ؟ فردّت أنها لا تدري شيئًا عن الطلاق، ولكن رسول الله قرر هجر أزواجه إلى حين. فقلت لها ألم أقل لك وأحذّرك مرارًا ألا تنظري إلى عائشة لتصنعي مع الرسول كما تصنع هي فإن الرسول يحبها حبًّا خاصًا، وما أراك إلا قد جلبت على نفسك غضبه الذي كنت أخشاه. ثم ذهبتُ إلى الرسول ﷺ فوجدته نائمًا على حصير خشن، وكان ساعتها لا يرتدي قميصه، ورأيت أثر الحصير على جنبه، فجلست قربه وقلت: كسرى وقيصر في الحرير يرفلون وأنت رسول الله قد أثر الحصير في جنبك؟ فنهض الرسول قائلاً: "أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"، ثم روَيتُ له ما حدث مع امرأتي ومع حفصة، فضحك الرسول وقال ما معناه: إنني لم أطلق أزواجي ولكني رأيت من الأفضل قضاء وقت بعيدًا عنهن (البخاري، كتاب النكاح وكتاب المظالم).

وكان ﷺ حريصًا على مراعاة شعور النساء، حتى إنه في إحدى المناسبات بينما كان يؤم الصلاة سمع بكاء طفل فأسرع في أداء الصلاة، وذكر بعدها أنه عندما سمع صوت بكاء الطفل أدرك أنّ الأم سوف تشعر بالقلق والوَجْد لبكائه، وهذا ما دفعه إلى التعجيل بإنهاء الصلاة حتى تتمكن الأم من العناية بطفلها.

وعندما كانت النساء يشتركن في أسفاره مع المسلمين، كان يوصي دائمًا بهدوء الخطى والسير الرفيق. وفي مناسبة من هذه الأسفار، حدث أن دفع الرجال المطايا ليتقدّموا مسرعين، فصاح بهم الرسول ﷺ: "رِفقًا بالقوارير، رِفقًا بالقوارير". وقصد بذلك أنّ النساء المسافرات سوف يعانين المتاعب من رجّة الحركة السريعة للجمال والخيل (البخاري، كتاب الأدب).

وفي إحدى المعارك، حدثت فوضى بين صفوف الجند الذين كانوا يمتطون إبلهم وخيولهم واستعصت قيادة المطايا، وسقط الرسول ﷺ من فوق حصانه، وسقطت بعض النساء أيضًا من فوق مطاياهن. وجاء أحد الصحابة فترجّل عن جمله وأسرع نحو الرسول ﷺ صائحًا: "فداك أبي وأمي يا رسول الله"، وكانت قدمه معلقة في الركاب فخلصها منه، فقال له الرسول ﷺ في عجلة أن يدعه وينظر ماذا فعلت النساء.

وقبل موته ﷺ، أوصَى وشدّد في خطابه للمسلمين على حسن معاملة النساء وإيلائهن العطف والاحترام، وكان مما قاله وأعاد القول فيه مرارًا أنّ من رزقه الله من البنات فربّاهن وعلمهن وأحسن

تأديبهن، كنّ لــه سترًا من عذاب النار يوم القيامة (الترمذي).

وكان من عادة العرب إيقاع الأذى على بدن المرأة لأقل خطأ يصدر عنها، فعلّمهم الرسول ﷺ أنّ النساء شقائق الرجال، خلقهم الله جميعًا سواء، ولسن عبيدًا للرجال ولا يصحّ ضربهن. وعندما عرفت النســاء ذلك، حدث أن تطرّف بعضهن في معارضة الرجال في كــل شــيء، فكان أن اختلّ السلام في كثير من البيوتات وتهدّد استقرارها. وشــكا عُمر رضي الله عنه من ذلك إلى الرسول ﷺ قائلاً إن النساء إذا لم يعاقَبن فسوف يفلت زمام التحكم، ولن يكون في المستطاع ضبط الحياة في البيت. ولم يكن التنْزيل الحكيم قد جاء بالنظام الأمثل لمعاملة النساء بعد ، فأشــار الرسول ﷺ بأنه يمكن عقاب المرأة إذا ارتكبت جنوحًا جسيمًا يهــدد استقرار الأسرة واستمرارها. ولكن هذا القول قد أسيء فهمه، فجــنح بعض الرجال للعودة إلى عادة العــرب الأولى، وجــاء دور النســاء ليشتكين، وبسطن مظلمتهن بين يدي نساء النبيّ. عندئــذ عاتــب ﷺ الرجال لائمًا، وقال لهم إنّ النساء جئن يشتكين من ضرب الرجــال، وإنّ الذين يفعلون ذلك ليسوا من خيار المسلمين. ومنذ ذلك الحين تم تكريس حقوق النساء، ولأول مرة بدأت المرأة تُعامَل كفرد آدمي كريم حر، وباعتبارها شخصا كامل الأهلية والمقوّمات الإنسانية والمســئولية الخاصة (أبو داود، كتاب النكاح).

وروَى معاوية القشيري أن امرأته اشتكته إلى الرسول ﷺ فأمره أن يطعمها مما يأكل مما رزقه الله من فضله، وأن يكسوها مما يلبس، وألا يضربها ولا يسيء عشرتها ولا يخرجها من بيته. وكان من حفاظه على

أحاسيس النساء أنه كان يوصي الذين يضطرون للسفر أن يعودوا إلى أزواجهم حالما ينتهي هذا الاضطرار، حتى لا يعاني الأبنـــاء والأزواج من هذا الفراق. وكان الرسول ﷺ إذا عاد من سفره فلا يدخل البيت إلا نهارًا، وكان إذا اقترب من المدينة مع اقتراب الليل عسكر خـــارج المدينة حتى الصباح، كراهية أن يطرق البيوت ليلاً. وأوصَى أصـــحابه حين يرجع أحدهم من سفره ألا يطرقوا المنازل فجأة، بل يرسلوا من يؤذن بعودتهم، لتمتشط الشعثاء أو تستعد (البخاري ومســـلم)، فقد كان يرى أن العلاقة بين الزوجين تتأثر بالهيئة التي يرى فيها كـــل منـــهما الآخر، وفي غياب الزوج قد تهمل المرأة أمر العناية ببدنها أو ملابسها، فإذا عاد الزوج فجأة إلى بيته فقد تختل مشاعر أحدهما بســـبب هـــذا المشهد. ولكن بتوجيه هذا الأمر - وهو أن يعمل الـــزوج علـــى أن تكون عودته من سفره نهارًا ليستعد لملاقاة أهله، وأن يخبر أهله بخـــبر وصوله - فإننا نضمن بذلك أن تكون هيئة الأفراد لائقة مناسبة عنـــد استقبال بعضهم للبعض.

معاملة الميت واحترامه

حضّ الرسول ﷺ كل شخص أن يترك وصيّة يبين فيها الترتيبـــات اللازمة التي تنظم الأمور وشئون الحياة من بعده بحيث لا يسبّب المعاناة لأبنائه أو أقاربه بعد موته. وأعلن أنه لا يحق لإنسان أن يتحدث عـــن ميّت بسوء، بل نذكر حُسن الفعال إذا تحدثنا، فلا فائدة مـــن ذكـــر السيئات أو مواطن الضعف لدَى من مات، أما ذكر المحاسن فيشـــجع

الناس أن يدعوا له (البخاري).

وكان يحضّ أيضًا على سداد ديون الميت قبل دفنه، وغالبًا ما كان يقوم بسدادها بنفسه، فإذا لم يستطع ذلك فإنه يشجّع الوَرثة والأقارب الأدنى إلى الميت أن يقوموا بذلك، أو يحث المسلمين الآخرين أن يتحمّلوا سداد الديون، ولا يقوم بصلاة الجنازة على ميّت ما لم تُقضَ ديونه عنه.

معاملة الجيران

كان ﷺ يعامل جيرانه باحترام وودّ بالغيْن إلى أقصى حد، وكان يقول إن جبريل عليه السلام ظل يوصيه بالجار حتى ظن أنه سيورّثه. وروَى أبو ذر رضي الله عنه أن الرسول الكريم ﷺ قال له: "إذا طبخت لأهلك فزد في المرق حتى تعطي منه جارك". وليس معنى هذا أن الجار لا يشترك في غير ذلك من الطعام، ولكن لما كان طعام العرب المفضل هو من اللحم، لذلك كان للمرق شأن فيه. ولقد اتخذ الرسول ﷺ من طبق المرق مُنطلقًا ليضرب به مثلاً يعلمنا أن لا يقتصر فكر المرء على الاستمتاع بمذاق الطعام فقط، بل عليه أن يُفكر أيضًا في جاره فيشركه معه في طعامه، وبذلك يتم التوازن بين الرغبة والواجب.

وروَى أبو هريرة أن الرسول ﷺ أعلن يوما قائلاً: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن". فسأله أصحابه: "من هو يا رسول الله"؟ فأجاب قائلاً: "من لا يأمن جاره بوائقه" وخاطب النساء مرة قائلاً ما معناه أنه إذا لم يجد المرء سوى كارع أو رجل ماعز فطبخها فعليه أن

يشرك معه جاره.

وأمر الناس ألا يدقّوا الأوتاد في جدران بيوت الجيران، ولا يغرسوا الأخشاب التي تحمل السقف في حوائطهم.

وروَى أبو هريرة أنّ رسول الله قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت" (مسلم).

معاملة الأقارب

هناك عيب شائع في أغلب الناس، وهو أنهم يبدأون في إهمال والديهم عندما يتزوّجون وينتقلون للإقامة في بيوتهم الخاصة بهم، ولذلك أكّد الرسول ﷺ على استحقاق الوالدين لخدمة الابن ورعايته، وحقهما في نوال التوقير والمعاملة العطوفة.

وروَى أبو هريرة أن رجلا جاء إلى الرسول ﷺ يسأله عن أحقّ الناس بحسن صحبته؟

فقال الرسول ﷺ: "أمك". فقال الرجل: "ثم من"؟ فكرر الرسول ﷺ قوله: "أمك". فسأل الرجل للمرة الثالثة: "ثم من"؟ فأعاد الرسول ﷺ جوابه: "أمك". فأعاد الرجل سؤاله للمرة الرابعة فقال: "ثم من"؟ وحينئذ قال الرسول ﷺ: "أبوك، ثم الأقربون؛ الأقرب ثم الأبعد".

لقد مات والده قبل مولده، ومات جدّه في بداية نشأته، ولكن بعض زوجاته كان لهن آباء وأمهات أحياء، فكان يعاملهم باحترام وتوقير عظيمين. وفى إحدى المناسبات عند فتح مكة، بعد أن دخلها

ﷺ قائدًا منتصرًا، جاء أبو بكر رضي الله عنه بأبيه ليلقَى الرسول ﷺ، فعاتب ﷺ أبا بكر لإزعاجه أبيه حتى يأتي إليه، وقال إنه كان من الأوْلى أن يذهب هو إليه بنفسه. (السيرة الحلبية ج٣ ص٩٩)

ومن أقواله ﷺ: "ويل لمن أدرك أبويْه الكبر عنده ولم يدخلاه الجنة". ويعني هذا أن خدمة الوالدين عند الكبر كاف لنُزول البركة الإلهية ورضوان الله وفضله، فمن أتيحت له الفرصة ليخدم والديه المسنّين ويحسن إليهما ولم يفعل ذلك على أكمل وجه، فالويل له. ولقد تظلم رجل مرة إلى الرسول ﷺ أنه كلما ازداد إحسانًا ورحمة إلى أقاربه زادوه عداء، وكلما عاملهم بلطف وعطف عاملوه بجفاء، وكلما انبسط إليهم تجهّموا في وجهه وعبسوا لـه. فقال الرسول ﷺ: "لو كان ما تقول حقًّا فكأنما تسفّهم الملّ (أي تقيم عليهم الحجة) ولا يزال معك عليهم من الله ظهير ما دمت على ذلك". أي: إذا كان حقًّا ما يقول فما أسعده، لأن فضل الله تعالى سوف يتوالى في التنَزّل عليه طالما استمر على ذلك (مسلم، كتاب البر والصلة).

وكان الرسول ﷺ يحث المسلمين مرة على الصدقة والزكاة، فجاء أحد صحابته وهو أبو طلحة الأنصاري وعرض بستانًا صدقة، وكان من أحب ماله إليه. فتهلل وجه الرسول ﷺ وعبر للصحابة عن حسن فعله وأثنى عليه قائلاً: "بخ بخ، ذاك مال رابح". ثم قال لـه: "إني أرى أن تجعلها في الأقربين". أي توزعها على أقاربك الفقراء (البخاري، كتاب التفسير). وجاءه رجل مرة وصرّح له برغبته في الجهاد في سبيل الله لينال رضا الله تعالى، فسأله الرسول ﷺ عما إذا كان أحد من

والديه لا يزال حيًّا؟ فرد عليه أنّ كليهما لا زال حيًّا، ولقد تركهما يبكيان. فأرشده الرسول ﷺ أن يجعل جهاده في خدمتهما ومؤانستهما ورضاهما، وأن يُضحكهما كما أبكاهما، فهذا هو رضوان الله عليه في حالته تلك.

ولقد حدّد بوضوح قاطع للمسلمين أن الوالديْن غير المسلمين لهما نفس الحق كالوالديْن المسلمين في الرعاية، وجاءت زوج لأبي بكر تزور ابنتها "أسماء" في المدينة، ولم تكن هذه المرأة قد أسلمت، فجاءت ابنتها إلى الرسول ﷺ تسأله هل تكرمها وتصلها؟ فأجابها بالإيجاب قائلاً: "إنها أمّك" (البخاري-كتاب الأدب).

ولم يعامل ﷺ بالحسنى أقاربه المقربين وحدهم، بل عامل بالاحترام الوافر كلّ من يتّصل بهم من صلات قربى وصداقة. فحين يذبح، كان يرسل نصيبًا من اللحم لصديقات زوجه المتوفاة، السيدة خديجة؛ وكان يوصي أزواجه الأخريات ألا يغفلن صديقات السيدة خديجة في مثل هذه المناسبات. وبعد سنوات عديدة من موت السيدة خديجة، جاءت أختها "هالة" تستأذن على الرسول ﷺ وهو في معيّة بعض أصحابه. لقد رنّ صوتها في أذنيه شبيهًا بصوت السيدة خديجة، وحين سمع الرسول ﷺ صوتها تستأذن هتف قائلاً: "يا رباه، هذه هالة أخت خديجة". حقًّا، إن العاطفة الحقيقية الصادقة تتجلى وتعلن عن نفسها، فيشعر المرء بالحب والاحترام تجاه كل من تربطه صلة بمن يحب ويحترم.

وروَى أنس بن مالك أنه كان في رحلة سفر مع جرير بن عبد الله،

فوجد جريرًا يخدمه ويعامله كما لو أنه سيده. كان جريرًا أكبر سنًّا من أنس، لذلك اعترض أنس على جرير أن يضع نفسه دون مقامه الواجب. لكن جريرًا أجاب بأنه رأى الأنصار وحبهم وخدمتهم لنبيّ الله، فتأثر بذلك كثيرًا، وآلى على نفسه أن يخدم كل أنصاري يكون في رفقة معه كخادم له، وأنه بخدمته لأنَس فإنما يفي لنفسه بما عزم عليه؛ لذلك لا ينبغي لأنس أن يثنيه عن عزمه (مسلم). وهذه الواقعة تؤكد أن المرء حين يحب إنسانًا حبًّا حقيقيًّا، فإنّ مشاعره تمتد إلى الذين يخدمون محبوبه بإخلاص. وهكذا، فإنّ من يجلّون ويحترمون آباءهم وأمهاتهم، فإنهم ينظرون لكل من يكون صديقًا أو قريبًا لآبائهم بنفس عين الرعاية والاحترام.

وذات مرة شدّد الرسول ﷺ في خطابه على هذه المسألة، باعتبارها فضيلة عليا وأنها من أعمال البر. وكان ممن سمع هذا التشديد أحد صحابته وهو عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما. وبعد سنين عدة مرّت على ذلك، لقي عبد الله بن عمر رجلاً بدويًا أثناء الحج، فعرض عبد الله عليه راحلته ليركبها البدوي، كما أهدى إليه عمامته. وشاهد صاحب له ما يحدث، فوجد أن عبد الله يبالغ في إكرام الرجل، بينما الرجل في نظره يكفيه أقل من ذلك. فقال عبد الله بن عمر: "إنه كان صديقًا لعُمر رضي الله عنه، وإني سمعت الرسول ﷺ يقول: "إن من أبر البر أن يصل الرجل أصدقاء أبيه".

دوام الصحبة الصالحة

كان الرسول ﷺ يحب دوام صحبة الفضلاء والصالحين، وإذا رأى ضعفًا أو عيبًا في أحد أصحابه نصحه في لطف وعلى انفراد. وروَى أبو موسى الأشعري ﷺ أن نبيّ الله ضرب مثلاً يوضّح به الفوائد التي تعود على الإنسان من الصديق الصالح والجليس الطيب الفاضل، ويشرح المصائب التي يمكن أن تصيب الإنسان من الصديق السيئ والجليس الخبيث، فقال: "مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً". وكان يقول: "الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ" (البخاري ومسلم).

اجتناب سوء الظن

كان نبي الله ﷺ شديد الحرص على أن يجتنب الناس سوء الظن. وحدث أن جاءت زوجه السيدة صفية يومًا إلى المسجد وهو معتكف لتراه. وعندما حان وقت عودها كان الجو قد أظلم، فقرر الرسول ﷺ اصطحابها إلى بيتها. وفى الطريق مر عليه رجلان، فأوقفهما تفاديًا لأن يمر في خيالهما أي خاطر بسوء الظن حينما رأياه يسير ليلاً في صحبة امرأة، وقال: تَعَالَيَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ. فقال الرجلان: يا رسول الله! حاشاك أن نظن بك شيئًا. فأجاب ﷺ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ (أي الفكر الآثم) يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ فِي

أَنْفُسِكُمَا شَيْئًا." (البخاري، كتاب الاعتكاف).

التجاوز عن أخطاء الآخرين

لم يفضح ﷺ أبدًا عيوب الآخرين أو تقصيرهم، وحضّ الناس ألا يجهروا بمعاصيهم الخاصة، وكان يقول: "مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ (أي عيبه) سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". وقال أيضًا: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ يَا فُلاَنُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ" (البخاري ومسلم).

يظن بعض الناس خطأً أنّ الاعتراف بالإثم يساعد على التوبة والتطهر منه، والحقيقة أن الاعتراف بالإثم لا يساعد إلا على التمرّد والجرأة. فالإثم خطيئة، ومن ينْزلق إليها يصبح فريسة للإحساس بالخجل والندم، وله فرصة أن يفرّ عائدًا إلى طريق الطهر والتقوَى من خلال ممر التوبة. ومثله كمثل شخص أغرته الخطيئة، ولكن نداء التقوَى يدعوه، فيستجيب للنداء ويعود، فيتلاشى تأثير الإثم عليه. لكن هؤلاء الذين يجاهرون بآثامهم ويفخرون بها يفقدون كل إحساس بالصلاح، ويفقدون قابليتهم للندم والتوبة.

وحدث مرة أن جاء رجل إلى الرسول ﷺ وقال له إنه قد زنى، (وهذه جريمة إذا ثبتت بدليل واضح فإن عقوبتها الجلد حسب الشريعة الإسلامية)، وحالما سمع الرسول ﷺ اعتراف الرجل أعرض عنه إلى ناحية أخرى وانشغل بأمر آخر. وكان قصده من ذلك أن التوبة هي

الطريق لمعالجة الموقف وليس الاعتراف. ولكن الرجل لم يفهم ذلك، وتصوّر أن الرسول ﷺ لم يسمعه، فذهب وواجه الرسول ﷺ وخاطبه مكررًا اعترافه. فأعرض عنه ثانية، ولكن الرجل ذهب وواجه الرسول ﷺ ليكرر نفس الاعتراف. وعندما فعل ذلك أربع مرات، عبر الرسول عن غرضه من إعطاء الفرصة له. ثم أمر بسؤال المرأة، فإن أنكرت فالعقوبة على الرجل وحده، وإذا اعترفت عوقبت معه. وكانت عادة الرسول ﷺ أن ينفذ حكم التوراة فيما لم ينْزل فيه القرآن المجيد، وكان نصّ التوراة في الزاني هو الرجْم حتى الموت، فنطق الرسول بالحكم على الرجل بناء على ذلك. وعند تنفيذ الحكم حاول الرجل الفرار، ولكن الناس لاحقوه ونفّذوا فيه الحكم. وعندما علم الرسول ﷺ بالأمر، لم يرض عما فعلوه، وأفهمهم أنه حكم على الرجل بناء على اعترافه هو، ومحاولته الفرار تعني سحب اعترافه والعودة عنه، وبناء عليه فلم يعد عُرضة للعقوبة التي وجبت بناء على اعترافه.

وأعلن الرسول ﷺ أن العقوبة في الدنيا لا تجوز إلا على الأعمال الظاهرة الواضحة، وليس على ما يكنّ الإنسان في قلبه. وقد حدث مرة خلال القتال أنّ أحد رجال العدوّ كان يتتبع بعض المسلمين، ويكمن لهم، فإذا رأى مسلمًا منفردًا عن صحبه قتله. وفي هذه المرة أدركه أسامة بن زيد وأمسك به، ثم استل سيفه ليقتله، فلما رأى الرجل أن لا مهرب أمامه، نطق بشهادة ألا إله إلا الله، وكان ذلك يعني قبوله الإسلام. فلم يُلق أسامة بالاً إلى ذلك وقتله. وعندما رُويت هذه الواقعة على مسامع الرسول ﷺ، من بين ما رُوي من قصة

الحملة، أرسل إلى أسامة وسأله عنها، فلما أكّد له صحة الواقعة، سأل الرسول ﷺ أسامة عما سيفعله إذا جاء هذا الرجل يوم القيامة يحمل شهادته معه؟ فأجاب أسامة: "يا رسول الله! لقد قتل هذا الرجل المسلمين، وإنما قال الكلمة خدعة لينجو من العقاب". ولكن الرسول ﷺ ظل يكرر: "ماذا تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة"؟ ومعنى ذلك أن الله سيُحمّل أسامة مسئولية موت الرجل، لأنه وإن كان قتل المسلمين إلا أن تلاوته للشهادة كانت دليلاً على أنه تاب عن فعله السيئ. ولما اعترض أسامة بأن الرجل لم ينطق بالشهادة إلاَّ خوفًا من الموت وليس بسبب التوبة، قال له الرسول ﷺ: "أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا". وظل يكرر: "ماذا تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة". ويقول أسامة: "فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ" (مسلم، كتاب الإيمان).

كان هذا الرسول الكريم ﷺ على استعداد دائمًا للعفو عن أخطاء الناس وتجاوزاتهم. كان أحد الأشخاص قد تورّط في قذف زوج الرسول ﷺ السيدة عائشة، وكان يعتمد في نفقات معيشته على صدقة من أبي بكر، والد عائشة. وعندما ثبتت براءة السيدة عائشة، وتبين زيف الاتهامات، أوقف أبو بكر معونته لهذا الرجل. وكان ذلك يُعتبر ضبطًا محمودًا للنفس من جهة أبي بكر؛ لأن الرجل العادي في ذلك الموقف كان جديرًا أن يتوَغّل في النقمة إلى أقصى مدى ضد فقير عالة قام بتشويه سمعة ابنته. ولكن لما عرف الرسول ﷺ ما صنعه أبو بكر كلَّمه، وأشار إلى أن الرجل وإن كان قد أخطأ، إلا أنه لا يُنتظر من

رجل مثل أبي بكر أن يقطع عنه وسائل معيشته بسبب خطئه. وعند ذلك رجع أبو بكر إلى كفالة الرجل (البخاري، كتاب التفسير).

الصبر عند البلاء

كان ﷺ يقول: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا لــــه". وعندما اقتربت وفاته، كان يتأوّه من شدة الألم، ولم تتحمّل السيدة فاطمة مشهده وهو يعاني فقالت: "وا كرب أبتاه". فقال لها إذ ذاك: لا كرب على أبيك بعد اليوم". وكان يقصد أنّ متاعبه محصورة في حدود هذا العالم، ولكنه منذ اليوم سينطلق من هذه الحياة ليدخل في حضور مع الله خالقه، ولن يكون مُعرَّضًا بعد اليوم لأيّ كرب.

وعندما كان ينتشر أيّ وباء، لم يكن يقبل أن ينتقل الناس من البلدة الموبوءة إلى أخرى، لأن ذلك يعمل على توسيع رقعة الوباء، وكان يقول ما يشير إلى أن من يمكث في بلده وقت الطاعون ويحجم عن نقل المرض إلى منطقة أخرى غير موبوءة، ثم يموت هذا الإنسان بسبب الوباء، فإنه يُعتبر شهيدًا عند الله تعالى (البخاري، كتاب الطب).

التعاون المتبادل

وكان من تعليمه ﷺ أن من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وأن الناس لا يصح أن ينشغلوا بنقد الآخرين أو يتدخّلوا في شئونهم التي لا

تعنيهم. وهذه قاعدة أساسية، لو تم تبنّيها ورعايتها وتنفيذها لأدّت إلى ضمان السلام وانتظام أمر هذا العالم. إنّ معظم مشاكلنا تأتي من ميْل أغلبية الناس إلى الاستمتاع بالتطفل والتدخّل في أمور الآخرين، وفي نفس الوقت يمتنعون عن مدّ يد المساعدة لمن يحتاج منهم للمعونة، ولا يتقدمون لإغاثة الملهوف حين يقتضي الموقف ذلك. وقد حثّ الرسول ﷺ مشدّدا على ضرورة تبادل التعاون بين الناس. وجعلها قاعدة سارية: أنه إذا طولب أحد المسلمين بدفع قدْر من المال بسبب عقوبة موقّعة عليه، وكان عاجزًا عن الوفاء بكل المبلغ، فإن أفراد عائلته أو جيرانه أو أهل بلده، يجب عليهم مساعدته للوفاء بالباقي عن طريق المساهمة المشتركة. وكان بعض المسلمين يتركون مَواطنهم ليسكنوا قريبًا من الرسول ﷺ، ليكرّسوا كل وقتهم وجهدهم لخدمة الإسلام بشتى الطرق، فكان الرسول ﷺ ينصح أقاربهم أن يمدّوهم بحاجاتهم الضرورية. ورُوي عن أنس رضي الله عنه أن شخصًا كان قد أسلم هو وأخوه، فمكث أحدهما مع الرسول ﷺ متفرّغًا، وظل الآخر في مشاغله العادية، فجاء هذا بعد مدة يشتكي للنبيّ ﷺ أن أخاه يضيّع وقته متبطلاً، فقال له إنه يُرزق بسببه. أي أن عليه أن يعطي أخاه ليتفرّغ لخدمة الدين لأن الله تعالى يعطيه من أجل أخيه هذا قصدًا (الترمذي).

وفي أحد الأسفار، عندما بلغ ركب الرسول ﷺ مكانًا ليعسكروا فيه، انشغل صحابته على الفور بأداء واجباتهم الخاصة بتجهيز المعسكر استعدادًا لقضاء الليلة. ورأى الرسول ﷺ أنهم لم يتركوا له عملاً، فأعلن بالتالي أنه سيذهب ليجمع الحطب للطهي، فاعترض الصحابة

قائلين إنهم يكفونه هذا العمل، فأخبرهم أنّ واجبه هو مشاركتهم فيما يجب عمله مهما كان، وفعلاً ذهب في البرية يجمع الحطب للطبخ (الزرقاني ج٤ ص٣٠٦).

الصدق

وكما سبق ذكره، كان الرسول ﷺ شديد الاستمساك بأعلى مستويات الصدق، حتى عُرف بين الناس بالصادق والأمين. وبنفس الأسلوب، كان حريصًا على أن يتّخذ المسلمون نفس السبيل في التمسك بأعلى مراتب الصدق مثله، وكان يعتبر الصدق قاعدة لكل الفضائل والخيرات والصالحات، وعلّم الناس أنّ الشخص الصادق هو الذي يصدق، ويظل يصدق، ويؤكّد صدقه، حتى يُكتب عند الله صدّيقًا.

ومرة جيء بسجين مذنب إلى الرسول ﷺ كان يقتل المسلمين بشكل وحشي، وكان عُمر بن الخطاب رضي الله عنه موجودًا أيضًا، وكان يرى أنّ الرجل مستحق تمامًا لعقوبة القتل، وأخذ ينظر إلى الرسول مرارًا يتوقع منه في أية لحظة أن يشير بقتله. وبعد أن عفا الرسول ﷺ عن الرجل، قال عُمر للنبيّ ﷺ إنه كان يستحق الموت عقوبة على جرائمه. فقال له الرسول ﷺ: فلم لم تقتله؟ فقال عُمر: "يا رسول الله! لو غمزت لنا بطرف عينيك لفعلنا". فقال ﷺ عند ذلك: "ما كان لنبيّ أن تكون له خائنة الأعين." (ابن هشام ج٢ ص٢١٧).

وجاء رجل إلى الرسول ﷺ واعترف له أنه يعاني من ثلاث رذائل:

الكذب وشرب الخمر والزنا، وأنه قد حاول تركها ولكنه فشل في ذلك، وسأله علاجًا للمشكلة. فأوضح لـــه الرسول ﷺ أنه لو ضمن له أن يدع واحدة منهن فهو يضمن لـــه علاج البقية، فوعد الرجل بذلك وطلب منه ذكر الواحدة، فقال لـــه ﷺ أن يدع الكذب. وبعد فترة من الزمن جاء الرجل للنبيّ ﷺ وصرّح لـــه أنه عوفي من الرذائل الثلاث لما اتبع نصيحته بأمانة. فطلب منه ﷺ أن يروي تفصيل ذلك. فقال الرجل: أردت أن أشرب الخمر يومًا، وعندما كدت أفعل تذكرت وعدي لك، ورأيت أنه لو أنّ أحدًا من صحبي سألني هل شربت، فإنني سأضطر إلى قول الحق وأعترف له أني فعلت، مما يعني أن أكتسب سمعة خبيثة بين أصحابي فيهجروني، فأقنعت نفسي بتأجيل الشراب إلى وقت آخر، ومع مرور الزمن صرت قادرًا على مقاومة الإغراء. وبنفس الطريقة حدث أن وجدت من نفسي ميلاً إلى الزنا، فحاججت نفسي بأن الاستمتاع بهذه الخطيئة سيعرّضني لفقد احترام أصدقائي؛ إذ أنني إما أن أكذب عليهم فأخلف وعدي معك، أو أن أعترف بذنبي. وهكذا استمر الصراع بين إصراري على الوفاء بالوعد الذي قطعته لك، وبين رغبتي في متعة الشرب والزنا. وبمرور الوقت فقدت ميلي إلى هذه الخطايا، وأنقذني إصراري على الصدق والبعد عن الكذب من الخطيئتين الأخريين أيضًا.

التحسس والتجسس

كان الرسول الكريم ﷺ يحث دائمًا على نبذ التجسس، وأن يظن

كلّ بالآخر ظنًّا حسنًا. وكان يقول: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَجَسَّسُوا وَلا تَنَافَسُوا وَلا تَحَاسَدُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ وَلا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ. إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ." (مسلم، كتاب البرّ والصلة).

الوضوح والشفافية والتعامل المستقيم

كان ﷺ يهتم كثيرًا بحماية المسلمين من داء الانغماس في أي شكل من أشكال الظلم أو الخداع أو الغش في تبادل السلع والتجارة. حدث أن مّر في السوق يومًا فرأى كوْمة من حبوب تُباع، فأدخل يده فيها فوجد بللاً تحت الطبقة الجافة، فسأل البائع عن السبب، فقال إن السماء أمطرت فجأة فأصابها البلل. فقال له: "أفلا أظهرته للناس"؟ وكان غرضه أن يعرف الشاري حالة البضاعة الحقيقية، فقال: "من غشّنا فليس منا" (مسلم). أي ليس عضوًا نافعًا في الجماعة.

وكان حريصًا على أن تكون سوق التجارة حرة تمامًا من كل آثار الممارسات الماكرة المحتالة وريبها، وكان يحثّ الشاري على فحص ما يريد شراءه من بضاعة وأدوات، ونهى المسلم أن يفاوض على شراء شيء بينما هناك شخص آخر يفاوض عليه، وحرّم على التجّار احتكار

السلع بغرض رفع أسعارها، وأوصى بأن يستمر إمداد السوق بالسلع دون انقطاع.

التشاؤم

وكان الرسول ﷺ عدوًّا للتشاؤم. وكان يقول إن من كان مسؤولاً عن نشر روح اليأس والتشاؤم بين الناس يكون مسؤولاً أمام الله تعالى عن هلاكهم، لأن الأفكار اليائسة والمتشائمة تحط من عزيمة الناس وتؤدي إلى خذلانهم وتحرمهم من التقدم (مسلم).

كذلك فقد حذّر الرسول ﷺ قومه أيضًا من الخيلاء والفخر من ناحية، ومن التشاؤم واليأس من ناحية أخرى، وحضّهم على اتخاذ طريق الوسط بين هذين الطرفين. فعلى المسلمين أن يعملوا بكدّ وجدّ كاملين، وأن يكونوا على ثقة تامة أنّ الله تعالى سيبارك سعيهم ويؤتيهم أحسن الثمرات، وعلى كل منهم أن يسعى من أجل التقدم، ملتمسًا فعل الخيرات، ويعمل ما فيه تقدم الجماعة الإنسانية كلها، ولكن عليه أيضًا أن يتحرّر من كل مشاعر الفخر وأيّ نزوع أو ميل نحو الخيلاء.

القسوة على الحيوان

كذلك فإنه ﷺ حذّر الناس من القسوة على الحيوان، وأمر برفق المعاملة معه. وكان يروي قصة المرأة اليهودية التي عاقبها الله لأنها حبست قطتها حتى ماتت، وكذلك كان يروي قصة المرأة التي

وجدت كلبًا يعاني من شدة العطش قريبًا من بئر ماء عميق، فأخذت حذاءها ونزلت البئر وأخذت بعض الماء وسقت الكلب العطشان، فكانت النتيجة أن غفر الله لها كلّ ما سبق من آثامها بسبب هذا العمل الصالح.

وروَى عبد الله بن مسعود: بينما نحن في سفر مع رسول الله إذ رأينا فرْخي حمام في عش فأخذناهما، فجاءت أمهما فلم تجدهما في العش، فأخذت تحوم حولهما وتحوم. فجاء رسول الله ورأى الحمامة فأمر بإعادة الفرخين إلى عشهما (أبو داود).

وروَى عبد الله بن مسعود أيضًا أنهم رأوا مرة جحر نمل فوضعوا عليه بعض الحطب وأشعلوا النار فيه، فتعرّضوا لتأنيب الرسول ﷺ على عملهم هذا. وفي مرة رأى ﷺ حمارًا (موسومًا) قد كُوِيَ على وجهه فسأل عن السبب فقيل له إن الروم تلجأ إلى هذا الفعل حتى تتميز السلالات الجيدة من الحيوان. فقال لهم إنّ الوجه جزء حساس من الكائن، وإن وسم الحيوان في وجهه عمل قبيح، وإن كان لا بد، فليكن على مكان في المؤخرة (أبو داود والترمذي).

ومنذ ذلك الحين والمسلمون يسِمُون الحيوان على مؤخرته، واتّبعهم الأوروبيون في هذه العادة على نفس المنوال.

التسامح في القضايا الدينية

لم يؤكد ﷺ على أهمية وضرورة التسامح في الأمور الدينية فحسب، بل وضع مقاييس هامة وقدّم بنفسه مثالاً غاية في الرقي في

هذا الشأن.

فقد زاره بالمدينة وفد من نصارى نجران لتبادل الآراء والمناقشة حول المسائل الدينية، وكان يضم عدة رجال من أصحاب المقامات في الكنيسة. وعُقدت المحادثات في المسجد، وطالت عدة ساعات. وفى مرحلة من مراحل النقاش، طلب زعيم الوفد السماح لهم بالخروج من المسجد لكي يؤدوا صلاتهم في مكان مناسب. فأخبرهم الرسول ﷺ ألا حاجة لهم إلى الخروج من المسجد، لأن المسجد نفسه قد بُني لعبادة الله، ويمكنهم أداء صلاتهم وتعبدهم فيه (الزرقاني).

الشجاعة

لقد سبق الحديث عن عدّة أمثلة لشجاعة الرسول ﷺ وإقدامه في الجزء السابق من السيرة، ويكفي هنا أن نروي مثالاً واحدًا لا غير.

ملأت الإشاعات المدينة في وقت من الأوقات أنّ الروم يُعدّون جيشًا جرّارًا لغزوها، وكان المسلمون في هذه الآونة يبيتون مسهّدين ليلاً. وفي إحدى الليالي، سُمعت ضجّة من ناحية الصحراء، فأسرع المسلمون إلى بيوتهم، واجتمع بعضهم في المسجد ينتظرون رسول الله أن يأتي ليخبرهم بالأمر الذي يناسب التعامل مع هذا الطارئ المفاجئ، وللتوّ رأوا رسول الله على صهوَة حصان آتيًا من جهة الصوت، وعندها اكتشفوا أن الرسول ﷺ امتطى فرسه عاريًا من السرج فور سماعه الصوت المنذر بالخطر، واتخذ طريقه جهة مصدره ليتحرّى الأمر، و لم ينتظر أن يجتمع الناس معًا ليخرج في صحبة معه نحو مصدر

الخطر. وقد أخبرهم ﷺ أنه لا خوف هناك ولا روع عليهم لينصرفوا إلى النوم آمنين (البخاري، باب الشجاعة في الحرب).

مراعاته لغير المتحضرين

وكان ﷺ يوجّه رعاية خاصة لأولئك الأجلاف الذين يجهلون السلوك المناسب لنقص التحضّر. كان هناك أعرابي حديث عهد بالإسلام يجلس في صحبة الرسول ﷺ في المسجد، فنهض وسار بعيدًا عدة خطوات ثم جلس يبول في ركن من أركان المسجد. فنهض بعض أصحاب الرسول ﷺ لمنعه، فحجزهم ﷺ عنه حتى لا يزرموه فيحدث له ضرر صحي، ونصحهم أن يصبوا الماء في هذه البقعة ليطهروها بعد ذلك.

الوفاء بالعهود

كان الرسول ﷺ شديد الحرص في موضوع الوفاء بالعهود. وحدث أن جاءه رسول مبعوث من الخارج في مهمة رسميّة خاصة، وبعد أن مكث عدة أيام بصحبته، دخل في قلبه الإيمان بالإسلام، فاقترح على الرسول ﷺ أن يعلن ولاءه للإسلام. فأخبره ﷺ أن هذا الأمر غير مناسب، إذا أنه هنا له صفة تمثيلية، وينبغي له أن يعود إلى قيادته دون أن يكتسب هذا الولاء الجديد. وبعد عودته إلى أهله، إن آنس من نفسه الاقتناع التام بأن الإسلام حق، فيمكنه حينئذ أن يعود كفرد حر، ليعلن قبوله وولائه للإسلام (أبو داود، كتاب الوفاء بالعهد).

إجلال العاملين على خدمة الإنسانية

وكان ﷺ يولي إجلالاً خاصًا لأولئك الذين يهبون حياتهم ومالهم لخدمة نوع الإنسان. كانت قبيلة طيّ العربية قد بدأت العدوان على الرسول ﷺ، ولما احتدمت المعركة أصيبت قبيلة طيّ بهزيمة منكرة، ووقع البعض منهم في الأسر، وكانت منهم ابنة حاتم الطائي؛ الذي كان العرب يضربون به المثل في الكرم. وعندما أخبرت الابنة رسول الله بنسبها، عاملها باحترام جم، وعفا عن كل ما صنعه قومها من عدوان تقديرًا لأعمال أبيها (الحلبية ج٣ ص٢٢٧).

إن سلوك الرسول ﷺ وأخلاقه الكريمة متعددة الجوانب، لذلك فإنه يصعب استيفاؤها في صفحات معدودة.

حياة الرسول كتاب مفتوح

إن حياة مؤسس الإسلام العظيم ﷺ مثل الكتاب المفتوح، الذي يمكنك أن تجد فيه تفاصيل تثير الاهتمام وتخلب اللب، كلما بحثت في أي جزء منه، وتعمّقت في دراسته. ولم يحدث أن تم تسجيل وقائع حياة نبي أو حياة معلم آخر تسجيلاً جيدًا ومتاحًا للدارسين، مثل حياة الرسول العظيم ﷺ. وصحيح أن هذه الغزارة في الحقائق والمرويات المدوّنة، قد أعطت النقاد الماكرين فرصتهم المنتظرة، ولكن من الصحيح أيضًا أنه حين تتم دراسة الانتقادات بعناية، ويتم الرد الحاسم عليها، فإن ما تثيره فينا حياة الرسول ﷺ من الإيمان والحب الغامر والتقوَى، لا يماثلها فيه حياة أي شخص آخر. إن الحياة

الغامضة التي لا يعرف الناس شيئًا عن تفاصيلها قد تسلم من النقد، ولكنها لا تفلح في بث الإقناع وزرع الثقة في قلوب من يتبع أصحابها. إذ تظل صعوبات الغموض، وظلمات الحيرة، وخيبة الأمل، قابعة في القلوب. ولكن الحياة الغنية بالتفاصيل المدوّنة، مثل حياة الرسول ﷺ، تثير فينا التأمل العميق ومن ثم تثبّت الاقتناع. وعندما يتم تصفية الحسابات الخاطئة للانتقادات والمفاهيم الزائفة، بكشف الحقائق وتسليط الأضواء عليها، فمن المحتم أن تجذب حياة الرسول ﷺ منَّا كل حب وإعجاب وتقدير، وتثير فينا كل إعزاز وإكبار وتوقير، بشكل كامل ودائم وإلى الأبد.

وعلى ذلك، فمن الجليّ البيّن أنه من الصعب تقديم ملخص كامل متوازن لحياة كحياة الرسول ﷺ، التي كانت واضحة كالكتاب المفتوح، وشديدة الثراء بما تحتويه من وقائع ومواقف وأحداث. والممكن هنا فقط هو أن نحاول إعطاء مجرّد لمحة، ولكن حتى هذه اللمحة لها وزن وثقل.

إننا نرى أن الجاذبية التي تخلقها دراسة كتاب دين من الأديان هي جاذبية محدودة، ما لم تصحب هذه الدراسة معرفة واضحة عن المعلم الذي حمل هذا الكتاب. وتلك هي النقطة التي غابت عن أديان عديدة. فالديانة الهندوسية مثلاً تقدس كتاب "الفيدا"، ولكن العُبّاد من رجال (الريشى) الذين تلقوا كتاب "الفيدا" من الله، لا يوجد خبر عنهم على الإطلاق. ولا يبدو أن أنصار الهندوسية وشُرّاحها قد أدركوا مدى الحاجة إلى أن تُستكمل الرسالة ببيان عن الرسول الذي

حملها.

وكذلك، لا يتورّع علماء اليهود والمسيحية عن انتقاد أنبيائهم واتّهامهم علانية بما يُشينهم. وينسون أن الوحي الذي يفشل في تقويم الشخص الذي تلقّاه، لا يفيد الآخرين كثيرًا. وإذا كان الشخص الذي يتلقى الوحي يخالف ما يطلبه الله منه، فلماذا اختاره الله؟ وهل كان على الله أن يفعل ذلك؟ إن كلا من الفرضين يبدو غير معقول. وفكرة أن الوحي الإلهي قد عجز عن إصلاح الأنبياء الذين نزل عليهم، تعني أن الله تعالى لم يكن لديه بديل سوى أن يختار رسلاً غير مؤهلين ليحملوا وحيه، وهذا كله غير معقول. لقد وَجَدَت مثل هذه الأفكار طريقها إلى مختلف الأديان، ربما بسبب طول المدة التي انقضت منذ تأسيسها، أو بسبب أن الفكر الإنساني، حتى شروق شمس الإسلام، لم يكن قادرًا على إدراك وجه الخطأ في هذه الأفكار. وكم كان من الضرورة بمكان، بل ومن أعظم الفوائد، أن يتم حفظ القرآن المجيد وحفظ وقائع حياة المعلم الأول له معًا، في وقت مبكر من الإسلام. لقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها إحدى أزواج الرسول ﷺ، وكان عُمرها قد بلغ الثالثة عشرة أو الرابعة عشر حين تم زفافها إلى الرسول ﷺ، وعاشت زوجًا له حوالي ثماني سنوات، وعندما انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان عمرها حوالي اثنين وعشرين عامًا. كانت فتاة أمّية، ومع ذلك فقد أدركت أن التعليم لا يمكن أن ينفصل عن المعلم. وحين سُئلت مرة عن خُلق الرسول ﷺ، أجابت على الفور: "كان خُلقه القرآن" (مسند أحمد). لقد كان كل ما يعمله ﷺ يتفق تمامًا مع

تعليم القرآن المجيد، ولم تكن تعاليم ذلك الكتاب العزيز تختلف في شيء عما كان يعمله ﷺ. ولا شك أنه مما يضيف إلى رصيد الرسول ﷺ المجيد أن امرأة شابّة أمّية من أتباعه استطاعت أن تفهم وتستوعب الحقيقة التي غابت عن علماء الديانات الهندوسية واليهودية والمسيحية.

لقد عبّرت السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن حقيقة هامة وعظيمة، في جملة صغيرة بارعة حازمة؛ إنه لمن المستحيل على المعلم الصادق الأمين أن يعلّم الناس شيئًا ثم يفعل غيره. وقد كان الرسول ﷺ معلمًا حقيقيًا، صادقًا وأمينًا، وهذا هو ما أرادت السيدة عائشة أن تقوله بجلاء. لقد كان يمارس ما يعظ به، وكان يعظ بما كان يمارسه؛ وإذا عرفته فقد عرفت القرآن المجيد، وإذا عرفت القرآن المجيد فيمكنك أن تتعرّف عليه.